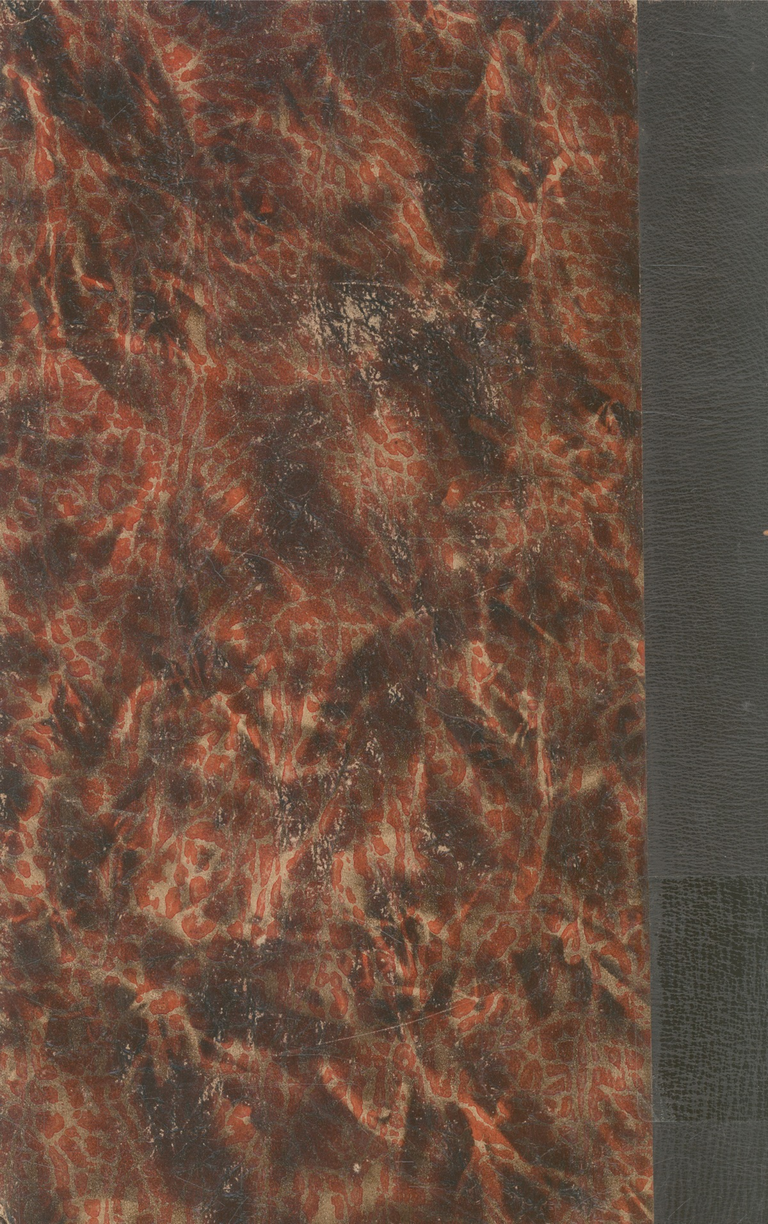
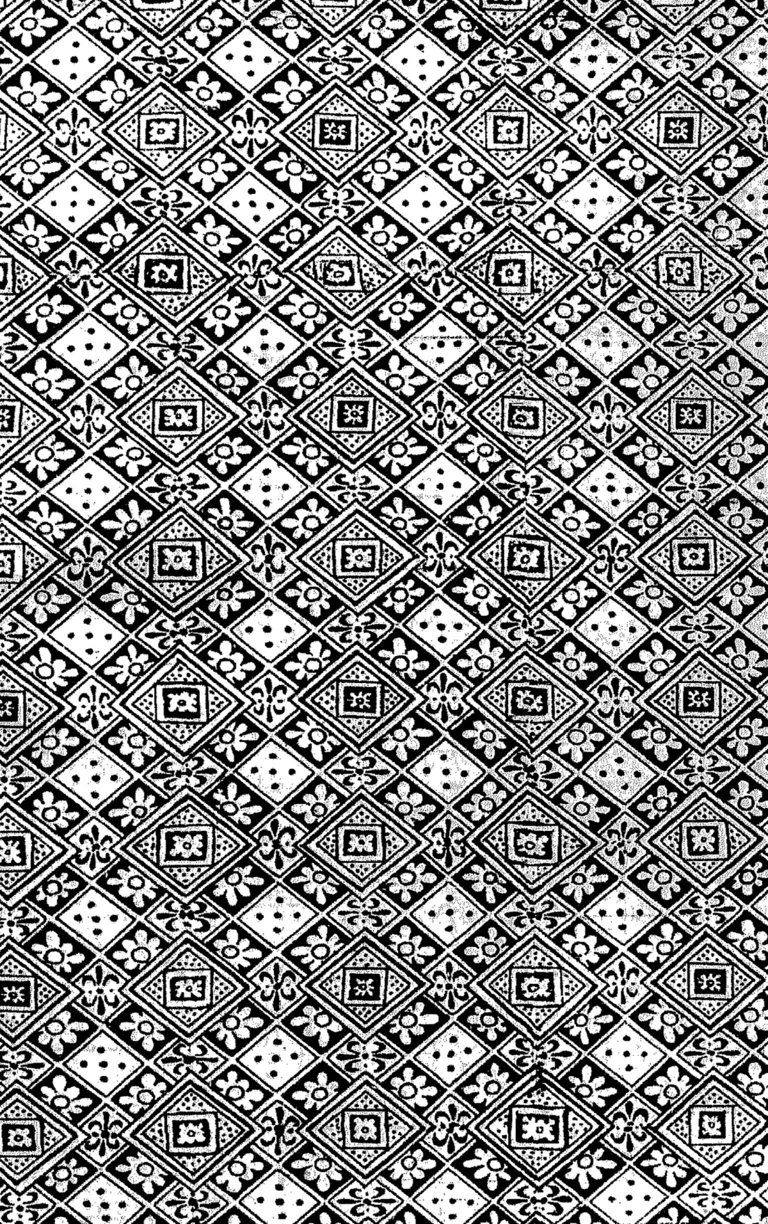
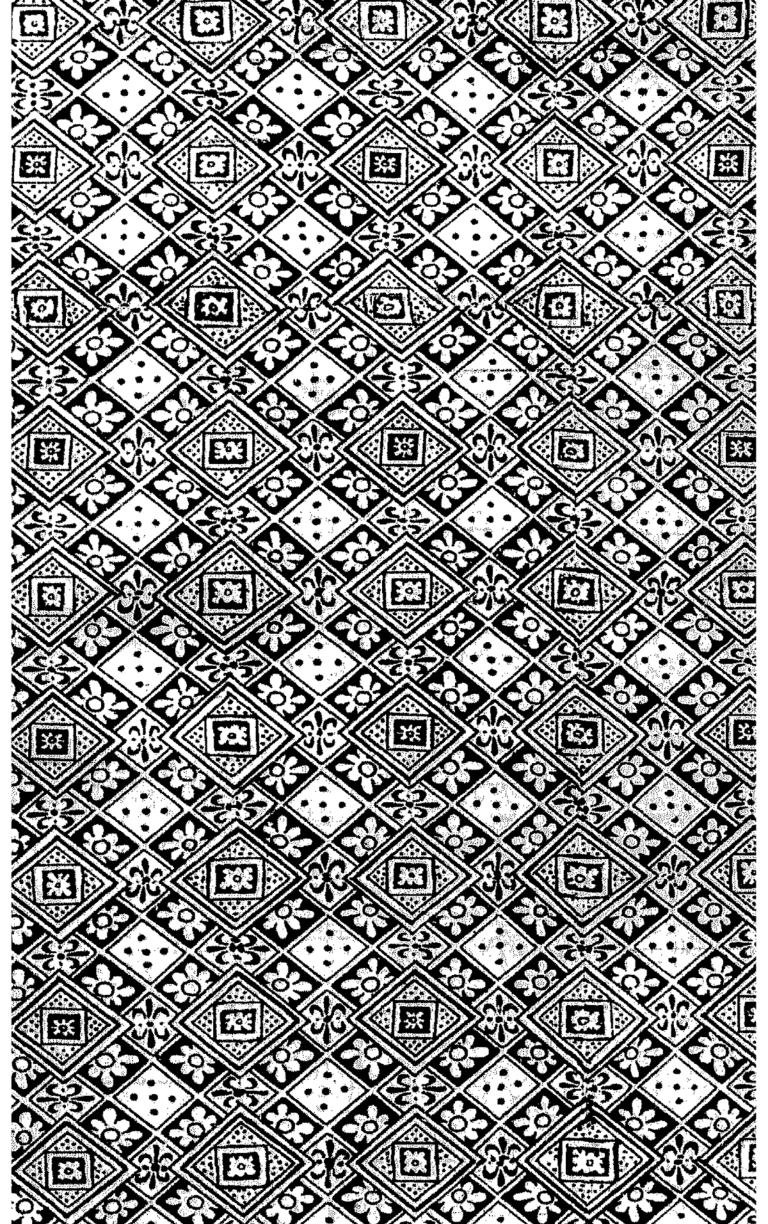
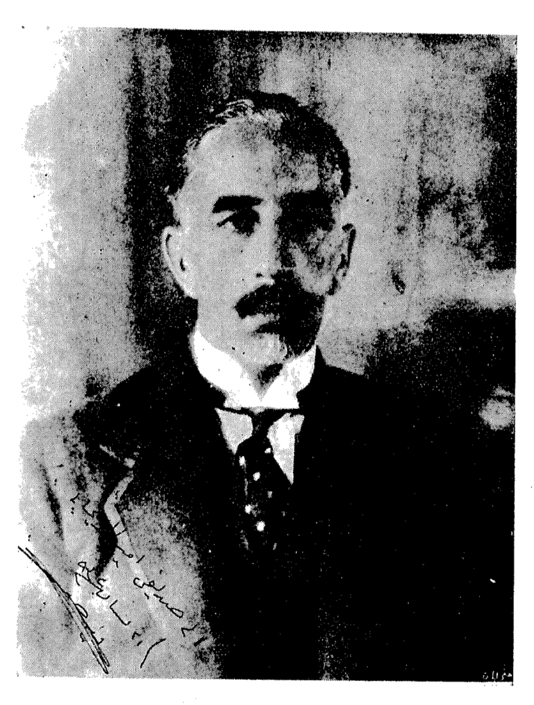










الملك فيصل

رسمه الاخير

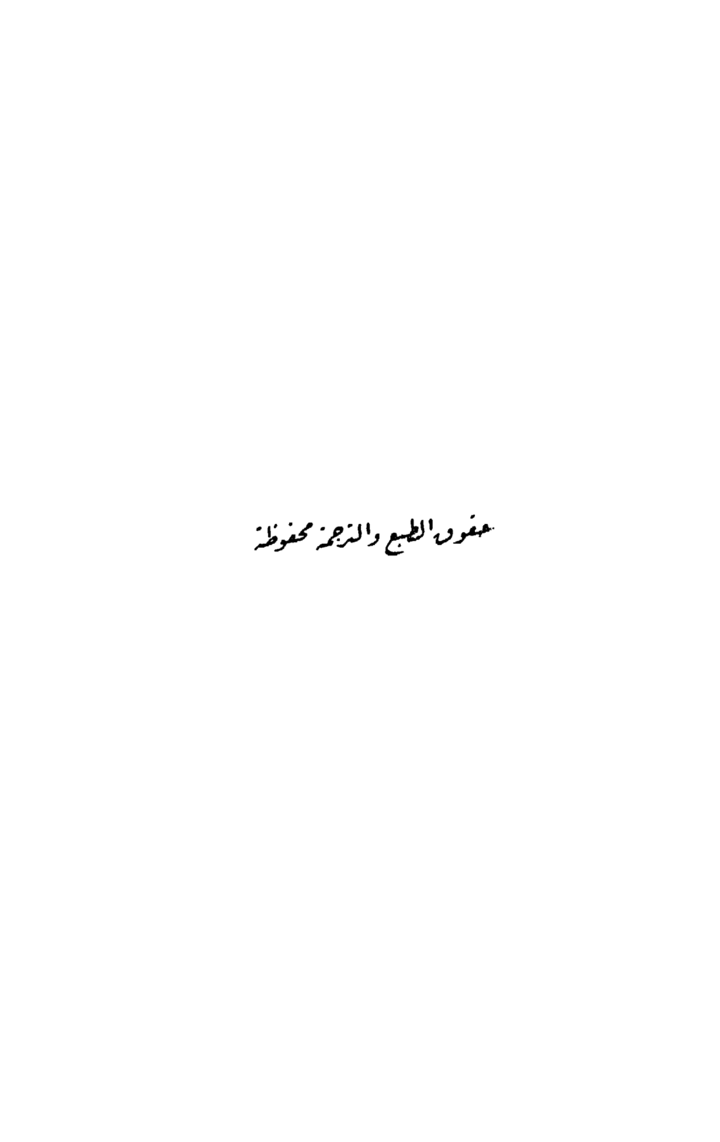
فَصلُ الأوّلُ

فيصل الأول

بقلم

امين الريحاني

مطبعة صادر - بيروت
١٩٣٤





الملك غازي

بن فيصل بن الحسين

اقدم

هذا الكتاب

الى صاحب الجلالة العظمى

الملك غازي

المتمم بعون الله الرسالة

العراقية العربية

رسالة ابيه وجده

رحمهما الله

امين

الريحاني

فهرس الكتاب

فهرس الصور

كنت في السياسة عينها الباصرة ، وميزانها السوي -
كنت في الكياسة طلعتها الساحرة ، ونطقها الذهبي -
كنت في الحذق عنوانه ، وفي الحزم برهانه ، وفي الشدة
واللين المثل العلي -
كنت في الدهاء معاوية ، وفي الصبر والاباء الشريف الرضي -
كنت في الحلم صنو الرسول ، وكنت في الوداعة اخا الناصري .

من مرثاة المؤلف صفحة ٢٢٠

المقدمة

يريب بعض الناس حبي للعرب وملوكهم ، واهتمامي الدائم لشؤونهم . وقد انتقدني نفر من الكتاب ، ونصحني الصديق منهم والمحب ، فقالوا ان وطنك القريب لبنان لأحق باهتمامك من الوطن البعيد . وقال آخرون قولاً تتجاوز النصح والنقد ، وكانوا في نفثاتهم اقرب الى تلك التي تنفث سمها منهم الى الاديب المحافظ على ادبه ، والوطني النزيه في وطنيته . ولكنت مستحقاً مذماتهم كلها لو ان حبي للعرب افقدني ذرة من حبي للبنان .

على ان هناك غير الريب في استطاعة المرء ان يجمع بين الحبين ، وان كانا غير متناقضين . ان في الامر غوامض سياسية وفكرية ، كما يظنون ، لا تلتئم وما يعهدونه بي من الصراحة ووضوح البيان . كيف لا وفي قلبي — وهذا القلب متجه الان بسمعه الى الناقدين الناصحين لا الى سواهم — تتنازع الاغراض ، وتتزاحم الاضداد . فهل انا اميركي ام لبناني ام عربي ، ام هل انا الكل في واحد ؟ وهل انا ملكي ام دمقراطي ام اشتراكي ام هل انا الثلاثة اليوم وامس وغداً ؟ ان امري ليحير الاصدقاء ويبلبل الخصوم . ولا يجوز لرجل صريح مثلي ومحب للناس مسالم مثلي ، ان يترك احداً في مزالق الحيرة وفي لجج البلبال .

ولقد سمعت من يرومون لي من العيش خيره ، ومن يتمنون لي غيره ، يقولون : ولكنك على ما نعلم دمقراطي ، تشربت روح الدمقراطية في

البلاد الاميركية ، بل في اكبر وارقى جمهورية من جمهوريات العالم ٠ وانت الحامل في خطبك ، ومقالاتك ، وكتبك ، على الظلم والظالمين ، على الاستئثار والاستبداد ، على الجهل والتعصب ٠ وانت النصير — يترددون ثم يقولون : الاكبر — لحرية الشعوب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، المطالب بها ، والمناضل في سبيلها على الدوام ٠

نعم ، اني كذلك ٠ واني مع ذلك محب للعرب ، على ما يكتنفهم من الجهل ، وعلى ما لا يزال فيهم من مساوىء الماضي السياسية ، والاجتماعية والدينية ٠ واني اهتم بشؤونهم وشؤون ملوكهم وامرائهم ، واخدمهم ما استطعت بقلمي ولساني ، على ما لا كثرهم من النعرات الاقليمية الذميمة ، والنزعات القديمة التي لا تلتئم وروح الزمان ٠

قلت : « على ما » وكدت ان اقول : لما ، اذ قد تكون الافات التي ذكرت هي السبب الدافع والعلة الجاذبة لاهتمامي ٠وما الفائدة يا ترى من بذل ما لديك ، اذا كنت ذا علم ، او مال ، او جنون وطني ، في سبيل من لا يحتاج الى علمك ، او مالك ، او جنونك ٠

اليس في هذا ما يكفي ليجلو ما في موقفي ظاهراً من التناقض والغموض؟ اني اذن ازيد في الايضاح ٠

ان اقامتي خمس وعشرين سنة في الولايات المتحدة وطدت في المبادىء الدمقراطية — اي حب الحرية العامة المتساوية ، وكره الامتيازات التي تعطى لاولي النفوذ والسيادة — وعلمتني ان شكل الحكومة واساليبها السياسية لا تطابق دائماً تلك التعاليم المدونة في دستورها الاساسي والممثلة في تقاليدها ٠فالشعب ، لا نكران ، ينتخب النواب وكبار رجال الحكومة ، ولكن الذين يسيطرون على الحكام والمشترعين ، بشتى الاساليب الظاهرة

والخفية هم ارباب المال . اجل ، ان الاسم للاحرار ، والحكم لملوك الدولار .
ولهؤلاء شركاء من رؤساء الاحزاب السياسية ، التي لا تقوم وتتعزز بدون المال . ناهيك بالانتخابات ومايتقدمها من حرب خطابية وصحافية ، ودعايات حزبية وشخصية ، تعد نفقاتها بملايين الدولارات . فاذا كان المال هو الحاكم المطلق في الحكومة الجمهورية ، وخير هذا الحكم عائد ابدا كثره الى المتمولين والمتنفذين ، فاين حرية الشعب يا ترى ، واين حقوقه السياسية والاقتصادية ، بل اين المجال الفسيح الشائع لابناء العمل الحر المستقل ؟

لست في هذا المقام معدداً سيئات الجمهورية وحسناتها — ومن ينكر الحسنات ؟ ولكني اشير الى رأس الافات فيها ، وهو يكفي لينفر عنها ، بل ليجند عليها ، حتى الاحرار في هذه الايام .

هذي هي الحقيقة في جلاء ما يظهر من التناقض بين موقفي الملكي وبين تربيتي الاميركية الدمقراطية . وهناك حقيقة اخرى اهم مما ذكرت لانها اثبت واعم . فالانسان المفكر لم يهتد حتى اليوم الى حكومة عامة في شكلها وروحها ، تصلح لكل شعب من شعوب الارض . ولا يصلح الحكم ويستقيم ، جمهورياً كان او ملكياً ، مهما تنوع الاول وتقيد الثاني ، الا اذا كان له ما يبرره ويعززه من معقول الشعب ونفسيته ، ومن تقاليد الامة وثقافتها ، هذا اذا استثنينا الحالات الشاذة التي يظهر فيها الحاكم المطلق ، فيفرض مشيئته على الامة .

فالجمهورية لا تصلح اليوم في انكلتره مثلاً ، وان كان الشعب قد الف في ملكها المقيد الاحكام الدمقراطية . ذلك لان معقوله على الاجمال ملكي ، ونفسيته نفسية الاشراف . ولا تصلح الملكية في اميركه وان كان الشعب قد ادرك مساوىء الحكم الجمهوري ، الحزبية والانتخابية والتشريعية

كلها · ذلك لان نفسيته دمقراطية مثل عقليته وتقاليده· ولا تشذ هذه القاعدة الا في الانقلاب العام ، على اثر حرب او ثورة ، كما في البلاد الروسية اليوم ·

وما هي يا ترى نفسية العربي ، وما هي تقاليد الامة العربية ؟ مهما قيل في ما علمه الرسول واوجبه من المشورة في الاحكام (وامرهم شورى بينهم — الاية) والشورى هي اساس الحكم الدمقراطي الصميم ، فان تاريخ الامة العربية ليثبت اجمالاً تلك الحقيقة التي تنافي التعليم النبوي · ومع ان العرب هم فطرةً دمقراطيون ولا يزالون كذلك في حياتهم الخاصة ، فقد طرأ على هذه الفطرة في مظهرها العام ، في عهد الملك العربية المجيد ، طوارىء عديدة لطفتها واضعفتها ، فازالتها تماماً · وقد نشأ مكانها في معقول المجموع العربي حب لأبهة الملك ، وشغف بالعظمة التي تتجلى في حاكم البلاد واحترام لسلطته الابوية او الشبيهة بها ، ان كان ملكاً صغيراً او سلطاناً ملقباً بامير المؤمنين ·

ان معقول هذه الامة العربية ملكي اذن ، وتقاليدها ملكية منذ القدم · وليس لها من عوامل الثقافة ، واسباب العلم ، ما يدعو للتطور السريع في ذلك المعقول ، او للتغيير الاساسي في تلك التقاليد ·

فهل يصلح والحالة هذه الحكم الجمهوري في البلاد العربية ؟ وهل يستقيم حتى وان كان صافي الروح سليم الاسباب ، مطابقاً في احكامه لتعاليمه ؟ اني على يقين انه يستحيل خصوصاً في هذه الايام ، ايام الحكم المطلق — ايام الدكتاتوريات — في الغرب والشرق · وقد لا يقدم قطر من الاقطار العربية على تجربته مختاراً قبل عشرين او ثلاثين سنة ·

* * *

ان لحكام البلاد العربية عقليات قديمة ، وآمالاً حديثة ، وسيادات مطلقة يجدد ويوطد اركانها الزمان . ولكن اكثرهم متشربون حب الرعية الابوي ، وعاملون بالقاعدة الذهبية : العدل اساس الملك . فهم من هذا القبيل عصريون اكثر من بعض زملائهم الغربيين .

وهم عصريون من وجهة اخرى ، وان كانوا متأخرين في تكييف بلادهم وتجهيزها ، اقتصادياً وعلمياً ، لمضمار الرقي والعمران . هم عصريون في ماينتحله لانفسهم من قوة التشريع والتنفيذ الحاكمون اليوم بامرهم في العالم . وبكلمة اخرى هم مثال الدكتاتورية المتبع . فاذا كان الشعب الاوروبي الراقي يقبل بهذا الحكم ، ويرى فيه خير بلاده الاكبر ، فهل يخطأ العرب اذا ظلوا متمسكين به ، محافظين عليه .

فاذا كنت ، ايها القارىء ، محباً لهذه الامة العربية ، غيوراً على مصالحها ، او عاملاً مجاهداً في سبيلها وسبيل وحدتها القومية ، فهل تسعى لقلب حكوماتها اليوم ولتأسيس الجمهوريات فيها بدل المالك والامارات ؟ واذا كان لا يهمك امرها ، وكنت متيقناً مثلي ان الحكم الجمهوري غير ممكن فيها ، وانه اليوم مضر اذا كان ممكناً ، فهل يجوز ان تنتقد او تلوم من يختص ملوكها وامراءها بما توجبه عليه الوطنية من الخدمة ، وهم الموكلون بمقدرات البلاد ، المهيمنون على ما فيها ، وان قل ، من عوامل الرقي الاقتصادي ، واسباب التمدن الحديث . وانك لتخطأ اذا نظرت اليهم بغير العين التي تراهم في بيئتهم وفي احوالهم السياسية ، وتقدرهم قدرهم بالنسبة اليها . اني اقول لك انهم لذوو فضل جم ، على ما في تلك البيئة من الجمود ، وتلك الاحوال من عوامل الهدم ، داخلاً وخارجاً ، وانهم لذوو مآثر جليلة . اليك بوجيز العبارة البرهان . لو لم يقم الملك حسين بالثورة على الترك

لما كانت الثورة ، ولما كان العرب اليوم في معظم الجزيرة مستقلين كل الاستقلال . فقد كان رجال النهضة العربية في حاجة الى زعيم يوحد الصفوف ، ويوحد الحجة ، ولم يكن فيهم ذلك الزعيم . لم يكن في الطليعة الرجل الاكبر الاوحد الذي تقبله وتنصره الاحزاب كلها . فنهض الحسين وكان زعيم النهضه المنتظر .

ولو لم يمن الله على العرب بابن سعود لكانت البوادي مسرحاً شائعاً للغزو والقتال ، وللسلب والنهب والفوضى ، ولظلت القبائل كما كانت قبله في عداء دائم واحتراب مستمر . لو لم يكن ابن سعود لما كانت نجد والحجاز الان بلاداً موحدة ، مطمئنة ، مسالمة ، وفيها من عوامل الرقي والمدنيسة ما تستطيع ان تنتفع به ، ما يلائم اليوم طبائع اهلها البدو والحضر ، ويمكنها غداً من الاستزادة عملاً باستعدادهم ، وتطور احوالهم الاجتماعية والاقتصادية .

وكذلك قل في اليمن وسيده الاكبر الامام يحيى . فهو حاكم اليمن المطلق ، الضابط امره بيد من حديد ، المدبر شؤونه بحزم تنيره الحكمة ، وعزم يمده اليقين ، الحامي ذماره ، داخلاً من اغراض كبار السادة الشخصية ، ونزاع القبائل ، وخارجاً من اطماع الاجانب ودسائسهم . اولئك المسيطرون في جوار اليمن جنوباً وعبر البحر غرباً ، ان الامام ليدرك السر في ما يفعلون ويقولون ، متزلفين كانوا او مكابرين ، فيحمل في سياسته الميزان ، وقد علم ان الكفة الراجحة اليوم قد تكون غداً ناقصة ، فلا تخدعه الواحدة ، ولا تغره الاخرى .

وفي عسير اليوم البرهان القاطع على صحة ما اقول في الحكم المطلق وعكسه . فقد كان هذا القطر العربي ، في عهد السيد محمد الادريسي ، مثل نجد واليمن ، عزيز الجانب ، آمناً مطمئناً . وكان اهله مخلدين الى

السكينة ، مستمتعين بما في البلاد من اسباب العيش والراحة والرفاه .
ولكن الاحوال ساءت بعد وفاة السيد محمد . فاضطرب حبل الامن في
البلاد ، وتزعزعت اركان الحكم في صبيا وجيزان ، فسرت في القبائل
روح الشغب والفوضى ، وتنازعت السيادة القوتان الغالبتان المجاورتان في
الجنوب وفي الشمال . ولا يزال عسير موطن الخلاف والنزاع بين الامام
يحيى وابن سعود الملك عبد العزيز . هذه هي نتيجة من نتائج التفكك في
الحكم ، والانحطاط المعنوي والسياسي في البيت الحاكم . ولولا النزاع بين
العاهلين الكبيرين ، والخوف من عواقبه المشؤومة ، لكان التفكك في هذه
الامارة الصغيرة وامثالها مفيداً للقضية العربية ، والوحدة المنشودة .

وماذا اقول في من حمل لواء هذه القضية ، وجاهد في سبيلها ، في
ساحات الحرب والسياسة ، عشرين سنة ، وكان في القطر العراقي ظافراً
ببعض امانيه . فهل ينكر احد ان للملك فيصل ، رحمه الله ، الفضل
الاكبر في استقرار العراق وتقدمه ؟ هل ينكر احد من العالمين بشؤون
تلك البلاد الحقيقة الناصعة الرائعة في جهاده الذي استمر اثنتي عشرة سنة ؟
فلولا هذا الجهاد العظيم لما كان العراق اليوم موحداً ، ولما كان قد تخلص
من الانتداب ، ولما كان يسلك الان الطريق الفسيح القويم ، المؤدي الى
حريته التامة ، واستقلاله الاقتصادي السياسي الأتم .

هذه هي كلمتي لمن يريبهم اهتمامي بملوك العرب ، ولمن يغيظهم موقفي
العربي ، واكثرهم ان لم اقل كلهم لبنانيون . لولا ذلك لما رأيت في
الاكتراث لهم شيئاً من الواجب والسرور . واني اسألهم ، باسم الانسانية
اولاً وباسم الوطنية ثانياً : هلا يستحق الذكر والثناء والاعجاب من يقيمون
العدل ، ويوطدون الامن والسلام ، في امة من امم هذا العالم المضطرب

المكترب ؟ وهلا يستحقون ، وهم القائمون باعبــاء هذه الامة العربية ، الخدمة والحب والتضحية من ابناء الامة ؟ فلو كان الملك فيصل اوروبيـاً لرفعه شعبه الى منزلة بسمرك ودزرائيلي . ولو كان ابن سعود اوروبياً لجعلته امته بطلاً من ابطال العالم .

***

اعود الى لبنان لاقول كلمة وجيزة ، هي كل الحقيقة وكل اليقين ، في محنته اليوم ، وفي ما أشع من حظه يوم كان فيصل سيد البلاد السورية .

ثلاث عشرة سنة مرت على استقلالـــ لبنان ، المقيد بالانتداب ، المثقل بالضرائب ، المسربل بسربال السخرية الجمهوري ، المسمر بمسامير الفاقة والذل ، المكلل باكليل من الشوك . ومع كل هذا لا يزالـــ في البلاد من ينادون ويفاخرون بالاستقـلال ، ويقولون ويعتقدون بوجوب الانتداب لحمايته وتعزيزه . وبالرغم من كل هذا ليس في البلاد احد راضٍ بحالة واحدة من احوال لبنان السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ليس في البلاد من يطالب بالاستقلال والانتداب ، ولا يندب حظ لبنان في الحالين .

اعجب لشعب يئن من النير ، ويصيح قائلاً ان النير لازم له ومفيد ، لازم لخلاصه ، مفيد لسعادته الابدية . شعب قديس شهيد !

ولكن في لبنان من المفكرين البصيرين ، الجريئين بالافصاح عمـا يجيش في صدورهم ، من يرون في هذه الحال شيئاً غير معقول ، غير طبيعي ، شيئاً جد منكر ، جد فظيع . وفيه من يدرك كون التناقض بين العقيدة الوطنية وحقيقة الحال ويسكتون . وفيه الناقمون نقمات سياسية لها اسباب وليس لها هدف ومحجة . وكلهم يستغيثون ويرومون الخلاص الذي يخلص

حقيقةً لا وهماً .

ولكنهم مختلفون في ما هي حقيقة الخلاص . فمنهم من يظنون انها في اعادة الدستور والحكم النيابي .

ومنهم من يرون في الحكم المباشر المطلق الخلاص كل الخلاص .

ومنهم من يقولون ان لبنان الكبير هو رأس مصائب اللبنانيين ، ويرومون تصغيره، يطلبون اعادته الى ما كان عليه في عهد المتصرفية السعيد .

ومنهم من لا يقبلون بهذا التصغير ، ولا يتنازلون عن شبر ارض في لبنان الكبير .

ومنهم من لا يعرفون ماذا يريدون .

اما اولي الامر اصحاب الانتداب، فهم يسمعون ، ويبسمون ، ويعللون، ويسوفون . ولكنهم يعرفون ماذا يريدون .

هم يريدون لبنان كبيراً لا صغيراً ، لانهم يريدونه لانفسهم ، لا اللبنانيين . اجل ، مهما تطورت احواله ، وتعددت وتلونت مطالبه وآماله ، فهو منذ البدء ولم يزل ، ولن يزال ، مطمح انظار الفرنسيس ، يريدونه قيد سياستهم الاستعماريه ، ليعززوا به مركزهم الحربي البحري في هذه الزاوية المباركة من البحر المتوسط .

فاذا تعهدوا لاشياع لبنان الكبير بالمحافظة على وحدته الجغرافية والسياسية فهم في تعهدهم صادقون . وكيف يقبلون بان تسلخ طرابلس مثلاً عن لبنان ، ولهم فيها المصلحة الكبرى الحربية السياسية ، والمصلحة الكبري الاقتصادية ، اي المطار ومصب انابيب البترول . ان غرضهم في لبنان منذ عهد غورو وقبله هو واحد لم يتغير . وقد لا يتغير . وهم يسيرون اليه هادئين متحفظين ، فيتذرعون ، لتحقيقه تدريجاً ، بالوسائل السياسية ،

والدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية كلها ٠

وانهم عاملون على ما اظن ليخلصوا البلاد ويخلصوا انفسهم من الانتداب كما فعل الانكليز في العراق ٠ فيعقدون معاهدة مع سورية ، تضمن مصالحهم فيها ، ويستمرون في سياستهم اللبنانية ، الممهدة لتحقيق الغرض الاكبر باجمعه ، فيُلغى الانتداب في لبنان كذلك ، وتعلن فيه الحماية ٠ هوذا المستقبل الزاهر ، وقد لا يكون بعيداً — الحماية الفرنسية في البلاد الساحلية ، وحكومة ضعيفة ، ملكية او جمهورية ، في سورية ٠

وبعد ذلك تفعل السياسة الاستعمارية ما تشاء ٠ فتخلص لبنان من استقلاله المسربل بسربال السخرية ، المكلل باكليل من الشوك ، وتحميه حماية اكيدة صادقة ، فيصير مثل تونس والجزائر ٠ وستظل تحفر ، وهي مبتّكة في الساحل الطويل العريض ، تحت الروح القومية السورية حتى ينهار الجانب منها بعد الاخر ، وتمسي البلاد مثل مراكش سياسياً واقتصادياً ومعنوياً ، ثم تدخل مثل مراكش في سلك الحماية السعيد ، والاستعمار الاسعد ٠

وهل من مناص ؟ هل انطفأت انوار الامل كلها ؟ الا تستطيع سورية ان تخلص لبنان ؟ الا يستطيع لبنان ان ينجو بنفسه ، ويسهل سبيل الخلاص لجارته ورفيقته في الشقاء ؟

ان المستقبل مظلم ، نعم مظلم ٠ ولكني ارى في ظلمة الافاق نوراً واحداً من انوار الامل ، لا يزال يشع ، ولا يزال ثابتاً في افقه القريب نافذاً في اشعته القليلة ٠ وقد بدأ بعض اخواني اللبنانيين يرون هذا النور ويرون فيه الامل المنشود ٠

حلمت مرة حلماً سياسياً جميلاً ٠ حلمت اني حضرت اجتماعاً وطنياً في بيروت اقر بالاجماع اقتراح احد الخطباء ، يطلب فيه ان يعاد وصل

حبل التفاهم بين سورية ولبنان ، وتحدد سبل التضامن الاقتصادي والسياسي بين البلدين •

هو حلم حلمته • ولكنه صورة صادقة لما في نفسي من عقيدة ويقين ، ومن امل ورجاء • ولا حاجة لترداد ما طالما كتبته وقلته في هذا الموضوع • اني ارى الهاوية • ولا ارى غير طريق واحدة للنجاة • واني استشهد الله والتاريخ ان حبي للبنان لا يقل ذرة عن حب اخواني اللبنانيين الذين يقدسون ارزه ، ويتغنون بمجد الجدود الفينيقيين •

ولكني ، وانا انظر الى الماضي مثلهم ، اتطلع كذلك الى المستقبل ، والى ابناء المستقبل — ابنائنا واحفادنا — واريد ان يكونوا احراراً مثل اجدادهم الفينيقيين ، ومثل اجدادهم العرب •

وانى لهم ان يكونوا كذلك ، اذا كنا لا نقوم نحن بشيء من الواجب علينا ، فنمهد في الاقل سبيل الخلاص من نير الرق والاستعمار • ولا يتمهد السبيل ، ويزداد نور الامل ضياءً ، الا اذا تفاهم لبنان وسورية ، وتقررت سبل التضامن السياسي والاقتصادي بين البلدين •

وهناك تضامن اخر لا تستغني سورية عنه وان توحدت تماماً • فاذا ظل لبنان منفصلاً عن سورية فمصيره الحماية لا محال • واذا ظلت سورية منحصرة بالاربع المدن — حتى واذا ضمت اليها اللاذقية واسكندرونة وجبل الدروز — فان كيانها القومي متزعزع ، ومصيرها لا يدعو للتفاؤل ، اذا كان لا يتم التضامن الاقتصادي والسياسي بينها وبين العراق •

اما اذا عقد التضامن اللبناني السوري ، وتم الاتحاد السوري العراقي ، وكانت فرنسه صديقة هذا الاتحاد ، ومطمئنة منه ، اذ تكون مصالحها

الاقتصادية والسياسية مضمونة فيه[1] ، فالبلاد العربية الموحدة تستطيع اذا ذاك ان تساعد عرب فلسطين مساعدة فعلية . وقد يقتنع الانكليز هناك ، فيقنعون بما اقتنعوا وتنعوا به في العراق ، فتنجو البلاد المقدسة من الصهيونية والاستعمار الصهيوني .

رحم الله فيصلاً . فلو استقر ملكه السوري واستمر ، لما كان لبنان اليوم في هذه الحالة السياسية المبلبلة المحزنة .

رحم الله فيصلاً . فلو انه تعالى امد باجله ، لاستمر في جهاده الشريف الذي لم يكن يعتريه شيء من الملل والفتور ، ولتحققت آماله العربية في الوحدة السورية العراقية اللبنانية الفلسطينية[2] .

انا اللبناني المحب للبنان ، الغيور على مصالح اللبنانيين اخواني ، وعلى كرامتهم

---

(١) «ليس لاحد ان ينكر ان النظام الانفصالي قد اخفق اخفاقاً تاماً ، وانه يجب ان يقام بدلاً منه نظام اتحادي يمكن البلاد من الانتعاش والحياة

« وقد يعترض البعض ان ليست الوحدة الا شركاً ينصب للسياسة الفرنسية في الشرق .. الا فليطمئن هؤلاء ، فان سورية ولو اتحدت لفي حاجة الى حليفة قوية ... وليس لفرنسه ما تخشاه في اتفاقها وحكومة سورية قوية حسنة التنظيم . بل هي على العكس من هذا تستطيع ان تأمل كل خير ونفع . »

الكونت هنري دي شامون في المجلة البرلمانية الفرنسية نقلته جريدة النداء في عددها ٦٧٩ — في ٩ ت ١ سنة ١٩٣٣ .

(٢) ومن مساعيه في هذا السبيل عندما زار انكلترة المرة الاخيرة ما حدثنا عنه الاستاذ كريم ثابت الذي قابله في نزل «هايد بارك» بلندن . قال الاستاذ ثابت في المقطم :

« ولاحظت عند دخولي على جلالته انه كان يملي على سعادة الدكتور قدري بك قنصل العراق العام في مصر (وكان يومئذ بلندن) .. مذكرتين ليرسلهما الى الحكومة البريطانية احداهما عن سكة حديد العراق والاخرى عن فلسطين

« وقد طلب في المذكرة الاخيرة ان يكون للعراق منفذ الى البحر المتوسط عن طريق فلسطين ... فيتسرب اليها النفوذ العراقي ، ويساعد كثيرا في المستقبل على حل القضية الفلسطينية . »

قبل مصالحهم ، اقول ذلك واثيقنه كل اليقين . وانا اللبناني الراغب للبنان بمنزلة رفيعة في الوحدة السورية ، المطالب بها ، آسف جداً الاسف لان الفرنسيس لم يدركوا ما كان مضموناً لهم في ملك سوري موطد الاركان ، وفي مليك كفيصل ، رحب الصدر ، حصيف حكيم .

رحم الله فيصلاً ، صديق لبنان واللبنانيين ، المحب لهم حباً جماً ، المعجب بهم اعجاباً قلبياً ، الراغب باستخدام مواهبهم ومعارفهم لخير البلاد جمعاء ، بل لخيرهم قبل كل خير . ولقد طالما قال لي وللكثيرين غيري انه يحب ان يرى اللبناني عاملاً مكرماً ، مفيداً ومستفيداً ، في كل بلد من البلدان العربية ، فيشعر حيث كان انه في وطنه وبين قومه .

ومَن من اللبنانيين الذين عرفوا الملك فيصل وحدثوه يشك بصدق تلك الكلمات الذهبية التي كان يفوه بها ، وتلك العواطف السامية التي كان يفصح عنها ، كلما ذكر لبنان لديه . ومن منا نحن المفخورين بمعرفته ، السعيدين بذكرى مجالسته ، ينسى تلك الكلمة الوديعة العذبة – يااخي – التي كان يخاطب بها جليسه . فقد كان حقاً اخاً للجميع ، وخصوصاً للبنانيين . وما كان ملكاً بغير سجاياه الشريفة العالية .

ومع ان قسطه من العلوم لم يكن وافراً ، فقد كان لعقله ، كما كان لقلبه ، افق منفرج ، وجو فسيح . واني لاذكره في دينه ، وما كان يوحي اليه ، قولاً وعملاً ، من حقيقة الاخاء الانساني ، الممثلة في سائر الاديان الالهية . واني لاذكره في وطنيته ، وما كانت توحي اليه من حقيقة الوحدة القومية التي كان يرفعها دائماً ، قولاً وعملاً ، فوق كل وحدة من الوحدات الدينية المتعددة في هذه البلاد .

* * *

ولكن التاريخ يسجل على فيصل اموراً في سياسته السورية ، وطنية ودولية ، منها ما ضاق خبره في تلك الايام دون ادراكه ، ومنها ما كان في الامكان تداركه . وقد كنت في ما كتبت مؤرخاً اميناً لذاك العهد عهده[1] فحققت الحوادث ، ومحصت الحقائق ، بقدر ما مكنت المصادر والاحوال ، وأسفت لاني لم اتمكن من اطلاق العنان لقلمي في مضمار الثناء والاعجاب .

ثم مرت السنوات ، عشرٌ منها ، وانا في اثنائها اراقب مجرى السياسة العراقية الانكليزية ، واطالع ما استطعت اليه سبيلاً مما كان يُكتب فيها ، وفي الملك فيصل وجهاده ، باللغتين العربية والانكليزية . وقد كنت مغتبطاً بعملي الجديد لاني استطيع ان اكتب في عهد فيصل العراقي ما يسر به القلب ويقبله التاريخ . ولكني مع ذلك كنت اشعر بما يشعر به المصور عندما تحول الايام دون اكمال صورته ، فلا يستأنف العمل قبل ان يعود الى المشهد ويجدد النظر فيه .

احجمت لذلك عن التأليف ، ووطنت النفس على ان ازور العراق ومليكه مرة ثانية . فكتبت مستأذناً بذلك ، وانا غير متيقن ما عسى ان يكون الجواب ، نظراً لما اسلفت من الصراحة في الملك فيصل وفي سعيد الذكر والده . فاذا كان الاذن ، فهل يقرن يا ترى بالترحيب . رجحت الاول وارتبت بالثاني . ولكني اخطأت في ما كان من ارتياب . فقد جاءني من الملك جواب بخط يده ، تجلت فيه تلك السجايا الشريفة — رحابة الصدر ، وكرم الاخلاق ، والتواضع — التي فطر عليها ، وكانت

---

(١) ملوك العرب الجزء الثاني ، القسم الثامن ، الفصول ٤ الى ١١ صفحات ٢٨٤ — ٣٤٠

تزين اعماله كلها واقواله ٠

أممت بغداد ورفيقي ، رفيق رحلاتي ، الشيخ قسطنطين بني ، فوصلناها في ١٢ اذار سنة ١٩٣٢ ، وتشرفنا بمقابلة الملك فيصل في اليوم التالي ، ففاق في جميل ترحيبة ما جاء في كتابه من اللطف والاكرام ٠ وكان في اثناء الشهر الذي اقمته في العاصمة يدعوني ، تارة وحدي ، وطوراً ورفيقي ، ثلاث او اربع مرات كل اسبوع الى القصر او الى الحارثية ، فاتحدث اليه بحرية عهدها بي ، وكان يشجعني عليها بما يبدو في حديثه ومحياه من الفة وارتياح ٠ وقد شاء ، رحمه الله ، ان يحدثني في العام والخاص من الشؤون التي لم يكن يفضي بها ، على ما اظن ، الى غير القليلين من بطانته وآل بيته ٠ وكنت ادونها ، وذاكرة الرفيق قسطنطين تعين في اكثر الاحايين ذاكرتي ، عندما نعود من مجلسه ٠

وهذا الكتاب ، اذا كان لا يجوز ان يدعى تاريخاً بمعنى الكلمة المدرسي ، هو في الاول مصدر ثقة يرجع اليه من قد يكتب في المستقبل تاريخ النهضة العربية والعراق ، اذ ليس فيه غير ما رأى المؤلف وسمع ، وغير ما عرفه وتحراه بنفسه ٠ فهو على الاجمال مجموعة صور قلمية للملك فيصل — صور تمثله في مجالسه الغير الرسمية ، وصور تريكه في عمله وجهاده ٠ وقد حاولت اكثر من ذلك ، وما طمعت في ان اوفق دائماً بالتأليف الذي فيه تستقيم الاشياء روحاً وشكلاً ٠ حاولت ان اصور عقل الملك فيصل في جوه المضطرب وأفقه المادي ، وان اصور قلبه في مده وجزره ، في مرحه وغمه ، في يقينه وحيرته ، بل في كل ما كان يتنازعه ويتزاحم فيه ، من العواطف والخواطر والآمال ٠

وفي الكتاب حوادث مفصلة ، تتعلق بالملك والانكليز ، لم يذكرها

او يشير اليها ، من كتبوا في احوال العراق السياسية ، لانها لا تبيض من صحيفتهم ، ولا تدعو لحسن الظن بهم ٠

اما مصادر الكتاب فاهمها ، بعد احاديث الملك ، ثلاثة : الوثائق الرسمية التي اطلعني عليها ، باذن منه ، كاتب سره الاول يومئذ الاستاذ عبد الله الحاج ، وتقارير المفوضية البريطانية لحكومتها بلندن ، وكتابان (١٩٢٨ و ١٩٣٠) من الكتب التي تصدرها كل عام او عامين الجمعية الملكية للشؤون الخارجية هناك ٠

بقي ان اقول اني في ما سردت من سيرة الملك فيصل في عهده السوري ذكرت ما كنت اعلمه مما جرى في السنة الاولى من عهده العراقي ، وفيه مما جهلت يومئذ ما هو من الاهمية بمكان ٠ لذلك بدأت باول الحوادث ليكون هذا الكتاب شاملاً لعهده كله ، منذ وصوله الى البصرة حتى يوم وفاته ، كما هو شامل لتاريخ المفاوضات العراقية الانكليزية ، بمراحلها وازماتها ، التي ادت اخيراً الى الغاء الانتداب ، ودخول العراق في عصبة الامم ٠

وقد لخصت في الفصل الاول سيرة فيصل منذ ولادته حتى نكبة الشام ، واضفت الى الكتاب ملحقاً فيه تواريخ الحوادث البارزة ، محققة مدققة ، ليحيط القارىء علماً بحياته كلها ٠

امين الريحاني

الفريكة في اول تشرين الاول سنة ١٩٣٣
و ١١ جمادى الثاني سنة ١٣٥٢

سلسلة النسب النبوي

ان في سلسلة نسب الملك فيصل ، التي لا يعتريها شيء من التقطع او الخلل ، بشهادة علماء الانساب ، حلقات عديدة عادية المعدن ركيكته ، وحلقات ذهبية بارزة • وبكلمة اخرى ان بين اجداده المتحدرين من بيت الرسول كثيرين من الخاملي الذكر ، لو دُونت اسماؤهم لشغلت دون ما فائدة صفحات من هذا الكتاب •

على ان هناك اسماء جليلة بارزة هي من السلسلة بمنزلة القمم من الجبال • واية سلالة يا ترى ، نبوية او ملكية او دمقراطية ، تتساوى فيها الرفعة وتتماثل الاعمال • فقد غمرت السلالة الهاشمية احقاب من الزمن ، ذهبت فيها الصولة ، وضاعت السيادة ، فامسى الاسم الشريف مرادفاً للخمول والنسيان •

وكان يظهر بين كل حقب غامر وآخر ، وان طالت السنون ، شريف نابغ قوي ، كبير الاخلاق ، طائل الصولة ، فيجدد في البيت عظمة ارثه ، وعزة نفوذه — يعيد اليه سالف مجده — فيتصف خاصة به ، ويُعرف بعد ذلك باسمه • فنقول مثلاً موسى الجون وهو اقدم الاسماء

المجيدة بعد الحسن والحسين ، وذو عون احدثها ٠

وقد تنازع السيادة في الحجاز ذو عون وذو زيد ، البيتان الهاشميان الحديثان ، في اوائل القرن الماضي ، فكانت الغلبة لذي عون ، وظلت ولاية مكة وسدانة الكعبة في ايديهم حتى آخر الربع الاول من هذا القرن العشرين ٠ وهاك في السلسلة بعض حلقاتها الذهبية البارزة

موسى الجون من سلالة الحسن بن علي بن ابي طالب

قتادة ابن ادريس من سلالة موسى الجون

محمد ابن ابي نُمَي من سلالة قتاده

محمد عبد المعين ابن عون ابن نمي

الحسين بن علي ذو عون ملك الحجاز

علي — ملك الحجاز سابقاً

عبد الله — امير شرق الاردن

فيصل — ملك العراق الاول

زيد

غازي (ابن فيصل) — ملك العراق

الفصل الاول

من الخيام الى حومة السياسة

... وجاءت البشائر بسلامة الام ، وبالولد الثالث للشريف حسين بن علي من زوجته عبدية ابنة عمه الشريف عبد الله .

وكان ذلك في يوم من ايام الربيع سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٥ م) فأسمي الطفل فيصلاً ، وحمل في يومه الثامن الى عرب عتيبه خارج الطائف للرضاع ، عملا بتقليد هاشمي قديم ، يبدأ بمحمد بن عبد الله الذي ارضعتا حليمة السعدية من عرب بني سعد .

ودرج فيصل من الخيام ، وترعرع في حضن البادية ، فعدا حافيه مكشوف الصدر والرأس ، في الشمس المحرقة ، وفي الليالي المقمرة ، وتبارى وصبيان العشيرة في العدو ، وفي القفز ، وفي ركوب الخيل ورمي السهام ، وهم جميعاً اخوان ، ابناء الصحراء ، وابناء الحرية والمساواة .

ولكن الحرية والمساواة تختلفان وتتنازعان حتى في البادية . والصبيان صبيان في كل مكان .

... وصاح صائح حول الخيام : الغزو الغزو . وكان اولاد العشيرة قد انقسموا قسمين ليمثلوا اهم الفصول في رواية البدو .

واغار العربان الصغار ، بعضهم على بعض ، وكان فيصل ابن الشريف مقداماً مغواراً ، فغنم كوفية اخيه في الرضاع ، وغنم قضيبه ، وكان كلام وكان خصام ، فتفاخرا ، وتضاربا . وكادت المعركة تتحول من دور التمثيل الى الحقيقة الدامية ، لو لم يسرع الشيخ من خيمته ، والخيزرانة بيده .

فتقدم الولدان واحتكما اليه ، فسمع لهما ثم للشهود : وقال مخاطباً ابن الشريف : « اسمع يا فيصل ، انت ولدنا وهذا خونك ، ولا مفاخرة . ان احسنت اليه احسن اليك ، وان أسأت اساء . »

هذي هي الامثولة التي تعلمها الولد فيصل في البادية .

وفي ذلك الاثناء كان ابوه الحسين يلعب لعبة سياسية ، حول اوتاد الدولة العلية ، فرأي الباديشاه ان الافضل له وللعرب ان يكون هذا الشريف في الخيام من ان يكون خارجها . فاستدعاه اليه ، فلبى الشريف حسين الدعوة ، مصطحباً اهله وعياله ، واقاموا في الاستانة ضيوف السلطان ، وقل أسراء الكرم السلطاني ، سبع عشرة سنة .

وكان الشريف حسين ، مثل كل عربي شريف ، غيوراً على اللغة العربية وادابها ، فاستخدم شاباً سورياً من دمشق معلماً خاصاً لاولاده .

وجاء ذات يوم المعلم صفوت افندي العوا يشكو فيصلاً الى ابيه .

ـــ هو كسول يا مولاي ، ومتأخر دائماً في مثائله . وقد هددته بالقضيب اذا كان لا يجتهد مثل اخيه عبد الله . فقال الحسين : « اضربه ، يا ابني ، ولا تخف . » ثم استدعى فيصلاً اليه وقال له : « يا فيصل ، ان كنت لا تجتهد في التحصيل اليوم تندم غداً . ولا تظن انك شريف ، وان هذا يكفي . الشريف يا ابني شريف بعلمه وعمله ، شريف بادبه واخلاقه . »

***

وكان الشريف فيصل في النصف الاول من العقد الثالث من عمره ، عندما عاد الى الحجاز مع ابيه ، الذي تقلد منصب الامارة في مكة ، وعينه مديراً لشؤون البدو . فكانت وظيفته تستوجب الحملات التأديبية من حين الى حين ، فيخرج واخاه عبد الله بحملة على الغزاة والمتجاوزين .

وبينما كان يجهز الحملة يوماً من الايام جاء الوالد يفحص اكياس المؤونة فوجد بينها كيساً من العدس ، فأمر بان يعاد الى بيت المال ، وقال لفيصل : « البدو لا يأكلون العدس ، يا ابني ، ولست انت احسن من البدو . »

وفي سنة ١٩٠٢ ، عندما ثارت عسير على الدولة واحتل رجال المع الأشداء ابها باسم الادريسي ، وهموا بالزحف على الحجاز ، جهز الشريف حسين حملة ، بلغ عددها سبعة الاف ، وسيرها على الادريسي بقيادة الشريف فيصل . مشت الحملة في صيف ذاك العام الى تهامة فاستولت على القنفذة وكان هدفها بعد ذلك ابها .

وكان هناك في تهامة اعداء ثلاثة يحولون دونهم ودون العدو الآخر المحصن في الجبال . ثلاثة اعداء قهارون ذباحون للجيوش ، هم الحر والعطش والحمى . وقد تغلبت الحملة على اثنين منهم ، ووقعت في قبضة الثالث ، فأجبرت على الاناخة ، وأمرت في الخيام . فهل استولت الملاريا على الحملة كلها ؟

اراد فيصل ذات يوم ان يتحقق مقدار النكبة ، فامر احد رجاله ان يقف على ربوة ويصيح : العدو ، العدو ! دونكم العدو ! فرُددت الصيحة في الخيام ، وما استطاع ان ينهض للقتال غير خمسمئة من السبعة آلاف . شكر الله ان لا عدو هناك .

ولكنه ، بعد ان زال الحر ، تمكن من الزحف على أبها ، فاخرج الجيش الادريسي منها . ثم عاد الادارسة فاستولوا عليها[1] . ما انتصر في تلك الحملة ، والحق يقال ، غير الملاريا التي كان فيصل اشد اسرائها ضنكاً واكثرهم وهنا ، فعاد محمولاً في كرسي الى مكه . وقد لزمه أثر هذه الحمى زمناً طويلاً ، فأضعفه وهد من قواه .

ومما كان من نتائج تلك الحملة أن شؤمها سبقه الى بيته واحتل زاوية منه . ذلك انه شاع في الحجاز ، عندما جاءت اخبار الحملة ، ان الحمى اودت بحياة فيصل . وبلغت الاشاعة بيته ، فذعرت ابنته الصغيرة ووقعت على رأسها ، فاورثتها الصدمة شالاً اقعدها ، وما نجع فيه علاج الاطباء .

* * *

وفي السنة التالية انتخب فيصل نائباً عن جده في مجلس المبعوثان ، فعاد الى الاستانة . وكان ذلك اول عهده في السياسة ، فجلس مع نواب العرب ، وما قاوم رجال الحكومة . وقد تكررت سفراته بين مكة والاستانة ، دون نتيجة تذكر او ترى . ما لمع فيصل في مجلس المبعوثان ،

---

(١) بعد عشر سنوات في عام ١٩٢٢ زحف على أبها جيش اخر بقيادة فيصل اخر كان دونه سناً . ولكن فيصل بن عبد العزيز بن سعود لم ينكب في عسير ، لم تفتك بجيشه الحمى ، وما كان مع ذلك اكثر توفيقاً في مهمته من فيصل بن الحسين . فقد عاد الى الرياض معافى على الاقل ودخلها وقسماً من حملته دخول الظافرين . وهناك فرق اخر بين الفيصلين . قد اعترف فيصل ملك العراق بشجاعة اهل عسير وشدتهم في القتال وخصوصاً منهم رجال ألمع . وحدثني الامير فيصل ابن سعود نائب الملك اليوم في الحجاز قال : عندما دخلنا أبها ما كان فيها غير النساء العجائز والكلاب . . . ومع ذلك فقد اضطر اهل نجد الى ارسال حملة اخرى ليتم استيلاءه على ابها وما يجاورها من جبال عسير .

ولا يرز بين من كانوا يديرون يومئذ شؤون الدولة ويفسدونها ٠ بيد انه انتمى الى الحزب الغربي ، وظل من الموالين للدولة ٠ بل كان في بداية امره يقول بوجوب التفاهم بين الترك والعرب ، وبالحكم اللامركزي ٠

وقامت الحرب العظمى ، ودخلت تركية الحرب ، وكان الشريف فيصل في سورية مع جمال باشا ، يواصل سعيه في سبيل قومه وسبيل دولته ٠ وكان في الوقت نفسه رسولاً بين والده وجمال ، وهو الذي بلّغه احتجاج الحسين على اعدام زعماء العرب ٠ بعد تلك الفظائع رجحت كفة العروبة في ميزان فيصل ، وابت التستر والتكتم ، فاشتبه به جمال باشا وهمّ باعتقاله ، فخرج من دمشق بحيلة جازت على جمال ، وعاد سالمًا في ربيع عام ١٩١٦ الى الحجاز ٠

وفي شهر حزيران من تلك السنة شهر الشريف حسين الثورة على الاتراك ، وعين فيصلاً لقيادة جيش الشمال ٠ وقد ظهرت في الثورة بعض مواهب فيصل ، ولاح نجمه في افق الشهرة ، فصار يذكر اسمه في بلاغات الحرب العظمى ، وفي دوائر الاستخبارات الدولية ٠ ودوائر الاستخبارات ، وقاك الله شرها ونفعك بالصافي من خيرها ، تؤدي بمن تهتم لهم الى امر من امرين ، اما الى المشنقة ، واما الى حومة السياسة ٠ وقد كتب لفيصل ان يدخل الحومة ، ويحرز فيها اكاليل الغار — والشوك ٠

لا يلزم ان نستعجل الحوادث ٠ اننا لا نزال في حومة الحرب ، وقد برزت ولمعت فيها ثلاث من مزايا فيصل ، هي اصالة الرأي ، والمقدرة على تأليف القلوب ، والصبر في الشدائد ٠

وما كاد يدق الاوتاد على شاطىء الحجاز ، بين العلا والعقبة حتى ظهر على المسرح الكرنل لورنس الانكليزي ، رسول الحكومة البريطانية ،

وهو يحمل قلبه باحدى يديه ، ويحمل الذهب بالاخرى .

قال احد كتاب الانكليز : « لولا لورنس ، لما كان فيصل . » وفي القول تحامل لو شئنا مجاراة الكاتب فيه لقلنا : « لولا فيصل ، لما كان لورنس . » وقد ترجح الحقيقة في كفتنا ، ونأبى مع ذلك ان نكون ممن يغمصون حق الناس .

ولو جئنا نوزع الفضل على كل من عملوا لإنجاح الثورة ، وكنا مجردين من الاغراض النفسية والقومية ، لما كان في العمل ما يدعو للسرور والمفاخرة . ولنا ان نسأل ما هو قسط فيصل من الفضل يا ترى ، وما قسط الضباط العرب ، وما قسط البدو ، وما قسط لورنس ، وما قسط « الخيال الانكليزي » الذي كان تحت امر لورنس على الدوام .

ويلاه ، لقد اطلقت القطة من الجراب — لقد بحت بالسر . وهل هو سر يا ترى ؟ « الخيال الانكليزي » يفضح الجميع ، فلا عجب اذا رغب الجميع عن ذكره . اما وقد ذكرناه الآن فلنقل الحق وان اخطأنا القسمة . سبعون بالمائة من الفضل ، او اكثر او اقل ، هي « للخيال الانكليزي » — للمال . والباقي ، وزّعه على الباقين كيفما تشاء .

وهناك حقيقة اخرى يجب علي ذكرها . قد استنفر لورنس القبائل ، واستمالهم بالمال ، وبقوة الحب والاقناع ، الى محاربة الاتراك تحت راية الشريف . ولكن ذلك نصف العمل فقط . فقد كان بين تلك القبائل عداوات وثارات قديمة مزمنة ، يصعب على الاجنبي ، وحتى على امثال لورنس ، فهمها ومعالجتها . فكيف يحاربون متحدين تحت راية واحدة ، وكيف يثبتون في القتال ؟ ها هنا ما استوجب النصف الثاني من العمل . فلولا فيصل — والفضل كل الفضل لفيصل في التغلب على احقاد مشائخ

القبائل وفي تأليف القلوب — لخسرت انكلترة ذهبها ، ولذهبت كل مساعي لورنس ادراج الرياح ٠

قال الجنرال آلنبي : « وكان نفوذ فيصل في القبائل من اكبر العوامل لثباتهم في القتال ٠ »

وقد كُتب النصر للعرب ، فدخل الامير فيصل دمشق بجنوده الظافرة في اليوم الاول من الشهر العاشر من سنة ١٩١٨ ٠

***

في نهاية الثورة تنتهي صفحة فيصل الحربية ، وتبدأ صفحته السلمية ، صفحته السياسية العربية الدولية ٠

هي ذي الحومة الثانية ، وقد لقي فيها من الشدائد ما لم يلقه وراء المدافع في حومة الوغى ٠ فقد كاد يُسحق بين حجرَي الرحى ، اي السياسة الوطنية والسياسة الاستعمارية ٠

والانكى من ذلك ان اصحاب الباطل سياسيون محنكون ، لهم اهداف يعرفونها ، ولا ينثنون عنها ، وينسون الوعود ، وينكثون بالعهود ، توصلا اليها ، واصحاب الحق حديثو العهد في السياسة ، وكثيرو النزعات والنعرات ، وجلها لسوء الحظ اقليمية ، او مذهبية ، او شخصية ٠

وعندما انتدب الملك حسين ابنه الامير فيصلاً ليمثل العرب في مؤتمر فرساي ، كانت حاشية الامير الكبيرة امةً مصغرة ، وقد تباينت فيها النزعات ، وتضاربت الآراء والنعرات ، وكل واحد من اعضائها يحسب نفسه مشير الامير الاول ، ومرشده الاكبر ٠ وكان فيصل في تلك الايام كثير الثقة بمن حوله ، وكثير الاستماع اليهم ٠

بيد انه في السفرة الثانية الى باريس اخذ الامر بناصيته ، وعقد النية على العمل الذي رأى فيه ما يقرب من العدل ، او الممكن من العدل في تلك الاحوال . فقبل ، رغم معارضة بعض حاشيته ، بما عرضه كليمنصو لتسوية المسألة السورية ، وتم الاتفاق بينهما ، الاتفاق الذي وقعاه بالحروف الاولى من اسميهما .

اما دمشق والمتطرفون في دمشق ، واصحاب النزعات الخصوصية والشخصية في دمشق ، فما قدروا حكمة كليمنصو ، ولا ادركوا معنى تساهله . وعندما عاد فيصل من باريس ، قاموا يعارضون ، ويضجون ، وينادون بالويل والثبور . عصفت العواصف على فيصل من كل جانب ، إلا جانب الاعتدال وكان يومئذ ضعيفاً . ولا اظن ، مع احترامي لمن تولوا زعامته ، أنه كان يمكن فيصلاً ، لو استعان به ، من مقاومة التيار الجارف[1] . فقد قبل بالعرش الذي اقامه المؤتمر السوري العام في شهر اذار سنة ١٩٢٠ ، وهدمه الفرنسيس في شهر تموز .

---

(١) « ولكن دعاية شنيعة بثت عليه عند عودته ، فتراجع من غير نظام ، لانه كان لا يزال حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة . ولو انه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن ارائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق في ما بعد لوجد من المعتدلين انصاراً يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه . »
الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مجلة المقتطف
اكتوبر سنة ١٩٢٣

الفصل الثاني

المعركة الاخيرة

جاء في رسالة من رسائل جرترود بل[١] التي كانت ترسلها الى امها بلندن ، انها ذهبت بمعية الامير فيصل عندما زار طاق كسرى عقب وصوله الى بغداد . وبينما كانوا يطوفون بذلك الصرح المتداعي ، الباقي من بلاط الاكاسرة ، وقفت المس بل الى جانب الامير ، بالقرب من احدى النوافذ ، وطفقت تقص عليه باللغة العربية ، وهي ترسل الطرف في السهل المنبسط امامها ، قصة الفتح العربي للعراق «كما رواها الطبري في تاريخه .»

سيدة انكليزية ، تروي بلسان عربي لا لكنة فيه ، لامير عربي من بيت الرسول ، صفحة مجيدة من تاريخ العرب القديم ! انه لامر فريد في بابه . انه لموقف شعري سياسي مؤثر في حقيقته وفي مغزاه . ولكن المس بل المبتهجة به ساءلت نفسها ، كما تقول في الرسالة لامها ، ما اذا كان ابتهاج الامير اشد من ابتهاجها .

وانى الابتهاج لمثله ؟ فاما ان المس بل اساءت التعبير ، وقد كانت تكتب هذه الرسائل بعجلة محرقة ، بين اشغالها الجمة ، واما انها ما نفذت

(١) The Letters of Gertrude Bell

ببصيرتها الى اعماق تلك النفس العربية الشعرية التي لا تعدم التصور في احساسها الشديد ٠

وهل يدعو المجد الدارس للابتهاج ، خصوصاً وقد تلت ذلك الفتح العربي فتوحات اسيوية ، تترية وتركية ، لا تخفف ذكراها ما يثير في العربي الشجون ٠ ولا ينبغي ان نعود الى ذلك المجد البعيد المضمحل ، وما خلفه من طغيان الترك والتتر ، لندرك ما كان يجيش في صدر الامير فيصل من لواعج الغم والاسى ٠ فان في ماضي الامير ، هذا الماضي القريب ، ما يكفينا مؤونة التجوال في ربوع التاريخ وبواديه ٠

كيف لا والامير يحمل في صدره اعباء عشر سنوات من عقم الامال ومن شؤم الجهاد ٠ ها هوذا في مستنقعات الملاريا بعسير على رأس حملة تأديبية ٠ وها هوذا في مستنقعات الكلام في مجلس المبعوثان بالاستانة ٠ وها كه في سورية اسير الشبهات ، وسمير الجزع ٠ وها كه في البادية ، فاراً من الطاغية جمال ، بل من القدر والاعتقال ٠ اهوال في السياسة تتلوها اهوال الحرب في شرق الاردن ٠ هي خمس سنوات ملأى بالحوادث التي تدعو للتأمل على الاقل ٠ بل هي تثير في صدر صاحبها كل عاطفة غير الابتهاج ٠

وان ما يتلوها لاشد وانكى ٠ فمن فتح الشام الذي ما عتم ان باخ مجده ، الى مؤتمر فرساي الذي كان فيه الامير ممثل العرب كالحمل بين النمر والاسد[1] ، الى يوم التاج في دمشق ، فالملك القصير الاجل ، فالفرار الثاني ، فيوم ميسلون !

سنتان اثنتان لاغير ٠ ولكن الحوادث التي تزاحمت فيهما ، وتراكمت

---

(١) اي كليمنصو رئيس وزراء فرنسة ولويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ٠

في قلب الامير فيصل ، لا تفقد شيئاً من مفجعاتها لو توزعت على اضعافها من السنين . فأنَّى لذكريات الماضي البعيد ، وان كان مجده لا يزال حياً زاهراً ، وانى لها وان تغنت بها امرأة فاتنة ، ان تمحو من قلب الامير فواجع الامس ، او تغالبها فتنسيه اياها ؟ انما الامر عكس ذلك . فان ذكريات الامس ، وان كان الامل بتاج جديد محققاً ، كانت تزيد ، ولا غرو ، باشجان الامير فيصل المحجوبة ، وبآلام نفسه الصامتة .

على ان ميسلون لم تكن المعركة الاخيرة . فقد خرج من دمشق يرافقه بعض صحبه الاوفياء من السوريين والعراقيين والانكليز ، فمروا بدرعا فحيفا ، ومنها ابحروا الى اوروبه . الجهاد ، سيستأنف فيصل الجهاد . وسيجاهد هذه المرة بغير السلاح الذي حمله على الترك والالمان في شرق الاردن .

ولكن نار الحرب كانت قد أضرمت في جهة اخرى من الخط العربي الطويل . وان لم تكن المعركة الجديدة ، في صورتها الظاهرة معركة فيصل ، فقد كان من المقدر ان تخدم اغراضه السياسية .

واليك البيان . قام العراقيون قبل التتويج ببضعة اشهر ينادون بالاستقلال ويطالبون به . وكان يحرضهم على ذلك الضباط العراقيون في الجيش العربي في سورية ، ومَن عاونهم من الموظفين الانكليز في الحكومة السورية ، اولئك الذين كانوا ناقمين على اخوانهم في العراق و « خطتهم الهندية » في ادارة شؤون البلاد . فالضباط العراقيون اذن ، والموظفون الانكليز في الشام ، شجعوا العراقيين في نهضتهم ، وبثوا تلك الدعاية التي رُفعت اعلامها اولاً في دير الزور ، واخذت تنتشر بسرعة في البلاد ، من الشمال الى الجنوب — من دير الزور الى تل عفر ، فالموصل ، فبغداد ،

فكربلاء والنجف .

وقد كانت هذه الدعاية من الوجهة الانكليزية جد محزنة ، اذ ان الفريق الواحد من سياسي الانكليز لم يكن يعلم بما يفعل الفريق الآخر . بل كانوا في حقيقة الحال ، يحملون بعضهم على بعض ، وكان العرب وحدهم الغانمين . ومن فواجع الانكليز ، وبعضها يضحك ، ان الحكومة السورية ، التي كانت تستمد يومئذ قوتها المالية من لندن ، أمدت الوطنيين العراقيين بالمال . اجل ، قد استخدم « الخيال الانكليزي » لطرد الانكليز من العراق !

هذه النهضة بلغت اوجها في شهر اذار سنة ١٩٢٠ ، اي شهر التتويج في دمشق . وما كان فيها سر او غموض . هي نهضة وطنية ذات خطة محددة ، وهدف معلوم . وكان الهدف سوري الصبغة والشعار — هاكم سورية مستقلة . فليكن العراق مستقلاً مثلها . وكانت الخطة سورية عراقية — ليكن للعراق كما لسورية ملك هاشمي . وخير من ذلك ، ملك هاشمي للقطرين .

وبعد شهرين ، اي في رمضان ، حدث في العراق حادث خطير لم يسبق له مثيل هناك . فقد قام الشيعيون والسنيون بمظاهرة وطنية ولائية كبرى ، وهم يدعون للاتحاد في سبيل الوطن . ومن مظاهر هذا الاتحاد حفلات المولد المشتركة التي كانت تقام في الجوامع والمساجد ، فيحضرها السنيون والشيعيون ، ويحولون الحفلة ، بعد الصلاة ، الى اجتماع سياسي تلقى فيه الخطب المشعلة لنار الثورة ، وتتلى القصائد المثيرة كالرياح لهيبها .

وعند انقضاء شهر رمضان خرج من سورية جميل بك المدفعي بحملة مجهزة ، ينصر اخوانه الهاشميين في العراق . فاجتاز ورجاله نهر الخابور ،

وغزوا تل عفر، ثم غنموا من سيارات الانكليز المصفحة اثنتين، بعد ان ذبحوا اثناعشر من رجالهم، وفيهم الوكيل السياسي وقائد جيش «الليفي» في الموصل ·

هي ذي جذوة الثورة الاولى، التي أشعلت في الشمال، في الاسبوع الاول من شهر تموز · وفي الاسبوع الثالث من هذا الشهر اعتقلت السلطة الانكليزية في كربلاء وفي الحلة عدداً يذكر من الوطنيين، وفيهم ابن احد المجتهدين · ثم اعتقلت الشيخ شعلان ابو جثون شيخ عشيرة الظوالم لدين عليه ابى ان يدفعه كما قيل، فهاج عرب الظوالم نافرين له، وجاءوا السراي صاخبين، فهجموا على السجن ودخلوه قهراً، ثم خرجوا بشيخهم يحدون ويهللون للثورة ·

وعلى اثر ذلك افتى مجتهد كربلاء بالجهاد، فاندلعت من كل جانب السنة النار ونفرت العشائر للقتال · اما الانكليز فقد كانوا في سياستهم منقسمين، وكان اولي الامر في السلطتين المدنية والعسكرية في نزاع شديد مستمر · زد على ذلك ان عدد الجيش يومئذ، نحو اربعين الف، لم يكن كافياً للدفاع · وان قائد الجيش السر إلمر هلدين[1]، فراراً من حر الصيف في العراق، نقل المركز العام الى كرند في جبال العجم · مما حمل احد شعراء الانكليز ببغداد على هجوه في قصيدة[2] مطلعها :

---

(١) Maj. Gen. Sir Aylmer Haldane. وقد كتب كتاباً بعدئذ يدافع فيه عن نفسه وعن خطته ويشجب سياسة الحاكم السياسي يومئذ السر ارنولد ولسون Sir Arnold Wilson الذي كتب كذلك كتاباً ضخماً يحمل فيه على القيادة العامة وعلى السياسة الخارجية بلندن التي كانت تتردد في تأييده واجابة مطالبه ·

(٢) قد يكون نفقات نقل القيادة العامة اكثر او اقل من نصف لك روبية · ولكن الشاعر عارض في قصيدته قصيدة تينيسون Tennyson المشهورة التي مطلعها،

Half a league, half a league, half a league onward.

فقال هو : Half a lakh, half a lakh, half a lakh, squandered.

« نصفٌ لكِ ، نصف لكِ من المال ،
لا يعود
والقيــادة تتنزه في الجبالـــ ،
والجنود . »

ليس من موضوع هذا الكتاب سرد حوادث الثورة مفصلاً . وقبل ان اشير الى اهمها لا بد من القولـــ انها كانت ثورة ولا كالثورات . واغرب ما فيها انها اشتعلت اشتعال النار في الهشيم ، دون زعامة تُعرف او ترى ، الا اذا حُصرت في مجتهدي النجف الذين اضرموا نارها وتواروا ، فسكتوا بعد ذلك او أُسكتوا .

ومع ذلك فقد انتشرت بسرعة البرق ، من الديوانية الى بعقوبة ، ومن النجف الى تل عفر . وكان عرب العشائر اول من سارعوا للحرب ، فحاصروا السماوة والكوفة ، الاولى اسبوعين والثانية ثلاثة اشهر ، وخربوا سكة الحديد في اماكن متعددة ، وهاجموا المعسكر في الحلة مراراً ، وكانت خسارة الانكليز في فرقة « منشستر » التي خرجت لمحاربة الثائرين ١٨٠ قتيلاً و٦٠ من الجاريح . بعد هذه الفاجعة اخلى الانكليز الديوانية .

وكان العرب على الفرات كذلك موفقين ، الا انهم في بعض الحوادث نكلوا بالاسرى . فقد غنموا قافلة من قوافل التموين ، وهاجموا مركباً في النهر ، فساقوه الى البر ، فلاذ الانكليز بالفرار ، واطلقوا بنادقهم على الباخرة « فايرفلاي » فدمروها ، واوقفوا الباخرة الاخرى «غرينفلاي» فاسروا رجالها ، وجوّعوهم ، ثم ذبحوهم جميعاً . وقد كانوا في اكثر مواقف الدفاع الشاقة ثابتين غير منهزمين ، فغنموا السيارات المصفحة ، واسقطوا برصاصهم الطيارات . ولكنهم كانوا يقتلون من ينجو من رجالها ،

ويجهزون على الجاريح ٠

وكانت خسارة العرب مثل خسارة الانكليز جسيمة ٠ من اهمها ، بعد الرجال ، المفاتيل التي هدمها الانكليز ، تلك البروج الصغيرة التي كانت تُعد بالمئات في سهول العراق ، وهي حصن العشائر الحصين[1] ٠ ومع هذه الخسارة كانت الغلبة في الشهرين الاولين للعراقيين ، فامتدت الثورة الى كفري التي غزاها الثائرون ونهبوها ، ووصلت الى بعقوبة فجلا الانكليز عنها ، والى راوندز في بلاد الاكراد ، والى البادية الشمالية التي ينزلها عرب شمّر ٠ وقد وقعت واقعة بينهم وبين الجيش الذي أُرسل عليهم من الموصل ، كانوا فيها المنتصرين ٠ على ان الانكليز ، بعد ان وصلتهم النجدات ، شرعوا في اواخر ايلول يعممون هجماتهم الموفقة الغالبة ، وكانت نار العرب في تشرين الثاني على وشك الانطفاء ٠

هي ذي خلاصة تلك الثورة الهوجاء ٠ ومن رغب بالتفصيل لحوادثها وكان يحسن اللغة الانكليزية ، يجده في كتاب السر آرنلد ولسون[2] ٠ فهو من التدقيق بمكان ، وعلى جانب من الانصاف يُشكر عليه ، اذا ما ذكرنا ان سياسة مؤلفه هي من اسباب الثورة ٠ وانك لتجد المؤلف وافر الادب ، طويل الباع ، في العلوم السياسية والتاريخية ٠

اجل ، ان السر آرنلد لمن الادباء العلماء ٠ ومهما تكن آراؤه مخالفة لآرائك ، ومثله العليا بعيدة عن مُثُلك ، ومهما يكن من التناقض بين دمقراطية يجهر بها وسياسة استعمارية يؤيدها ، ومهما يكن من تحامله على الرجل الذي يظل مذكوراً محمود الذكر بعد ان تُنسى اسماء العظام

---

(١) راجع «ملوك العرب» الجزء الثاني ، القسم الثامن صفحات : ٣٣٠ــ٣٢

(٢) A Clash of Loyalties, by Sir Arnold Wilson

معاصريه[١] ، مها تكن شواذات السر آرنلد ، فانه خير مثال للرجل الانكليزي الكريم من رجال الماضي . فهو يصارح دون ان يسيء ، ويتفلسف دون ان يزعج ، ويتهكم دون ان يتعامى عن الفضل ، ويروي فوق ذلك — في كتابه هذا — من اقوال الفلاسفة والمؤرخين ، ومن حكم الحكماء والسياسيين ، ما يخفف على نفسه ، في الاقل ، وطأة النزعات السياسية ، ويبرر في نظره فلسفته الاستعمارية .

ولكنه لم يكن في العراق من الموفقين . وماذا في طاقة امرئ مثله ، وقد كان في صيف ١٩٢٠ وحده يدير شؤون البلاد . فلا المس بل بعلومها واختباراتها العربية ، وبصداقتها لرؤساء العشائر ، استطاعت ان تساعده ، ولا الوكلاء السياسيون المحددة اعمالهم ، وقد قتل الثائرون عدداً منهم ، وبات الآخرون في مراكزهم مهددين على الدوام بالهلاك .

الا فلينصف المنصفون . فقد طلب السر آرنلد من حكومته بلندن سلطةً مطلقة ، فجاءه بدلها الجنرال هالدين . طلب التصريح بسياسة وضعية مقررة ثابتة ، فجاءه بدلها « وصايا » الرئيس ولسون الاربع عشرة . حاول ان يؤسس في العراق حكومةً هندية ، وحمايةً بريطانية ، فجاءه من « ويتهال[٢] » عن طريق « سملا[٣] » البرقية تلو الاخرى المقيدة ، المبلبلة ، المكربة — اعلمنا ما هو الرأي العام — تحقق رغبات الاهالي — انتظر الى ان يتم السلم بيننا وبين الاتراك — انتظر الى ان يصدر صك

---

(١) هو ودرو ولسون الناقم عليه السر آرنلد ولسون لانه المبدع للانتداب ، الواضع والجنرال اسمطس نظامه .

(٢) Whitehall مقر وزارة المستعمرات بلندن

(٣) Simla مقر نائب الملك في الهند

الانتداب — كن حازماً وبصيراً في مهمتك التي هي — لا شيء · فلا عجب اذا تبرم وتغيظ ، ولجأ الى كتب الادب والتاريخ ·

وها كه في طيارة بطير ، وفي حقيبته كتاب من الكتب الخالدة · انها لطيرة مدهشة طيرة هذا الجندي السياسي والعالم الاديب ، وهو يحمل درراً من الحكمة وكنوزاً من التعاليم السامية · أوَلا ترى جميل التناسب بين من يحلق عالياً حقيقةً ومعنى ؟ قال الفيلسوف إِمرسون : « اقطرْ مركبتك بإحدى النجوم » ·

وقد قطرها السر آرنلد ، فراحت تشق بجشمها الفضاء ، وتستشم اريج الكون الاعلى · هي الحقيقة ، ولا اثر فيها للخيال · فعندما امتدت نيران الثورة الى بلاد الاكراد الجنوبية ركب الطيارة الى اربيل ، وفي جيبه كتابٌ لبيكون هو المقالات[1] · وكانت مهمته سياسية كردية · اما الواسطة فرؤساء الاكراد ، واما الهدف فقلوبهم · اجل ، يجب ان يستولي على قلوبهم ، ليظلوا موالين في هذه الثورة للحكومة · وها هوذا يستعين بالفيلسوف بيكون ، فيفتح الكتاب ويقرأ ما يقوله في الجسارة والاقدام ، في مجالس الشورى ، وفي ساحات العمل ·

وكان يومه يوم الاثنين ، يوم الشورى ويوم العمل · فطار على جناحي الجسارة والاقدام تواً الى قلوب الاغوات · جادل ، وجامل ، واقنع الاغوات · وعندما كان يخامره شيءٌ من الريب بنفوذ كلماته كان يلجأ الى كتاب آخر صغير ، يحمله دائماً ، وقد دوّن فيه لبعض الوزراء المشهورين كلمات حكيمة بليغة في العراق وشؤونه ·

من هذا الكتيّب كان يتلو الآيات على مسامع اغوات الاكراد ·

---

[1] The Essays of Bacon.

هذه الكلمة الساحرة هي من كلمات لويد جورج ، وهذه الكلمة الذهبية هي من كلام تشرشل ، وهذه الآية الرائعة … وما كان يغمس في الماء الورقة التي كُتبت فيها الآية ، ويُعطي حضرة الآغا الماء ليشربه .
لا . لم يكن السر آرنلد من اولي الكرامات . ولكنه كان يؤكد للاغاوات في اربيل ان هؤلاء السياسيين العظام « يصدقون في ما يقولون ، ويبرون بما يعدون » .

على ان هنالك من كانوا يعلمون بما يعلم ، ويستشعرون الصبر عليه . وهل كان يا ترى يجرؤ السر آرنلد ولسون ان يفتح كتيبه في حضرة الامير فيصل ؟ دع عنك هذا ، وعد معنا الى الموضوع الذي اوجب هذا البحث . ليس في سياسة السر آرنلد ، على صوابٍ كان فيها او على خطأ ، ولا في نزاعه والسلطة العسكرية ، ان بررت الحوادث موقفه او لم تبرره ، ليس فيها ما يهمنا غير ما يتعلق بناحيةٍ من الثورة ، اشرنا اليها في ما تقدم من هذا الفصل . فقد خدمت الثورة اغراض الامير فيصل خصوصاً ، والقضية العربية عموماً ، مباشرةً وضمناً في ما كان سابقاً ولاحقاً من امره . وكانت الايام تعجل بساعة الحكم النهائي ، لان وزارة المستعمرات لم تكن لتهتدي الى حلٍ لمعضلة العراق يرضيها ، ويرضي الحلفاء ، ويرضي كذلك العراقيين .

كان الامير في تلك الايام بلندن ، وهو يحمل كتاب قضيته ، وقضية العرب ، ليتلو منه الآية بعد الآية على مسامع السياسيين العظام ، اولئك الذين دوّن السر آرنلد ولسون كلماتهم الساحرة في كتيّبه ، وهو يقاسي ، في غير مواقفه السياسية العراقية ، شيئاً من الم النفس — من الحيرة والتردد — في اخلاصه لاصحابها ، واعجابه بهم .

وقد كان اولئك السياسيون يفكرون بملك للعراق ، وبالبيت الهاشمي قبل وصول الامير فيصل الى لندن ، فيعيدون النظر من حين الى حين في صور انجال الحسين . وها هي لديهم كلها — علي — عبد الله — فيصل — زيد — الرجل الصالح ، والرجل الجامح ، والشاب الذي لا يزال في المدرسة بأكسفورد ، والرجل الذي خبرناه في ساحات الحرب ، وفي دوائر السياسة ، الرجل الاقرب بعقليته الى العقل الاوروبي والى القلب الانكليزي — فيصل .

على ان الجهر باسمه ، بعيد فاجعة دمشق ، لم يكن مناسباً . خصوصاً وان الجارة عبر بحر المنش تستاء ، وقد تحسب عملنا امتهاناً لكرامتها العزيزة . وانه في نظرها ، لكذلك . فقد جاء الاعتراض من ال « كاي دورساي » على الفصل في امر فيصل في ذاك الحين . وكيف لا تعترض والكرامة الفرنسية لا تزال طرية العود . لننتظر قليلاً اذن ريثما تسمك قشرتها ، ويكثف حسها فنعمل اذ ذاك ما نشاء .

وان هي الا برهة من الدهر ، أُخمدت خلالها نار الثورة في اهم نواحيها فأُقيل السر آرنلد ولسون من منصبه ، وتعين السر برسي كوكس (في تشرين الاول سنة ١٩٢٠) مندوباً سامياً في العراق . وقد كانت مهمته الاولى ان يؤسس حكومة عربية طبقاً للانتداب الذي وكلت عصبة الامم امره الى الحكومة البريطانية . وقد ادرك ارباب هذه الحكومة ان مبادئ الاستيلاء القديمة امست مستنكرة ، فصار ينبغي حتى لاشدهم تمسكاً بها ان يبدلوها بما فيه شيء عصري مستحب . ولكنهم ابوا ان يغيروا خطتهم باجمعها ، فعقدوا النية على ان يكون للحكومة الجديدة ، حتى في ظل الانتداب ، صورةً عربيةً فحسب . ولا يغيبن ذلك عن بالك ، ايها المندوب .

«البناء انكليزي والوجه عربي — هذا كل المستطاع .»

قد كان السر برسي كوكس عالماً بذلك كل العلم . ولكنه ما نسي ان جنود بريطانية العظمى، منذ وطأت اقدامهم البصرة الى يوم دخولهم بغداد، كانوا متيقنين انهم فتحوا العراق، لا للعراقيين ولا للعرب، بل لانكلترة وشفيعها مار جرجس . وهل الذنب ذنبه اذا عبثت السياسة بامالهم وقضت على ذلك اليقين ؟ فقد كان يومئذ عميد الحملة العسكرية في العراق، وهو اليوم عميد الحكومة البريطانية، وعصبة الامم — والرئيس ولسون ! ان مهمته هذه لاصعب جداً من تلك . كيف لا ومسؤوليته الآن عجيبة، منقطعة النظير . هي مسؤولية مثلثة الزوايا، وعليه ان يحشر في المثلث امةً فتيةً جديدة، ويضمن لها الخير والسلامه .

عندما باشر السر برسي العمل كان من اعوانه الاولين المستر فلبي (الحاج عبد الله اليوم — « المستوهب ») والمس بل المستعربة . وكانت وظيفتهما ذت متن واحد كثير الحواشي . فمن ترجمة الرسائل والبلاغات، الى استقبال الزائرين، الى مجاملة طلاب الوظائف، الى مقابلة ذوي النفوذ والجاه في بيوتهم، الى ... وكل ذلك تمهيداً لتأسيس المجلس الوطني لحكومة الانتداب، او بالحري لتشييد الوجه العربي للبناء الانكليزي .

وقد تم بعد قليل ما ابتغوه، وكان النقيب المستسن المبشر بالخير على الدوام، السيد عبد الرحمن، الركن الاول في البناء . وهناك نقيب آخر بارزٌ بين الاركان، هو السيد طالب، سيستوقفنا بعد حين .

تأسس المجلس الوطني وباشر اعماله . ثم دُعي السر برسي كوكس وغيره من الحكام الانكليز في البلدان العربية لحضور المؤتمر الذي عقده في القاهرة (في اذار ١٩٢١) المستر ونستون تشرشل، يومئذ وزير

الخارجية ، للبحث في تأسيس دائرة خاصة في وزارة المستعمرات ، لتوحد فيها المصالح والمسؤوليات البريطانية في الشرق الادنى ، « رغبةً في تخفيف عبء الضرائب على المكلف البريطاني باسرع ما يمكن » كما جاء في التقرير الرسمي ٠

وما جاء شيء ، صراحةً او اشارة ، في التقرير عن الامير فيصل ، الذي أمَّ كذلك القاهرة في ذلك الشتاء ، وكانت اغراضه تتصل ، مباشرةً وضمناً ، بالمكلف البريطاني المذكور ٠ كيف لا وفي العراق حمله الانقل[1] ٠ وها هوذا الامير ، وقد تسلح بالاقتصاد ، يحارب الان بنفسه ، لا لنفسه والعراق فقط ، بل للمستر تشرشل كذلك ٠ فالسبيل القويم الى تخفيض الضرائب في بلادكم ، يا حضرة الوزير ، هو ان تؤسسوا في العراق حكومةً عربيةً وطيدة الاركان ٠

وكان السر برسي كوكس موافقاً ٠ بل كان يحمل في جيبه لائحة لتخفيض خمسة عشر مليون ليرة انكليزية من ميزانيةٍ بلغت خمسة وثلاثين مليوناً ٠ ويستمر في التخفيض كل سنة عملاً بما يبرره تقدم الحكومة الوطنية ، وخصوصاً في تأليف جيش وطني يغنينا عن قوات الدفاع البريطانية ٠ ومن رأي الامير والعميد ان على الحكومة البريطانية ان تدعم هذه الحكومة العربية دعماً اكيداً ، دون ان يكون بارزا ٠ اما شكل الدعمة وتحديدها فلا العميد يدري ، ولا الامير ٠ لتترك للايام تكييفها وتقرر شأنها ٠ فاطرق المستر تشرشل هنيهةً ولسان حاله يقول : في المسألة غموض مفيد ، ثم فاه بكلمة الاستحسان ٠ بيد انه ظل بقلب في

(١) كانت الميزانية سنة ١٩٢٠ — ٢١ ثلاثين مليون ليرة انكليزية للجيش وخمسة ملايين للادارة المدنية ٠

فكره « البناء الانكليزي ذا الوجه العربي » ٠

عاد السر برسي كوكس في الشهر التالي الى بغداد ، وسافر الامير فيصل الى مكة يستمد بركة ابيه ٠ وقبل ان أُعلن رسمياً ما تقرر في مؤتمر القاهرة كانت اسلاك البرق بين العراق والحجاز تنبض بانباء التهنئة والمسرة ٠

على ان الجو ما خلا من الغيوم ٠ فقد اعترت الحكومة الموقتة نزعات سياسية عجيبة ، تمثلت في السيد طالب وزير الداخلية والمستر فلبي مستشاره ٠ وما اتفق الاثنان الا — ليقتلا الامير ٠ على انهما اختلفا في الوسيلة الى الغرض المنشود ٠ فقد كان فلبي يدعو للجمهورية ، والسيد طالب للملكية الغير الهاشمية ٠ فطاف السيد في البلاد ، خلال تغيّب المفوض السامي ، يخطب و يبشر بملكٍ عراقي قح ، وبتاج لا يصلح لغير النقيب — وهو كذلك نقيب ابن نقيب ٠ و كان الله محب النقباء ٠

واين المس بلْ ? تنصح للسيد طالب وتهديه ? انها كانت في مؤتمر القاهرة تساعد في انارة ذهن المستر تشرشل وهدْيه ٠ وعندما عادت ورفاقها الى بغداد استقبلهم فيها وفي البلاد روح الشغب والشقاق ٠ وقد سادت تلك الروح العشائر اكثر من سواهم ، وهم موالون للسيد طالب ، متشيعون له ٠ فلا عجب اذا هدد بهم الانكليز ٠ فقد أدب مادبة لبعض الصحافيين منهم ، وخطب خطبة اشار فيها الى رؤساء العشائر الذين كانوا حاضرين ، وانذر الحكومة البريطانية اذا كانت لا تقوم بتعهداتها التي عبر عنها بكلمتين : العراق للعراقيين ٠

أيهددنا هذا النقيب بثورة اخرى ? لقد طفح الكيل ، وانقطع حبل الصبر حتى في صدر السر برسي الرحب الهادي ٠ فطلب من القائد العام ان

يهتم حالاً في تسفير السيد طالب . فصدر الامر وأزفت الساعة . ولكن الرواية في طريقة الاعتقال روايتان ، صدقت منهما الغير الرسمية . فقد جاء في تقرير المفوض السامي انه « ألقي القبض على السيد طالب في الشارع العام . » والحقيقة هي خلاف ذلك ، الا اذا حسبنا الجنينة امام دار الانتداب شارعاً عاماً .

وما شأن السيد في تلك الجنينة ، ومن ذا الذي اصطاده هناك ؟ لا تعجب اذا قلت لك ان المس بل نفسها هي الصائدة . فقد اطلقت صقرها على طير البصرة وكانت ظافرة . وكان ذلك منها في سبيل التكريم لبطل العراق . اجل ، قد ارسلت المس بل تدعو السيد طالب للشاي في دار الانتداب ، فقبل السيد وكان في اثناء التكريم اسير لطف سيدتين اللايدي كوكس وصاحبة الدعوة . وعندما خرج من الدار استقبله عند الباب في الجنينة آمرون لا آمرات — آمرون مسلحون ، فادخلوه السيارة ، دون سلام ودون كلام ، وساروا به مسرعين الى البصرة ، حيث كانت تنتظر الباخرة التي أقلته الى جزيرة سيلان .

« الا في سبيل المجد ما انا فاعل » — وفي سبيل الوطن . فقد كان السيد طالب مغواراً في وطنيته ، جباراً في اعماله ، طياراً في ارائه وآماله . وكان شديد الايمان ، حتى في ساعات شرابه ، بما حواه ذلك الرأس القائم بين كتفيه كبرج من العاج . اني لأذكر اجتماعنا بجده في خريف سنة ١٩٢٤ ، واذكر من الاحاديث حديثاً عن العراق . فقد قص علينا بعض حوادث تلك الايام ايامه ، ونحن نشرب الوسكي والصودا ، ثم وضع الكاس على المائدة ، ورفع يده الى ذلك الرأس اللامع الشريف يمسحه ويربته قائلاً : « ان ها هنا شيئاً لا يُغلب — لا يغلب . » وكان يفكر

بالعودة الى العراق والى السياسة . كان لا يزال يحلم الاحلام الذهبية . فقال يستأنف الحديث : « الامور مرهونة باوقاتها ، وستسمعون عندما اعود ما يدهش ويسر ان شاء الله . وساطلبك يومئذٍ يا استاذ واعينك وزير المعارف . »

هي الاحلام تهدم صروحهـا الايام . عاد السيد طالب الى البصرة ، فحال واسناه القدر دون امانيه . فلا كان ، ولا كنت انا ، من الموفقين . ولكنه اخصني بحلم من احلامه ، رحمه الله ، ورحم « وزير المعـارف » . فاني لا ازال اسير هذا القلم الفاتن — الفاتن صاحبه ، ايها القارئ العزيز — ولا يزال « صاحب المعالي » طيفاً من الاطياف السابحة في سماء الخيالــ ...

لنعد الى حقائق الحياة الدنيا — الى موضوعنا . قد اشرت الى الغيوم في سماء الامير فيصل العراقية ، وسميت غيمتين منها ، بدد الدهر احداهما . وهناك غير الواحدة الباقية ، اي غيمة الجمهورية في شخص فابي ، مما كان يقلق خصوصاً دار الانتداب . فقد كان المحافظون ، وعلى رأسهم النقيب السيد عبد الرحمن ، ملكيين ، شريفيين ، وباذن الله فيصليين (لا يفوتنك ان بعضهم كانوا متشيعين لاخيه الامير عبد الله) وكان الوطنيون المتطرفون ، واكثرهم من الذين اداروا من سورية الدعاية للثورة وعادوا الى بغداد ، من دعاة الامير وانصاره قلباً وقالباً . بقي اهل الشيعة وهم على الاجمال في حال غامضة كان يصعب التكهن بها ، والعشائر وهم مترددون متذبذبون ، والاقليات — المسيحيون واليهود — الذين كانوا يحسبون القوة المسيطرة ملجأهم الاول ، وحصن حقوقهم على الدوام .

ولكن القوة المسيطرة كانت تنظر الى الجميع في تلك الايام نظرهـا

الى الاقليات — هي للكل بما ستقيمه من الحق ، وتضمنه من الحقوق ، وتحميه من المصالح العامة ، ان شاء الله . وانها لمستعينة على ذلك بالامير فيصل . جهرت بهـذا مراراً ، وكانت في ما تجهر صادقة .

اجل ، قد كان الانكليز يعولون حقاً على الامير في سياستهم الجديدة . وكانوا ينتظرون منه ، لما علموا وتحققوا من مواهبه وسجاياه ، ان يكون بنفسه الدعاية الكبري لنفسه ، والبرهان الساطع على حسن اختيار ارباب السياسة البريطانية .

وكانوا يتوقعون منه فوق ذلك ان يأتي ببعض المعجزات . هوذا العراق واهله ، قُضاتك اليوم ، وشعبك غداً . فيجب عليك ان تسحر الشيعيين ، وتفتن السنيين ، وتقنع النصارى ، وترضي اليهود ، وتبعث خوف الله في قلوب العشائر . يجب عليك ، وانت الساحر ، ان تستولي على العقول والقلوب في الشيوخ والشباب ، في المتطرفين والمحافظين ، في المتطربشين والمعممين . عليك ان تفتنهم ، تسحرهم جميعاً ، وتسحر معهم ذلك الخليط الاثري من الشعوب ، اي الاقليات المسيحية واليزيدية والبهائية واليهود والصابئين .

فاذا كان ذلك كله في استطاعة الامير رضيت الامة عنه (والتاج لا يزال رهن رضاها) وهانت مهمة الانتداب . على ان للمسألة وجهة اخرى . فاذا جاءنا بالمعجزات ، أفلا يطمع بعد ذلك بالحكم المطلق ؟ افلا يصبح في الاقل فوق طاقتنا . هوذا المشكل الاكبر الذي وجب حله على السر برسي والمس بل واعوانهما . وما رأوا له غير حلٍ واحد ، هو في حفظ التوازن بين الفريقين ، وفي مسلك الاعتدال لكليهما . فيجب على الامير ان يذكر على الدوام ان لولا الانكليز لما كان في العراق . ولا يغيب

عن بالنا ان مصاعبه هي مصاعبنا ، فيجب علينا ان نساعده في مقاومتها وفي التغلب عليها .

علينا اذن حتماً ان نحمل الميزان من اجل البلاد — أية بلاد ؟ — وان نحافظ على التعادل بين كفتيه . علينا نحن المسيطرين ان لا نقيد انصار الامير المتطرفين كل التقييد ، وان نساعد المحافظين ليزدادوا قوةً ونشاطاً . ولا يتم لنا ذلك بغير الكياسة والمرونة ، فنرعى ذمام اهل الوجاهة في البلاد ، ونعالج العداوات بالتي هي احسن .

اني أعطيك بكلمة اوضح فكرة المسيطرين : ينبغي ألا يكون الملك بطلاً ، والا يكون خيالاً . ليس دور الساحر دور فيصل اذن ، بل هو دور المندوب السامي . وانك لتدرك شيئاً من اسلوبه السحري في موقفه الاول . فهاك الى يمينه المس بل ، وهي تمدح في رسائلها الى امها « وطنيينا الاعزاء » ، والى يساره المستر فلبي ، وهو يرسل كلماته في الجمهورية ولها ، فتصل حتى الى العشائر على الفرات . اضف الى ذلك المساعي الرسمية ، والغير الرسمية ، التي كانت تُبذل لتأليف حزب شريفي هاشمي من شتى العناصر السياسية والدينية .

وما كان المتطرفون قابعين في القهاوي يدخنون الاراكيل . بل كانوا في اعمالهم اشد نشاطاً واكثر تيقظاً من الاحزاب الاخرى . وقد سافر وفد منهم الى البصرة ليرحب بالامير ، ويعلمه بدقائق الامور وخفاياها . نعم ، اذنت الفوضية بالسفر ، ولكنها ضنت بالاخبار . وما كان في البصرة احد من الموظفين عالماً بموعد وصول الامير — ولا فرق ان جهلوا او تجاهلوا . فعندما وصل الوفد الى المرفأ كانت الباخرة راسفة بحبال من مسد مشدودة الى اوتاد من حديد ، وكان الامير قد

اصبح بعيداً ، وهو اسير المرحبين به من اصدقائه « العاقلين » الانكليز والعراقيين .

اما في بغداد فالفيصليون اعدوا مظاهرة كبرى للترحيب ، وراحت الحكومة الموقتة ، يحف بها الانصار ، ترحب بالامير في المحطة . ولكن اولي الامر ها هنا كذلك جهلوا او تجاهلوا موعد وصول القطار . وكان بين الجموع المنتظرة عدد وافر من الانكليز رجالاً ونساءً فشكوا مثل الاهالي التأخير ، وتأففوا من الظهيرة في تموز . وبينا الجموع في هذه الحال ، يشكون الحر والانتظار ، جاءت برقية تقول ان القطار متأخر ساعتين ، فارتأى المندوب السامي — رحمة بالعباد ؟ — ان يتأخر سبع ساعات بدل الساعتين . وكان ذلك . فوصل القطار ليلاً ، وكان الاستقبال رسمياً حكومياً — بارداً .

تحدث احد الانكليز ، رفيق الامير في رحلته هذه ، الى المس بل ، فاخبرها بما كان من فتور الترحيب الاهلي . وقد كان الامير مثيقناً ان الحكومات المحلية في الطريق تستطيع اذا شاءت ان تجمع الناس ، وان تحول دون اجتماعهم . بيد انه أُخبر وهو في القطار ان السر برسي كوكس متردد في ولائه ، ومتخذ موقف الحياد ، وان المستر فلبي يبشر بالجمهورية ويدعو لها ، وان المس بل وجدها هي قلباً وقالباً من انصاره . لله در تلك الانكليزية الكريمة الباسلة ، فقد طالما سمع الامير عجيب اخبارها، وقد علم شيء من ولائها واخلاصها له وللعرب . فعندما وصل القطار الى المحطة في مساء ذاك اليوم ، تقدم اليها مصافحاً شاكراً . ومنذ تلك الساعة الى آخر يوم من حياتها العجيبة ببغداد ظل يحترمها ، ويعدها من اخلص اصدقائه الانكليز ، ومن اكثرهم فضلاً .

ولكنها وهي تخدم « سيدي فيصل » بكل قواهـا ، في ما يتفق طبعاً وسياسة حكومتها ، كانت تعجب كل الاعجاب بالسر برسي كوكس وتجهر دائماً بانه رئيسها الاول . وهاهي تساعد الان ، عملاً بمشيئته ، لاطفاء شعلة الحماس الوطني في صدور المتطرفين الذين شاءوا ان يُنادى بالامير ملكاً حين وصوله . ذلك لان ساحر المفوضية الذي وصفه احد رؤساء العشائر في قوله انه « رجل ذو اربعين اذن ولسان واحد » (وما ابطأ ذلك اللسان واحذره) لا يريد ان تكون الكلمة الاولى في الامر للمتطرفين . وقد ردهم رداً حسناً في قوله ان ينبغي ان يكون العمل قانونياً دستورياً ، وذلك لا يتم في يوم واحد .

وكان العمل قانونياً . فقد قرر مجلس الوزراء ، في ١١ تموز ان يكون الامير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق ، وان تكون الحكومة دستورية نيابية دمقراطية . فاشار المندوب ان يضاف الشرط الثاني وهو ان يثبت القرار بالمبايعة او ما نسميه اليوم الاستفتاء . ثم شرعت الحكومة تعد العدة لهذا الاستفتاء ، الذي تولى ادارته ، واشرف عليه ، في اكثر النواحي ، الوكلاء السياسيون . وقد اضاف المبايعون في بعض المدن منها البصرة والرمادي ، شرطاً ثالثاً فرضته المفوضية رأساً ، لان مجلس الوزراء رفض ان يثبته في القرار . اما الشرط الثالث فهو ان يقبل فيصل بمشورة الانكليز .

قلت ان المفوضية فرضت هذا الشرط فرضاً ، فقبل في بعض المدن . وما كان ذلك منها الا لان السر برسي رأى الاستئثار في العمل خيراً من النزاع بينه وبين المجلس . ولكن هذا الاسلوب في تنفيذ الامور لا يبشر لسوء الحظ بحسن المصير . انا نسلم بالمستطاع من حقكم ، ونتمسك

بالباقي الذي هو حقنا ، ننفذه بالامر وان تعددت اساليب التنفيذ .
هوذا موطن الضعف في سياسة السر برسي كوكس . وقد طالما زاد
هذا الاستئثار ، المقنّع تارةً ، المكشوف طوراً ، بسوء التفاهم ، وسوء
الظن ، وبما كان ينشأ عنهما من النزاع والعداء بين الحكومة العراقية
ودار الانتداب . ان الجرح يبرأ من القعر صاعداً ، واذا سارع الطبيب في
لأمه قبل الاوان استحال قرحةً مزمنة .

ولكن السر برسي كوكس كان يؤثر الفصل في الامور ولو مساومة
على العلاج الطويل البطيء . فيقطع العقدة في بعض الاحايين ويمشي ،
دون ان يقف او يتلفت ليرى ما عسى ان تكون نتيجة عمله . وهو
كذلك في هذه المهمة الملكية . فقلما كان يدرك ، وهو يقيم ملكاً
ويوازن القوات السياسية حول عرشه ، او قلما كان يهمه ، ما قد يتبع
القطع السريع او اللأم من التقرح ، بل من الانفجار .

على انه في بداية امره استبشر بالامير فيصل ، الذي كان في مجالسه ،
واحاديثه ، وخطبه ذلك الامير المنتظر . فقد حقق آمال الانكليز
والعراقيين . وقد حذا خصوصاً في خطبه حذو جده الرسول ، فجعل كلامه
على قدر عقول الناس ، فجاء عفو القريحة ، خلواً من التعمل والتفوق ،
سهلاً واضحاً ، صريحاً فصيحاً . وكان فوق ذلك يخص كل وفد من
الوفود ، وكل فريق من الناس ، بكلمة توحيها اليه تقاليدهم ونزعاتهم
السياسية والدينية ، فيمثل لهم فيها شعار الثقة والكرامة والفلاح .

كأني الان اسمعه يناشد الشيعة بوحدة الاسلام والاخاء الاسلامي .
— أوَلا نؤمن نحن واياكم بالله وبالرسول ، ونكبر آل البيت ؟ اوَ ليس
السادة والاشراف جميعاً من سلالة واحدة ؟ واسمعه يتلو على اهل السنة

من صفحات العباسيين الذهبية ايات المجد والنور ، فيذكرهم بالمأمون والرشيد وبما كان في عهدهم المجيد من فضل العرب على الاوربيين ، ثم يحثهم على النهوض والتعاضد لتجديد ذلك المجد والزيادة على ما اتصف به من العلم والثقافة والعمران . وكان يصرح ويؤكد للاقليات انه مقيم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الرعية ، على اختلاف المذاهب الدينية ، فيعيد ما قاله مراراً : كنا عرب قبل عيسى وموسى ومحمد . وكان يحدث المعتدلين في ثقة المرء بنفسه ، وفي الشجاعة والاقدام ، وفي الحماس الذي يضرم في نهضات الشعوب نار الايمان ، ويكللها بالنصر والفلاح . وكان يحذر المتطرفين من المزالق والاخاديد ، الظاهرة والخفية ، ومن شر الردات التي تنجم غالباً عن استعجال الامور ، وعن الفوز الذي يجيء ناقصاً قبل اوانه . وكان يختم كل حديث وكل خطبة بهذه الكلمات : « اني اطمئنكم واؤكد لكم ان مساعدة الانكليز للعراق هي كمساعدة الصديق للصديق . واننا نقبل هذه المساعدة كأمة حرة من أمة حرة ، دون ان نفادي بشيء من المصلحة او من الكرامة . »

ومع ذلك كله فقد تخلل اصوات الاستحسان وهتاف الاعجاب ، غنات من الريبة ، وخنات من التردد . وقد كان في استطاعة الانكليز ، بعد ان ظهر الامير في اصدق مظهر من مظاهر التناسب والتضامن التي كانوا يحبذونها وينشدونها ، بل بعد ان برهن بنفسه على انه عونهم الاكبر في نجاح المهمة ، وفي باكورة الاستقرار ، كان في استطاعتهم ، اقول ، وهم الموصوفون بكرم الاخلاق ، ان يغنوه عن استماع شيء بنفسه من تلك الغنات والخنات بين اصوات الاعجاب والثناء .

وما كانوا في هذه الفعلة صريحين كل الصراحة . فقد سمع الامير

ان بعض القبائل مترددة في ولائها ، بل معادية له ، فارادوا ان يتحقق الامر بنفسه في زيارة ديروها . ولكنهم جهروا بشيء ، و كتموا اشياء .

زار الامير عرب العمارات والدُّ ليم في مضاربهم ، وكان في معيته بعض اولئك الانكليز اصحابه ، وفي مقدمتهم غرترود بِل ، التي وصفت في احدى رسائلها ما شاهدت يومئذ وسمعت .

واني في ما اقص عليك الان معول على روايتها لانها صادقة بتفاصيلها ، كما علمت بعدئذ من الملك فيصل نفسه . بعد ان وصفت المشهد الرائع ببداوته ، وباجتماع قبيلتين من اكبر قبائل عرب العراق ، قالت : « وقف الامير يخطب فيهم بتلك اللهجة الفخمة لهجة البادية ، وبذلك الصوت الجهوري صوت البدو . فاستحثهم على الاتحاد والتضامن ، وذكرهم بما عليهم من الواجبات في رعي العهود والمحافظة على الامن في البادية ، ثم قال : ومن هذا اليوم وهذه الساعة — وقف ها هنا ليسأل تاريخ ذاك اليوم فاجابه احد الحضور ، فاعاد كلامه مؤرخاً — اني ولي امركم ومسؤول عنكم . فمن تجاوز حدوده فحسابه عندي . ساقضي بينكم بالعدل في مجالس يحضرها شيوخكم . وهذا حقي عليكم انا ولي امركم . »

« فسأله شيخ طاعن بالسن : « وحقوقنا ؟ أليس لنا حقوق ؟ »

« بلى ، لكم حقوق . وساقوم بواجبي في المحافظة عليها . »

وعندما فرغ من خطابه تقدم الشيخ فهد الهذال امير العمارات ، والشيخ علي سليمان امير الدُّليم ، فوقفا امام فيصل وقالا :

« اننا نبايعك لان الانكليز قابلون بك . »

هذا ما اراد الانكليز ان يسمع الامير . لولانا ما بايعوك . هذه هي الطعنة التي دُبِّرت من اجلها ، بعلم المس بل ، تلك الزيارة ، فتلقاها الامير

بصدر رحب ، هادىء البال ، وادار بوجهه الى الصديقة الفاضلة وهو يبتسم ابتسامةً دقيقة المغزى ، ثم قال : «ان علاقتي مع الانكليز معروفة ولا احد يشك بها . وموقفي العربي هو كذلك معروف . انما يجب علينا ان نصلح شؤوننا نحن العرب ، ويجب علينا وحدنا ان نحسم كل ما بيننا من خلاف .»

ثم قالت المس بل : «وعندما نظر الامير الى النظرة الثانية ، رفعت يديه مضمومتين ، الواحدة على الاخرى ، رمزَ الاتحاد بين العرب والحكومة البريطانية . انه لمشهد رائع ، مشهد اثنين من كبار رجالات العرب [1] لعبا دوراً خطيراً في تاريخ زمانهما [2] وفيصل بينهما ، اشرف مثال حيٍ لشعبه [3] ونحن الانكليز حلقة الوصل ! »

ان العلم بما كان من شعور المس بل واسبابه في هذا الموقف ، وفي ما تقدم ولحق من حالها فيه ، ليصعب على طالب الحقيقة كلها . واذا تسهل فقد يحزن . سألت الملك فيصل رأيه في الحادث واطلعته على ما جاء في الرسالة التي لم يكن عالماً بها ، فقال : «احسنت المس بل في ما كتبت ، واساءت في ما فعلت ، رحمها الله .» وما زاد كلمة على هذا .

وسألت اديباً من ادباء انكلترة بعد ان قصصت الخبر عليه فقال : «لا عجب . ان ابتهاجها بكوننا نحن الانكليز حلقة الوصل بين الملك والقبائل انساها كل شيء آخر . ولا اظنها فكرت في تلك الساعة بالامير فيصل كرجلٍ يكرَم او يُهان ، بل كرمزٍ لمجد الانكليز لا غير .»

---

(١) كان الانكليز يدفعون لهذين الاثنين « من كبار رجالات العرب » مشاهرات مالية .

(٢) وكانا في تلك الساعة يمثلان الدور الذي توجبه عليهما المشاهرة

(٣) اليس هو اهلا اذن لان يبايعه شيخان مأجوران من مشايخ البدو دون أن يرضى الانكليز عنه ؟

فقلت لصديقي : « ينبغي ان نصحح الكلمة المأثورة اذن فنقول : حب وطنك كنفسك ، وحب نفسك كما يحب الانكليزي نفسه . »

فقال مبتسماً : « في ذلك شيء من الحقيقة ، ولكن مثلنا الاعلى اليوم هو غير مثل المس بل ، وقد كانت هي نفسها رمزاً لمجدٍ ذهب ، فاصبحنا ولا نهتز له كثيراً . »

وهو يعني مجد الامبراطورية والاستعمار ، رحمه الله — اذا صح التفاؤل — ورحم المس بل . فقد كانت ، على ما تزاحم في حياتها من الاضداد ، اولَ العاملين في سبيل فيصل ، المخلصين له في تلك الايام . ولا اظن ان احداً في دار الانتداب كان اشد منها سروراً بنجاح الاستفتاء ذلك النجاح الباهر . فقد حاز الامير ستة وتسعين صوتاً من كل مئة من اصوات الامة .

وجاء يوم التتويج ، وصدق المثل العربي في المستر تشرشل الذي له في كل عرس قرص . فقد استمر يقلب في فكره « ابناء الانكليزي ذا الوجه العربي » وهو حائر في امره ، فيقرر في الصباح صحته كاملاً ، وفي الاصيل صحة نصفه ، وفي المساء فساده باجمعه ، وفقاً لمهب الرياح حول الدولاب السياسي بلندن وجنيف . ولكنه ارسل في الساعة الاخيرة برقية مصعقة — هي الصاعقة بعينها — ولا يعلم غير الله ما كانت تحدث في الحفلة ، بل في العراق ، لو لم تسقط بموضع غير موصلٍ في دار الانتداب .

قال المستر تشرشل في برقيته : « من الواجب على فيصل ان يعترف في خطبة التتويج ان السلطة العليا في البلاد هي المفوضية البريطانية . »

أقيمت الحفلة في باحة السراي (في ٢٣ آب ١٩٢١) وكان فيصل في خطبته عراقياً وطنياً ، وعربياً قحاً . فما فاه بكلمة تشير حتى اشارةً الى

« السلطة العليا » او الى الانتداب . انما حصر كلامه بالمعاهدة التي ستعقد بين العراق وبريطانية العظمى ، وتعهد بان يرعاها ، فيدخلها في صلب الدستور الذي سيسنه المجلس الوطني .

فهتف الناس : ليحيي الملك فيصل ملك العراق ، وهمس ابليس في اذن الزمان : ليحيَ المستر تشرشل .

لقد انتهت الحرب ، وما انتهى القتال .

الفصل الثالث

الجو المكفهر

في صباح اليوم الاول من زيارتي الاولى لبغداد ، ساعة خرجت من القطار ، عراني شيء من الريب بحسن نية الشمس الشارقة . فقد كانت تبسم بسمة صفراء ، وتبص بصيصاً من خلال الغيوم البيضاء ، فتتوارى اشعتها النحيلة هنا وهناك ، بين النخيل وعند الاسوار ، كأنها حقاً بصاصة تتجسس لمندوب الكون الاعلى .

وما كنت الوحيد يومئذٍ في ما احسست به وتشاءمت . إلاّ اني رايت ما لا يراه ابناء المدينة — شمساً تخادع الافق العابس فتحتجب بنهاره ، كما تخادعهم في نهارهم . وهم قلما يتوقعون من هذه الشمس التي تنير العالم ان تنير كذلك قلوب الناس . لذلك رايتهم جميعاً ، العرب والانكليز ، من ساسة القهاوي الى الملك ، ومن الجنود السائقين السيارات المصفحة الى المندوب السامي ، في حال من الجزع والقنوط انخلعت لهما القلوب كما نحن نقول ، او بردت منها الارجل ، كما يقول الانكليز .

وكان ذلك في فجر السنة الثانية بعد التتويج . فقد ولت السنة الاولى باشهرها الاثني عشر ، وما تم شيء ، ما بوشر شيء في الملك الجديد حتى

من مقدمات الاعمال — . بل كانت الامور عكس ذلك شبيهةً بالعهد السابق للتتويج ، تنبيء بالتفكك ، وتنذر بالفوضى . وليس في المراكز الثلاثة للسيادة والحكم — لا في المفوضية ولا في البلاط ولا في السراي — من يحسن او يستطيع معالجتها . فقد كانوا جميعاً يشعرون بجمود الدم في الاطراف — ان الارجل الباردة لفي كل مكان .

بيد ان المدينة بغداد ملكت على ذلك نفسها ، مثل سائر العواصم في الازمات ، وظلت لها جرأة الاستمتاع بشيء من اللهو والسرور . فما خفتَ في القهاوي صوت الاراكيل ، ولا خف ازدحام الناس في ابواب دور السينما . وظلت العاب الـ « بريدج » والـ « بوكر » قائمة في المنتديات ، وكانت انوار المآدب تتألق زهواً وترحاباً حسب العادة في الفنادق ، كما في بيوت القناصل وكبار الموظفين . بل كان بعض اصحاب المناصب العالية يولمون الولائم ، ويقيمون الحفلات ، متعمدين فيها مكافحة روح الغم والقنوط ، تلك الروح التي سادت خصوصاً دوائر السياسة على ضفتي دجلة ، وكادت تشل الايدي العاملة فيها والعقول .

* * *

كان الملك فيصل اول القائمين بهذه الحملة التأديبية ، حملة المآدب ، على جيوش القنوط والجزع ، فادب مأدبة لعدد كبير من رجال الحكومة والمفوضية ، وغيرها من رجال المدينة ، وشاء ان اكون من المدعوين .

وكان بين الوطنيين ، وهم في الاثواب الافرنجية الرسمية ، رجل واحد عصي الامر المطبوع على رقعة الدعوي ، فجاء في ثوبٍ افرنجي عادي ، وهو فوق ذلك رمادي بريء من لمس المكواة . ومع ذلك فما نظر احد

منهم اليه نظرة احتقار او استعجاب . بل وقفوا حوله يستمعون اليه وهو يحدث عن غزوات الغرب لهذه البلاد العربية ، وعما تنوع من جور عادات الغربيين واحكامهم .

رحم الله مجيد الشاوي[1] ذلك العربي الحر الجريء الجامع بين محاسن البدو والحضر ، ذلك الفيلسوف الذي نثر الحكم وما كتبها . كان له رأس كرأس سقراط ، شكلاً ومعنى ، ولسان كلسان صموئيل جونسون ، سقراط الانكليز ، بفصاحته ولواذعه .

سمعت مجيداً تلك الليلة يقول : « وهذا الاستبداد الحديث العهد ، استبداد « الموضه » جاءنا كذلك من الغرب . اما نحن العرب فلا نضيع وقتنا ومالنا وتعقلنا في سبيل « الموضه » . فقد كان ولا يزال خلاصنا في بسيط عاداتنا ، وسذاجة طباعنا . انتم تبدأون حيث يمكنكم ان تنتهوا . اقول : يمكنكم — ولا اقول يجب او يجوز ان تنتهوا بهذه الرسميات ، هذه الترهات . »

فقال رستم بك حيدر : « ولكنك انت كذلك خاضع لسلطة « الموضه » في ثوبك الافرنجي هذا ، وقابل باستبدادها . »

فاجاب على الفور : « وانا ايضاً حمار . »

فضحك الجميع ضحكة المقتنع المستبشر ، وكانت منهم تلك الليلة الضحكة الاولى والاخيرة .

مشينا الى ردهة الاستقبال حيث كان الملك فيصل واقفاً يرحب بضيوفه . وهو في الخوذة والثوب العسكري غير مهيب . وقد استوقف نظري صليب على صدره معلق بسلسلة ذهبية ، هو وسام الملكة فكتوريا .

---

(١) توفي في المستشفى الاميركي ببيروت في خريف سنة ١٩٢٨ .

وكان الى جانب الملك اخوه الامير زيد في ثوب مـلازم اول وعلى صدره وسام النهضة ٠

وهوذا المندوب السامي السر برسي كوكس ، بطوله ونحوله وتمهّله ، يلبس ثوباً ابيض وقبعة بحرية ، وقـد توشح بوشاح القديسين ميخائيل وجرجس عليهما السلام ٠ ولكن الوان الوشاح ، وتحتها الابيض ، بدت باهرةً لاذعة ٠ ما سوى ذلك فكل ما في السر برسي كوكس الظاهر للعيان هو هادىء ساكن مطمئن ٠

وكذلك قل في القائد العام ، مع انه كان يحمل حملين ، الواحد على صدره من الاوسمة المتألقة حجارتها ، والآخر على عاتقه مما ترمز اليه الاوسمة من العز والعظمه ٠

رأيت القائد العام يحدث جعفر باشا العسكري ، فما عجبتني صورة الاثنين معاً ٠ كان الانكليزي الطويل القامة ينظر من علاه وهو يحنو رأسه ومنكبيه ، ليكلم العربي القصير السمين ، الحـامل كذلك بضعة اوسمة ٠ ولكنه لا يحمل حملها الانقل ، ذلك الحمل الرمزي المخيف ٠

وهوذا ياسين باشا الهاشمي ، ياسين الصامت ، بثوبه الرسمي واوسمته ، وهو صنو جعفر في ما ذكرت ٠ مساكين هؤلاء العرب ، فهم لا يعرفون قيمة الاوسمة ، فيحملونها على صدورهم خجلين ، كانها نقود مزيفة ٠

اما السيدات الانكليزيات فقـد كن في اثوابهن باهرات ٠ وما كان بينهن غير واحدة جميلة ، وواحدة تستلفت الانظار وتستوقفها ، دون شيء يبهر في ثوبها او طلعتها ٠ هي المس بل التي كانت تؤثر البساطة في الملابس ، والانزواء في الحفلات ٠ ولكنها في ما وجب مشت تتقدم اترابها — لا تصح اللفظة لان فيهن من هن اصغر منها سناً ٠ وهل يصح ان نقول مشت

تتقدم زميلاتها ، ومهنتها فريدة ، لا تحسنها غيرها من جميع النساء ، وقلما يباريها فيها الرجال ؟ فمن هي ، ومن هن اذن ؟ هي جرترود بل ، مشت في تلك الساعة تتقدم السيدات الانكليزيات لتسلم على الملك فيصل ، فجثت امامه وجثون بعدها كما يفعلن اذا ما مثلن بين يدي مليكهم في قصره . وكانت الجميلة منهن ترفل بثوب من الحرير الاخضر المزركش بشيء فضي اللون ... خير لي وللقارىء ان اقف ها هنا . وما شأني والفساتين ، وانا لا اعرف الفرق بين الـ « تفتا » والـ « كريب دى شين » ؟

ان اهم ما يسترعي النظر في هذا الجمع الباهر المتألق هو ان الانكليز والعراقيين ، الضيوف الاربعين ، تخالطوا وتلاطفوا بسهولة عجيبة ، لا اجتهاد فيها ولا تصنع ، لا تنازل من قبل الانكليز ، ولا تزلف من قبل العرب . هي الحقيقة البليغة التي استوقفتني تلك الليلة وادهشتني . كيف لا وقد تجلت فيها العقلية الجديدة التي بدأت تسود رجالات الشرق والغرب . فلا تفاضل ها هنا ، ولا شيء فيه تصاغر او تكابر . ولا يخفى عليك ان قاعدة الانكليز في الماضي هي ألا يخالطوا ابناء البلاد التي يحكمونها . ولا يخفى عليك ان العرب انفسهم لا يزالون في حاجة الى شيء كثير من القوى المعنوية ، ناهيك بالسياسية ، ليطمئنوا دون ما اجتهاد من كرامتهم الشخصية والقومية . ومع ذلك فقد ظهروا تلك الليلة في مظهر حسن من الاطمئنان والكرامة .

وكان الملك فيصل الذي جمع حوله الشرق والغرب متجاملين متلائمين ، المثل الاعلى لمحاسن الاثنين . على انه كان ممسكاً في كلماته واشاراته ، وما استطاع ان يخفي ما بدا على جبينه من اثر الجو المكفهر . اما انه ملك دمقراطي ، ومن اصدق ملوك هذا الزمان في روحه الدمقراطية

فيما لا ريب به . وما اجملها دمقراطية اذا ما زانها جلال طبيعي موروث ، وكالها النبل المتسلسل من سدة عالية طاهرة . وما كان فيصل يظهر انه مدرك ذلك ، ولا كان يحب ان يدركه الناس . وعندي ان قليلاً من هذا الادراك في الاثنين لا يضر . بل هو يمكن الثقة بالنفس ، فلا يقلق الملك ، ويمد بالعزة والامل ، فلا ييأس الناس .

اما في تلك الليلة فقد كان الملك كالباني الذي باشر البناء ، وهو غير متيقن ان الاساس صالح متين . فقرأنا في طلعته الناعمة سطرين خطها الغم والاضطراب . وقد كان عالماً كل العلم بمجاري السياسة ، الظاهرة والخفية ، ان كان على ضفة دجلة الغربية — الانكليزية — او على الضفة الشرقية — العراقية . فلا عجب اذا مرت منه تموجات نفذت الى قلوب الضيوف فبدا تأثيرها في وجوههم . وكانهم جميعاً عالمون بما لا يجب ان يظهر ، بما لا يجب ان يُذكر ، بما لا يجب ان يفكر احد به . فكانت الكآبة الملكة تلك الليلة ، وكان الملك اول من خضع لسلطانها .

يقال ان المآدب الملكية هي دائماً قاتمة جاهمة ، يخف بها السكوت ، ويسودها التحفظ . ولكني اؤكد لك ان المآدب الملكية العربية ليست كذلك . ومع ان هناك تقليداً يستوجب السكوت لدى الخوان ، فالعرب لا يفرضونه على الضيف ، ولا يتقيدون به . بل تراهم على عكس ذلك محدثين ، مشجعين على الحديث ، وهم فوق هذا يحبون النكتة ويحسنونها ، بل يحسبون المزاح ملح الطعام ، والضحك خير المقبلات .

والملك فيصل ، وهو من صميم العرب ، كان في الساعة الصافية مثل والده الحسين عذب الحديث ، مفكهاً ، محباً للفكاهة ، مقدراً لمن يجيدها . اما في مثل هذه الحال ، وهذا الجو المكفهر ، فصوت افصح المحدثين يخفت ،

وروح الزهو والمرح تجمد حتى في امثال ابي النواس ٠

وما كانت المائدة لتنعم بما حرمته ردهة الاستقبال ٠ نقلنا ، ونقل الجو معنا ٠ فجلست الى يمين الملك فيصل اللايدي كوكس والى يساره القائد العام ، وما كان الملك يحسن الانكليزية في تلك الايام لينجو بنفسه من عربية السيدة المكسرة ، وافرنسية الجنرال المتعثرة ٠ على ان المس بل ، التي كانت جالسة امامه الى يسار الامير زيد ، حاولت ان تخفف من مصيبته في ما كانت تتبرع به ، بلسانها العربي العراقي ، من قصة او حديث ٠ ولكنها ما افلحت في ما حاولت ٠

وكان السر برسي كوكس يراقبها ، فساءه ان عيّت فانبرى لنجدتها ، وجاء بما كان يضحك حقاً في غير تلك الساعة العاصية ٠ سأل السر برسي ، وهو يرفع بناظريه الى السقف ، سؤالاً في علم الحيوان ٠ ما هو اسم الـ badger باللغة العربية ؟ فجاب السؤال المائدة من شرقها الى غربها ، وما كان موفقاً ٠ ثم عاد الى صاحبه يعزّي جهله بالجهل العام [1] ٠

وفي تلك الدقيقة فرغ صبر الملك فيصل فتثاءب ٠ نعم ، تثاءب مرتين ٠ فقلت في نفسي ما احوج الملوك الى الندماء امثال ابي النواس ٠

وما احوجنا اليهم نحن الضيوف كذلك ٠ فقد كان حالنا يزيد ولا ريب بغم الملك ٠ وما كان هذا الملك وهو سيد بغداد الاكبر ، يملك خاتماً من خواتم السحر التي كانت تصنع ها هنا في عهد الجن ، فيفركه ويأمر عبده بان يحضر ابا النواس في الحال ٠ ولكنه امر بتلك التي كانت لابي نواس المعشوقة الاولى ٠ نعم ، امر بالخمرة اكراماً للانكليز ، وغض الطرف

---

(١) عدت بعدئذ الى الدميري رغبة بخدمة السر برسي ، فوجدت ان الغرير هو الاقرب الحيوانات الى ما يسمى بالانكليزية badger

عمن استسلموا اليها من العراقيين ·

وما كانت حتى الخمرة مفلحة · فلا البيضاء منهـا ولا الذهبية ، لا الهادئة في سحرها ولا المترقرقة ، استطاعت ان تحل العقال ، او تزيل شيئاً من سؤ الحال · فقد ظل الحديث بارداً جامداً يسير بحذر وبطء كمن يمشي في نومه ، وكلٌ يود ان يرسل فيه شيئاً من حرارة الحياة ، فيحاول ثم يحاول ، ثم يسكت ·

وهاك القائد العام ، وقد ولى وجهه عن الملك ، يحدث جارته الجميـلة في موضوع احدى الروايات التي ظهرت اخيراً في لندن · وقـد انجذب جعفر باشا الى الحديث ، فتركني انا الجالس امامه ، تركني وحدي لاحل مشكل السيدة الحزينة الى يساري ·

وما مشكلها ؟ ان حضرة الفاضـلة النجيبة لفي شوق محرق مهلك الى البيانو · وكيف تستطيع محبةُ الموسيقى ان تعيش خصوصاً في بغداد بدون بيانو ؟ انها تشتهي بيانو من الطراز الاول ، ولا تجد في هـذه المدينة ، المفتقرة الى الموسيقى ، بيانو واحداً للبيع او للاجرة ، حتى من الطراز العاشر · قلت : ولم لا تطلبينه من لنـدن ؟ فاجابت : لان اجرة الشحن تبلغ ضعفي ثمنه · ومما زاد في غمها ان راتب زوجها المستشار لا يمكن من ذلك · انه حقاً لامر محزن · فيمَ الاقامة بالزوراء ولا بيـانو فيها ، ولا صدى صوتٍ للموسيقى ·

ليت شعري بحديث المآدب الملكية ماذا يكون ، لولا الطقس والرواية الاخيرة والبيانو ؟ لولاها لتم فينا التقليد العربي ، فنتجرع ، بين الغُصة والغصة ، كؤوساً مترعة من الصمت المهيب ·

* * *

كنت مقيماً في تلك الايام بمحلة الشيخ ، في جوار مولانا عبد القادر الجيلاني قدس الله سره . وعلمت تلك الليلة ، بعد رجوعي من المأدبة الملكية ، ان البيت قريب من مقام قدمي آخر للولي عيدَروس الذي تعرفت به يوم كنت في عدن ، فشاء الله ان اقيم في ظله كذلك ببغداد .

انها لنعمة سابغة هذه التي تلحفك ، وانت نائم بين وليين كريمين . فأسلمت اليهما الروح المؤمنة حتى بحسن نيات من يأدبون المآدب ، فأعيدت الي صباحاً وهي لا ترى في ذا الوجود كله غير الفجر — الفجر الفضي ، الدّري ، الذهبي . وكأنها رأته لاول مرة في حياتها الدنيا فهتفت مهللة متغزلة .

ليت الحياة كلها فجراً ، وليت غيومها كلها بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية ، مثل هذه الغيوم الصغيرة الوديعة ، فوق قباب الجامع الجيلاني . وهي تبدو حيناً كقطيع من الغنم يلكأ في كنف الشمس متدفئاً ، وحيناً كامواج البحر المتكسرة على الشاطىء الضاحك بين الصخور القائمة . وما هي الا لحظة فيستحيل القطيع مرجاً زهت الوانه ، والامواج بحراً ساجياً طفا دره ومرجانه . وهاك الشمس بجيشها غازية فاتحة ، بتهدم صروح الخيال ، وترفع فوق معاقل الآمال اعلام النهار الجديد ، وقد باركها الوليان ، عبد القادر وعيدروس . فما خوفك وما همك بعد هذا ؟ .

ان خوفي وهمي لفي ما جاءني ذاك الصباح — دعوة لمأدبة اخرى . ولكنها هذه المرة في النادي العراقي .

وكان النادي او مكاننا منه متألقاً زاهراً ، كانه شُق من فجر ذاك النهار . فقد مُدت المائدة عند حاشية بستان من الورد والرياحين ، تحت مظلات النخيل ، في باحة على ضفة دجلة ، أُنيرت بالكهرباء

وازدانت بالمصابيح الملونة ٠

وكان المضيف الكريم ، الخفيف الروح في عرضه وقصره ، رؤوف جادرجي يرحب بالضيوف مبتسماً ابتسامة هي ضياء الحب بعينه ٠ وقد سلم الآخرون علينا سلاماً بابتسام ، باعذب كلام ٠ وبعد ذلك — بعد السلام والابتسام والكلام — والى ان وقفنا للوداع ، خيم الجو المشوم ، وساد روح الهموم ٠

واين روح البستان مطاردةً مبددة ، واين للمشهد الجميل يدٌ تعين ؟ — هذه وردة لقلبك ايها الفاضل ، ولكن العين ما رأت اغصان الورد المنورة ٠ — هذه نسمة من هواء المساء العليل ، هواء دجلة ، تنعش جناح روحك ، يا صاحب المعالي ، ولكن دجلة لم يكن في الوجود ٠ فقد كان بيننا وبين البستان حجاب اسود كثيف ، وقد كان بيننا وبين دجلة جدار قائم قاتم من الهواجس والقلق ٠

اني لاذكر اولئك الافاضل جميعاً ، واكثرهم اليوم في حال تضحكهم ، اذا ما عادت الذكرى ، من تلك الاحوال ٠ كيف لا ومضيفنا رؤوف بك الذي كان يومئذ متشرعاً بلا شراع ، تتقاذفه رياح السياسة وتتجاذبه رياح القانون ، هو اليوم ذو مركبةٍ مقطورة الى كوكبٍ من كواكب النور والذهب ، اي شركة النفط العراقية ٠

وهذا رستم حيدر الكاتب الاول يومئذ في البلاط ، الحامل اعبائه ، العامل ليل نهار في وصل الخيوط المتقطعة بينه وبين المفوضية ، الذائق مرّ ساعاتٍ ولا أمرّ منها كانت تنذر بالخراب ، قد صار بعدئذ وزيراً ثم عيناً في مجلس الاعيان ٠

ومن ضيوف تلك المادبة ذلك الاسرائيلي الجامع بين الادب والنسب

ساسون حزقيل ، الذي كان يدير مالية العراق بما لا يرضي غير المفوضية وبعض البيوت التجارية ، فقد اعتزل بعد ذلك السياسة ، وساح في الارض ينشد الصحة ورحمة الله ، فلقيهما معاً بعد عشر سنوات في باريس [1] .

وياسين الهاشمي الرجل القاتم الغير الكاتم ، العنيف الصريح ، الذي كان يومئذ خارج الحظيرة ، يدهش حتى المس بل بتصرفه ، ويروعها بتطرفه ، فقد صعد بعدئذ في الجبل فادرك القمة منه ، وتنقل في الوزارة حتى صار رئيسها ، وهو اليوم رئيس المعارضة في البلاد .

اما نجري آل جميل فما كان في ذاك الحين ولا بعده جاحداً نعمة ربه ، او مضناً على الوطن بحبه . فقد كان يومئذ وطنياً من اصحاب الاملاك الواسعة ، وهو اليوم من اصحاب الاملاك الواسعة ، ومن الاعيان في المجلس .

واني لاذكر الفيفين الاخرين من العراقيين ، ناجي شوكت وحكمت سليمان ، ناجي النجيب ، وحكمت الحكيم . ولكن في الاسمين تاء تركية لا تخفى على الالبيب . وفي الاثنين من العطف القومي ما لا يستغرب ، ومما كان في تلك الايام دون الريب . وقد كانا مع ذلك من الموظفين في الحكومة العراقية التي لم تكن والاتراك على ولاء . فلا عجب اذا اسدلا على نفسيهما في تلك المأدبة ستاراً من الصمت الواجم - ولكن ناجي النجيب ، الذي كان يومئذ متصرف الكوت ، صعد بعدئذ مثل ياسين في جبل السياسة ، وبعد ان جرب الوزارة حن الى الرئاسة ، وظفر بها . واما الثاني فلعله لبطئه في التصعيد اختار المحافظة على اسمه صورةً ومعنى — حكمة سليمان — وانضم الى حزب المعارضة في الامة .

---

(١) توفي هناك في ايلول ١٩٣٢

وممن اذكرهم من الضيوف الانكليز المستر دراور [1] الطويل الباع ، في علمي القانون والصراع . اقول الصراع ، لان مهنته في تلك الايام كانت نوعاً من الصراع القانوني . كيف لا وقد كاد يُسحق بين حجرَيْ الرحى ، اي الاخوين السويديين — ناجي الكشاف ، وتوفيق النسّاف . فقد كان المستر دراور مرةً رئيساً ومرةً مستشاراً للواحد منهما وللثاني . وكان يرجو الله على الدوام ان يخرج من الصراع وقد سلم على الاقل كرسيه في العدلية . ومن عجائب الدهر ان يسلم هو كذلك في مصارعة الاخوين السويديين . فلا يزال المستر دراور بخير ونعمة ، صاحب كرسيٍ وصاحب صوتٍ في البرج العالي للعدلية العراقية .

وللمستر دراور زوجة اديبة كاتبة ، كانت تنشد في الاماكن القصية ، وبين الاديان الاثرية ، مصادر العلم والوحي . وانها في فلسفتها السياسية دولية انسانية ، لا يعارض بها المستر دراور ما زالت خارج القانون . اما شغفها الخاص فكان ينحصر في تلك الايام بالصابئة واليزيديين ، وبالتغلغل في علومهم الغامضة ، اذا كان ثمة شيء من العلم . ان السيدة دراور لفي ريب من ذلك . ومع ذلك فقد كتبت كتابها ، ونشرته باسمٍ مستعار ، لتظل هي وزوجها الفاضل وبيتهما الخالد ، على ما اظن ، ببغداد بعيدين من تعطفات اصدقائها عبدة الشيطان وطلباتهم .

ولا يغيب عن الذهن ذلك المستشار ، الغريب الاطوار ، القريب من قلوب الاحرار والابرار ، الذي استسلم بعد ذاك الزمان ، الى الشيطان . ما اعتنق المستر كوك [2] الاسكتلندي دين المجوس ، ولا خرّ ساجداً

---

(١) E. M. Drower

(٢) R. H. Cook

للملك طاووس[1] . ولكن للنفس زلاّت ، هي شر من عتيق الديانات .
فبعد ان خدم المستر كوك الحكومة العراقية اربع او خمس سنوات ، وهو
يدير شؤون الاوقاف ، ويستخرج المال حتى من تجارة الخانات وظلماتها ،
وبعد ان ملك قلب المؤمنين الصافي ، فدعوه تحبباً : الحاج كوك الدين
الاوقافي ، ومدحه كذلك معروف الرصافي ، بعد هذه المبرات والامجاد في
عهده العراقي ، خرج من بغداد خروج المذنب الشقي . بيد ان امره لا
يزال على شيء من الغموض . فقد قيل لي انه نقم على الحكومة لاخلالها
بالعقد الذي يتعلق بوظيفته ، وبدل ان يطالبها بما تبقى له من مال ، جمع
الخفيف الثمين من الاثار ، وحملها وطار ، الى ما وراء البحار — الى بيته
في الجزائر البريطانية . على ان حق التملك لما جمع ، وان كان بالطرق
المشروعة المحللة ، هو من المسائل القانونية العويصة ، وليس لي علم المستر
دراور ، ولا لدي ما يكفي من البينات ، لابدي رأياً فيه .

اني من الذين احبوا كوك الدين ، واعجبوا به وبمواهبه . ولا ازال
اذكر ، وفي القلب للحب منزع ، تلك الساعات التي قضيناها معاً ، وتلك
الرحلات الى الاماكن القديمة التي كان هو فيها الرفيق الكريم ، والدليل
العليم . اما ان يخرج من بغداد في ليلةٍ غاب قمرها ، وتوارت في الظلام
نجومها ، فيحرم صحبه سرور الوداع ، على الاقل ، فذلك لا يليق برجلٍ
مثله ، وهو شرقيٌ ، شرقيٌ اصلا ، وليس اسماً وفصلاً . فقد اخبرنا تلك
الليلة ان كاليدونية[2] مشتقة من الكلدان ، وان الاسكتلنديين هم من

---

(١) الملك طاووس عند اليزيديين هو كبير الملائكة الذي عصا الله . فهو في نظر المسيحيين شيطان ، وفي نظرهم سيد الجنان .

(٢) Caledonia اسم اسكتلندة القديم .

بين النهرين ، ومتحدرون من حمورابي ٠

ايه كوك الدين ، سليل عظام الكلدان ، ونُكتة المستشارين في هذا الزمان ٠ فمهما يكن من شذوذك ، في سِفر خروجك ، ومن عثارك ، في خفاء آثارك ، فقد كنت في حبك للعرب ، من العرب ، وكنت في غيرتك على الاوقاف ، من الاشراف ٠ وانهم جميعاً لمحزونون ، لانك لم تشعرهم بيوم او بليل السفر ، ليقوموا بواجب توديعك ، وتشييعك ، وشكر صنيعك ٠واني واثق ، وهم الموصوفون بالكرم ، انهم لا يرضون بما حملت ٠ ولكانوا اهدوك ، لو ادر كوك ، ما هو اثمن من تحف أُور ، وبابل وآشور ، ولكان الشعراء من المؤدعين ، وهم يذرفون الدمع السخين ، وينظمون القوافي ، بمديح كوك الدين الاوقافي ٠

* * *

فكرت ، بعد ان عدت الى البيت تلك الليلة ، بنظرية كوك الدين الكلدانية الاسكتلندية ، واستعرضت في ذهني غير اسم من الاسماء التي تغري الباحث وتتقاضى يقينه الجزية ٠ وهاك بعضها من البلادين : الكلدان — كاليدونيه ٠ آشور — آرشير[1] ٠ حمورابي — هورنبي[2] ٠ مردوخ — ماردوك[3] ٠ كارا كوش — مَكْرِيغور[4] ٠ ويمكنك بعد البحث والتنقيب ان تزيد عليها ٠ قد تقول انها ، وان كانت تدهش ، لا تفيد ٠ وقد اقول ، بل اقول انك على خطأٍ مبين ٠

اي ورب حمورابي ٠ اي واجنحة رب آشور ٠ ان للنطفة جناحاً ،

---

(١) Ayrshire بلدة في اسكتلنده (٢ — ٣ — ٤) Hornby — Marduk — Mac Gregor اسماء علم اسكتلندية

وللرياح يداً ، وللالهة كلة خالدة . سماعِ ، سماع . ان المؤذن في مـأذنة عبد القادر يدعو المؤمنين للصلاة . فلو كان بامكانه ان ينشر السنين المطوية ، ويستطلع خبرها الغير التاريخي ، ولو كانت له عين ترى الاجنحة الطائرة ، والايدي الزارعة ، التي تستحيل بعد عملها تراباً ، ولو كانت له اذن تسمع صدى الكلمات الخالدة ، لكان يدعو للصلاة غير المؤمنين كذلك ، وغير المقيمين ببغداد ، في محلة الشيخ . ولو كان له مقدار ذرة من الايمان الاعلى ، لنزل من مـأذنته ، وأذّن في سره ، في مخدعه ، فيسمعه الذي بيده امر هذا المخلوق ابن آدم ، ويحمل الاذان الى اربعة اقطار العالم .

ايه ، ايها المؤذن التقي . قل : حيوا على الفلاح ، حيوا على الصلاة : حيثما انتم ، في محلة الشيخ ببغداد ، او في محلات البؤس والنعيم بلندن وباريس . فاننا جميعاً ، يا ابن عمي ، من نطفة واحدة . واننا جميعاً مفتقرون الى ربٍ يرأف بحالنا ، والى نبيٍ في هذه الايام يدلنا على الطريق — يهدينا الصراط المستقيم — ويبعث فينا ما ضاع من الرجاء ، وما مات من الحب والايمان .

عفوك ، ايها القارىء العزيز ، اذا ما وقفت هنيهـة في الفجر لأنسى الجو المكفهر في النهار وفي الليل . عفوك ، اذا ما لذت بالحقائق الخالدة لاستريح ولو هنيهة من الحقائق الزائلة في السياسة وفي الحياة ، ومن مآدب اليأس والغم . حيوا على الفلاح ، حيثما انتم . حيوا على الصلاة . . .

***

وهذه دعوة اخرى للأدبة في الفلاة . بل هي نزهة مع جلالة الملك في ضواحي بعقوبة ، على شواطىء ديالا ، في البساتين الجميلة لفخري بك

آل جميل . ولكنها لا تختلف كثيراً عن سواها في العراق .

هي بساتين شرقية بتبسطها واكتظاظها ، بغياضها وادغالها ، بخصبها وعقمها ، بزواياها المهملة ، وخباياها المدهشة ، بمياهها الراكدة والفائضة ، وبما يسود كل ذلك من الفوضى . فانك لترى عرائش العنب مثلاً واشجار التوت والرمان بعضها في حضن بعض ، ملتفةً متعانقةً ، خانقة بعضها لبعض ، ومع ذلك مثمرة . وانك لترى الكثير من الاشجار المتكاثفة ، التي يفتقر قلبها الى نور الشمس ، ولا تمسها يد التشذيب لا باطناً ولا خارجاً ، وهي تستمر مع ذلك في الازدهار والاثمار . ليت شعري بما عسى ان يكون خصب هذه الاشجار ، وانتاج هذه البساتين ، لو ساد فيها النظام بدل الفوضى ، ولو كان النظام مقروناً بالاعتناء الدائم ، وبعلم الزراعة الحديث .

ومع كل ما هناك من دلائل الجهل والاهمال ، فقد كان روح البستان حياً زاهراً منعشاً مطرباً ، منعشاً بطيب رياحينه ، مبهجاً بزهو زهوره ، مطرباً بتغريد الاطيار ، مدهشاً بجود ثماره المتعددة الانواع والالوان . ولكن جوّنا المكفهر ، جوّ بغداد ، جوّ السياسة ، كان لنا الرفيق الدائم ، والظل الملازم ، حتى في البساتين .

مشينا على الطنافس المفروشة الى السرادق الملكي بين اشجار الليمون والرمان ، وكلنا يشعر بثقل ذاك الظل ، وحرارة ذلك الجو . كانت الاجساد في البستان ، وكانت القلوب بعيدة منه ، بعيدة من اطياره وازهاره ، ورياحينه وثماره .

وكان قلب الملك فيصل ابعد هذه القلوب كلها . لله من غم يأبى الحصر في القصور ، فيرافق صاحبه الى البساتين . لله من غم يجلس فوق العرش ،

ويلصق بصاحب العرش حيثما حل ورحل . لله من غم يستبد حتى بالانكليز وقد يكون له من الانكليز ما يمده ويقويه . اظن ان المس بل كانت تدرك ذلك فتحاول بما لها من لطف وبيان ان تخفف وطأته ، او تبدد في الاقل ظلاله من حول الملك . وهل تطردها من قلبه بعنقود من العنب او بغصن مثقل بالرمان ؟

كاني الآن اراها ، رحمها الله ، تجثو امام فيصل وباحدى يديها عنقودان كبيران مبهجان من العنب الذهبي والارجواني ، وبيدها الاخرى غصن صغير من الرمان تزينه ست رمانات كبيرة مدهشة . فيشكرها الملك باسماً ، وفي البسمة كما في كلمة الشكر ما يشير الى شيء مفقود .

وكأني الآن اراه ، رحمه الله ، والسبحة بين انامله ، وهو لا يدرك انها لا تلتئم وثوبه العسكري ، والسيكارة في فمه ، يدخن الواحدة تلو الاخرى ، ويحاول في بعض الاحيان ان يستعيد بشر محياه ، ويستنهض أنس نفسه ، فيسأل سؤالاً عن بعض الشؤون الخاصة ، او يستخبر عن صديق له غائب ، او يفتح الباب لحديث طريف ولا يشارك بعدئذ به ، فينهض عن الديوان ، ويتركنا ، والباب مفتوح ، ساكتين واجمين . هي السياسة وهموم العرش الجديد . ومن اهمها في تلك الايام ماجاء من الشمال . فقد كان لانتصارات مصطفى كمال وقعاً في العراق ما سره ، ولا سر الحكومة . وكان بعض الموظفين في الموصل يفاوضون الترك في الاناضول .

وهؤلاء الانكليز يلزمونه كالظل ، ويزيدون بما هو فيه . رأيت احدهم جالساً في حضرته ذاك اليوم جلسة لا اظنه يجلسها الا في بيته اذا كان وحده ، فيمد رجليه ولا يبالي . وكان فوق ذلك لابساً قبعته وهو في ثوب مدني . فهل يجلس هذه الجلسة في حضرة الملك جورج يا ترى ؟

ومن يدرك اكثر من الانكليز الحقيقة ان الملك ملك ، اياً كان واينما كان ٠

لم يكن الصلف ولا العنف من طباع الملك فيصل ٠ ولكنه كان دقيقاً وكيساً في حفظ حرمته ، وفي فرض مشيئته ٠ ولا اظن ان ذلك الانكليزي ادرك انه في اكرامه له كان يحاول تأديبه ٠ فقد قدم له سيكارة ، فاضطر ان يقف ليأخذها ، ثم عاد الى كرسيه ، فجلس جلسة لائقة ، ولكنه لم ينزع القبعة عن رأسه ٠ فاستمر الملك في التأديب ، قائلاً وهو يرفع الخوذة عن رأسه : « الحر شديد ٠ » فردد الانكليزي : « الحر شديد ٠ » وما كان بعد ذلك حالَ دون كل الامثولة ٠ فقد جاء في تلك الدقيقة فخري بك يقول للملك : الطعام حاضر ٠ فنهضنا بعده نلبي الدعوة ، ومشى الانكليزي وقبعته بيده ٠

مُدت المائدة في ظلال النخيل ضمن ساحة رحبة ، تحيط بها شجيرات من الليمون والرمان ، وبينها شتى الازهار والرياحين ٠ وكانت الالوان كثيرة دون اكثار ، شرقية الروح ، اوروبية الذوق ٠ والخدم بلباسهم الابيض يظهرون من خلال عرائش الورد والياسمين ، حاملين اطباقاً تتقدمها روائحها الطيبة ٠

ما كان في طاقتي ، ولا احببت ، ان اتخيل مطبخاً بين الليمون والرمان وراء عرائش الورد والياسمين ٠ وما سرني اني في مأدبة ملكية في بستان فخري آل جميل بالمُوَيْدِر على ضفة نهر ديالا ، بقدر ما سرني الخيال الذي تخيلته في تلك الساعة ٠ فما كنت وربك في ذلك البستان ، مع ملك من ملوك هذا الزمان ، ورهط من الامراء والاعيان ٠ بل كنت مع حسن البصري ، بطل الرواية في كتابنا العربي الخالد ، كتاب الف ليلة وليلة ٠

نعم ، كنت مع حسن في روضة مسحورة ، جالسين الى خوان مسحور ،

يخدمنا عبيد الخاتم العجيب ، وهم يحملون الينا ، من بين عرائش الورد واشجار الرمان ، اطيب المآكل وافخرها . وما تخيلت هذا الخيال ، ورحت سابحاً فيه ، الا لانجو من الحقيقة البشرية في تلك الساعة ، ومن جوها المكفهر . وعندما عدنا الى المدينة ما كنت في السيارة مع وزير من وزراء الدولة . لا وربك ، بل كنت راكباً واخي حسن البصري بين جناحي ذلك المارد الكريم ، الذي طار بنا ، راجعاً من وادي الكافور في بلاد الصين ، الى مدينة بغداد .

الفصل الرابع

الازمة الاولى

في فجر السنة الثانية من عهد فيصل كان العراق يتمخض بالفتنـة . وبكلمة لا مجاز فيها كانت احوال العراق السياسية تنذر بثورة ثانية ، لا على الانكليز وحدهم هذه المرة ، بل عليهم وعلى الحكومة الموالية لهم . وقد عصفت العواصف بادىء بدء في ثلاثة اماكن مركزية ، فاشتعلت النار في بغداد ، وتطايرت الحمم من بركان النجف ، وتحفزت العشائر للوثوب في قلب وادي الفرات .

وما تعددت في الاحزاب الاغراض والنزعات . بل كان صوت الوطنيين ، على اختلاف رناته وصيحاته ، واحداً في مطالبه ، واحداً في احتجاجه ، واحداً في يقينه . فكنت تسمع وترى كل من يحسن الخطابة او الكتابة مطالباً بحكومة نيابية ، وبملك مستقل كل الاستقلال ، وحاملاً على الانتداب والمنتدبين .

وقد اختلفت هذه الحملة عن الثورة في صيف عام ١٩٢٠ بأمرين ؛ بشيء من النظام ، وبكل شيء من العناد المعتاد . توحدت فيها المطالب ، كما قلت ، فكان لها ثلاثة اهداف ، اي الوزارة والمفوضية والبلاط الملكي .

وتجانست فيها الاسلحة ، فكانت كلها بانواعها الثلاثة ، من مصانع اللغة :- المدافع الرشاشة (الخطب والمقالات) والطيارات المدمرة (القصائد) والمدافع الصحراوية (فتاوي المجتهدين) . ومن عجائب الامور ان يتوهم الخصوم انها كلها من مصانع « كروب » .

وكانت في البداية تُبشر بالنصر . فقد صوب المجاهدون مدافعهم الرشاشة على الوزارة فاسقطوها ، وحلقوا بطياراتهم فوق المفوضية ، فازعجوا اهلها وروعوهم بالقذائف (القوافي) النارية . واطلق المجتهدون مدفعاً من مدافعهم الصحراوية فانفجرت بعض قنابله في جوار البلاط الملكي . وما كان للبلاط ، ولا للحكومة ، ولا للمفوضية ، من القوات البرية او الجوية في تلك الايام ما يكفي لِمَحْق فتنة صغيرة ناهيك بالكبيرة . ولا كان بامكانهم ، او انه ما خطر في بالهم ، ان يجردوا على الوطنيين نفس السلاح الذي تسلحوا به .

بلغت هذه الحملة اشدها في عيد الجلوس الاول ، يوم كان الملك يشكو الماً واحداً من آلامه المتعددة ، الماً جسدياً من التهاب في الزائدة المعوية . وكان العراق يعدد ، بلسان خطبائه وشعرائه ، آلامه كلها ، وفي رأسها الزائدة كذلك ، تلك الزائدة التي تدعى الانتداب . وقد اشار الاطباء على الملك بعملية جراحية في الحال ، فشاء ان تؤجل الى اليوم التالي . ولكن الوطنيين لم يؤجلوا عمليتهم ، بل كانوا قد باشروها واغتنموا فرصة العيد لاعلان امرها ، فراحوا يجتمعون ويخطبون ، ويصدرون المناشير .

وها كهم في النجف وهم في تحليقهم الشعري الوطني ابعد واسد منهم في مسالكهم السياسية . ولقد كبروا الخيال وعظموه ، شكلاً والواناً ،

فتلفتوا الى الماضي متلهفين متحسرين ، وصاحوا بالحاضر مستعيذين منه بالله ، ونظروا الى المستقبل نظرة المدنف الحزين — كنا منذ سنة نتظلل ظلال الذكريات المجيدة ، ذكريات الرشيد والمأمون ، ونتلمس الحقيقة في تجديد ذلك العهد العربي السعيد ، ونحن اليوم نتحرق في بوادي الخيبة والهوان . كنا منذ سنة في فجر الامال الذهبية ، ونحن اليوم في ليل دامس من البلايا الانتدابية والاستعمارية . ولكن للامة صوتاً قدسياً سرمدياً ، يصيح اليوم وغداً ، ويستمر صائحاً حتى تصير صيحاته سيوفاً وقنابل على المنتدبين واشياعهم اجمعين ، بريطانيين وعراقيين . الله اكبر ، الله اكبر !

وها كهم في بغداد وهم في وطنيتهم وفي منطقهم ابلغ وأسدُّ منهم في الاسجاع والقوافي . فقد كان لصوت الوطنيين المعتدلين والمتطرفين رنةٌ ومعنى ومغزى بدت جميعها جلية صافية فوق الشقشقات الخطابية . — وعدتم البلاد في حفلة التتويج بحكومة نيابية دستورية ، وها قد مرت السنة بكاملها والحكومة لا تُعرف أدستورية هي ام انتدابية ام ملكية مطلقة . ان البلاد تشكو السياسة البريطانية المسترشدة بمبدأ « فرق تسد » الهادمة لامالنا القومية والوطنية كلها . ان البلاد مهددة بالانتداب ، والانتداب خطر على الحرية والاستقلال . . . لقد اسقطنا الوزارة التي عينها البريطانيون ، وجئنا نطلب وزارة وطنية صادقة يعينها مليك البلاد . . . اننا نؤيد العرش ، ونرفض الانتداب ، ونطلب ان تحدد السلطة البريطانية في الدوائر الادارية كلها ، وان يُعقد المجلس الوطني ، وأن لا تعقد معاهدة بين العراق والحكومة البريطانية قبل ان يتم ذلك كله .

صبر الملك فيصل على آلامه يوم العيد ، عيد الجلوس الاول ، واستقبل المهنئين من رجال الحكومة والامة . وقد جاء صباح ذلك اليوم

وفد يمثل الحزبين الوطنيين ليسمع الملك شكوى العراق ومطالبه · مشى الوفد في شبه مظاهرة وطنية ، فانضم اليه جماعات من الناس ، فوصل الى القصر حشداً كبيراً متحمساً هائجاً · وهناك في فناء القصر وقف الخطيب ينادي الملك فيصلاً ويسأله مقابلة الوفد ، وفد الحزبين اللذين يمثلان الامة ، ليبثه شكواها ، ويسمعه احتجاجها ، ويذكره بمطالبها ·

وكان الملك وقتئذ يستقبل المهنئين ، فبعث برئيس الامناء ليقابل الوفد ، ويجيب الخطيب بكلمة شكر واطمئنان تناسب المقام · فجاء الرئيس يقوم بهذا الواجب · ولكنه ، وهو يسمع ويرى ، ذهل عن نفسه الرسمية ، فنفذت اليه من كلمات الخطيب شرارة اشعلت فيها الحمية والحماس ، فراح في جوابه يجاريه في مضمار السياسة الوطنية · فهتف له الجمهور اضعاف هتافهم لخطيب الوفد · وبين هو يخطب تلك الخطبة التي «تناسب المقام» وصل المفوض السامي السر برسي كوكس ، وقد جاء يهنيء الملك · وكان من واجب رئيس الامناء ان يستقبل العميد ، فختم خطبته بكلمة من نار ، فصاح اذ ذاك الناس قائلين : ليسقط الانتداب ! ليسقط البريطانيون !

وهكذا ، بعون رئيس الامناء ، تمت المظاهرة وكانت مفلحة · ولكنها ما اثرت ظاهراً بالسر برسي ، الذي مشى الى غرضه على عادته جامد الجبين ، هادىء البال · وبعد ان اتم واجبه السياسي في تهنئة الملك ، وعاد الى مقره ، كتب اليه يعلمه بالحقيقة المؤلمة · فمها قيل في اجتماع عام ، وبشعب متهيج ، لتخفيض الذنب ، فلا يصح ان يقال ان المظاهرة هي غير رسمية ، وقد حدثت في فناء القصر ، وكان رئيس الامناء احد الخطباء · هذا هو الحادث الذي زاد يومئذ بآلام فيصل الروحية

والجسدية . فكتب الى العميد يفصح عن اسفه الشديد ، ثم أقال رئيس الامناء من وظيفته .

وما انتهى مع ذلك الحادث المشؤوم . فقد كان المفوض السامي يفكر يومئذ بخطةٍ سياسية فاصلة ، ويتردد في تنفيذها ، بالرغم عما تعدد من الاسباب التي حسبها كافية لتبررها بل لتوجبها . فجاء هذا الحادث يقره في رأيه ، يستفزه ، يشحذ منه العزيمة . وقد جاء على ذكر تلك الخطة واسبابها في مقدمةٍ كتبها لكتاب المس بل ، وفي تقريره الرسمي للحكومة البريطانية . وفي الاثنين يقول ان الحالة كانت تنذر بثورة ثانية ، وقد عدد من الاسباب استعفاء الوزارة ، والاضطرابات في ولاية بغداد ، والهياج المستمر في العشائر ، ومرض الملك فيصل الذي حال دون التعاون ، ثم قال : « لم يكن في البلاد من سلطة غير سلطة المندوب السامي التي وجب علي استخدامها حتماً على الاطلاق . »

ولكنه وقد ذكر مرض الملك ، لم يذكر انه حاول ان يشرك جلالته في العمل ، ليحفظ في الاقل صورته القانونية ، فاخفق وكان مدحورا . وقد حدث الحادث المؤلم بعد المظاهرة في فناء القصر ، وقبل تنفيذ الخطة الحاسمة ، فمثَّل السر برسي كوكس فيه دوراً مشيناً شبيهاً بدور البطل الشرير في الروايات . مثَّل الدور وسكت . وسكتت كذلك المس بل التي كانت عالمة به . يا للعجب كيف ان المس بل التي كانت تضمن رسائلها كل ما يحدث في بغداد في حومة السياسة وخارجها من صغير الامور وكبيرها ، نست هذا الحادث المؤلم او تناسته ، فما اشارت حتى اشارة اليه .

وكان السر برسي عالماً بحالة الملك الصحية ، وعالماً هو والمس بل

بالعملية الجراحيه وبموعدها في اليوم التالي • وهو والمس بل من ذوي الشعور الراقي اذا لم نقل كذلك الرقيق • فضلا عن ذلك ان الرجل الكريم لا يحرج امرءًا في يوم محنته ، بل في اشد ساعات المحنة عليه • أو يخلو الرضى ، في مثل هذه الحال ، من الكره والانكار ؟ فاذا سلّم المكرَه بامرٍ ما او رضي بعمل ما ، أيعَد ذلك لخصمه فوزاً سياسياً ؟ وهل هو شرعاً من العدل بشيء ؟ وهب انه في الحالين فوزاً وعدلاً ، فهل ننكر او نتجاهل انه ادبياً في الاقل مخجل مشين ؟

قال المندوب السامي انه لم يكن في البلاد يومئذ غير سلطة واحدة هي سلطته ، فلم لم يستخدمها منفرداً دون ان يزيد بالم ملكٍ مريض ، ودون ان يعرض بنفسه للاهانة ؟ فقد قُدر ، على ما يظهر ، ان تُشفع المظاهرة الوطنية بالتوبيخ الملكي • وكان التوبيخ ، وكان ان عمل السربرسي بالكلمة العربية : الكريم من ستر اهانته • فما ذكر الحادث في ما كتب ، لا في التقرير ، ولا في كتاب المس بل •

وما الداعي لذكره الان ؟ ليس الامر محض شخصي ليُغضى عنه ، فهو يتعلق بالملك فيصل وبعدد من زعماء الامة وصحافييها • اذن هو وطني عمومي • زد على ذلك ان فيه مأثرة من مآثر فيصل التي يجب ان يعرفها خصوصاً العراقيون •

ويجب ان يعرفها الانكليز • فالامة صاحبة الانتداب تجهل غالباً ما يعمله باسمها كبار رجالها السياسيين • وعندي ان علمها بذلك كله وبالسيء منه قبل الحسن ، بما فيه تُذَل وبما فيه تُعَز ، هو مفيد لها وللامة المنتدبة عليها • واين العدل يا ترى واين الوطنية (اني هـا هنا ناظر الى المسئلة من الناحية البريطانية) في سكوت المندوب السامي عما ليس فيه ،

من اعماله ، مأثرة او محمدة ؟

قد اطلت الشرح ، فهاكم الحادث . في صباح اليوم الثاني ، بعد عيد الجلوس ، عندما كان الملك فيصل محاطاً بالاطباء والممرضات ، وقد اعدوا السكاكين والادوات للعملية الجراحية ، وصل المندوب السامي السر برسي كوكس ، فسلم واخرج من جيبه أمراً قدمه للملك ليوقعه . هو امر باعتقال سبعة من الزعماء الوطنيين ونفيهم من العراق ، قرأه الملك مكموداً وهز برأسه . فافصح السر برسي عما يبرر العمل بل يوجبه ، فما اجاب الملك بكلمة . ولكن احد الاطباء الانكليز تقدم منه وخاطبه قائلا :

« ليس هذا الوقت ، يا حضرة المندوب ، لمثل هذه المسائل . »

السر برسي : « المسألة ضرورية لحفظ الامن . ان البلاد في خطر . »

الطبيب : « اجلها الى ان تتم العملية ، وهي الزم لصحة جلالة الملك وحياته ، فيجب ان نباشرها حالاً . »

الملك ، والامر بيده ، يخاطب السر برسي : « بعد دقائق قليلة اكون بين ايدي هؤلاء الاطباء ، وقد لا اعود من غيبوبتي الى الحياة . فهل تطلب مني ، يا سر برسي ، ان يكون هذا الامر آخر اعمالي في الدنيا ؟ هل تنتظر مني ان انفي هؤلاء الناس ، اهل البلاد ، من بلادهم قبل موتي ؟ لا والله . انه غير ممكن ، غير ممكن . »

قال هذا ودفع الامر الى المفوض السامي فوضعه في جيبه ، وخرج من القاعة دون ان يفوه بكلمة واحدة .

ولكنه مضى في عمله منفرداً ، اذ نفّذ الامر في اليوم التالي باسم المندوب السامي للحكومة البريطانية ، فنفى الزعماء السبعة الى جزيرة هنجام في خليج العجم ، واقفل الناديين الوطنيين ، وعطل جرائدهما ، ثم

طلب من اثنين من مجتهدي الشيعة ان يسفرا ابنيهما ، وهما من الوطنيين المتطرفين ، الى بلاد فارس ، ففعلا دون ما احتجاج . وسكت المجتهدون الآخرون .

اما العشائر فقد استمر اكثرهم ثائرين ، منادين بسقوط الانتداب ، عاملين باوامر المجتهدين ، دون ان يعلموا بما تغير من حالهم . او انهم ابوا ان يسكتوا مثلهم ، فارسلت السلطة عليهم سرباً من الطيارات ، فرمتهم ببعض المناشير والقذائف ، فسكتوا مثل رؤسائهم ، واخلدوا بعد ذلك للسكينة .

هذا هو العمل الذي كان يتردد السر برسي فيه ، خوف أن يُضرم في البلاد نار ثورة ثانية لا تستطيع السلطة اخمادها . ولا اظن ان احداً في موقفه كان يطمع بمثل هذا النجاح لعمل اقدم عليه متردداً . ومع ذلك فقد قال السر برسي للمؤلف في حديث عن حوادث تلك الايام ، انه يكره استخدام القوة لحل المشاكل السياسية . وهو في ذلك فوق كل ريب . فان من يعرفه ، ويدرك شيئاً من السر في قوته ، يتيقن انه يؤثر قوى العقل واساليب الجدل والمنطق ، يؤثر المفاوضات والمناورات والمساومات في حسم الامور ، على القوات المسلحة بالنار والحديد .

بيد انه لو تحقق ما وراء تلك الحركة ، لو ادرك ان وراء خط النار الاول — وراء القصائد والفتاوى والخطب والمقالات — امة مكدودة منهوكة من الثورة الاخيرة ، مثل الانكليز انفسهم ، لما خرج عن المألوف في خطته ، المأثور في سياسته ، من الكياسة والحصافة واللين .

أوَيحتاج الامر الى برهان ؟ فقد نفى الزعماء الوطنيين ، واقفل انديتهم ، وعطل جرائدهم ، واسكت المجتهدين ، وأدب العشائر ، وبكلمة

واحدة سحق المعارضة سحقاً باس منه جازف مجازفة فيه . ولو اضطر الى تنفيذه بالقوة المسلحة لما استطاع لان تلك القوة كانت يومئذ مفقودة .

وقد خضعت الامة للامر ، ولم تعلم يومئذٍ ، ولا يعلم الآن الا بعض السياسيين أن الملك فيصلاً رفض ان يوقعه ، وان السر برسي كوكس جازف فيه ، وان العراق اطاع، وطأطأ له الرأس لعجز في الامة ، لا لخوف من القوات البريطانية .

ومما زاد في الفتور والتخاذل تلك الاشاعات التي كانت تشاع عن الملك فيصل في اثناء مرضه ، واولها ان العملية لم تنجح . ثم قالوا : الملك في حالة تنذر بالخطر — الملك مشرف على الموت — الملك مات ! وغيرها من الاشاعات السياسية .

حدثني الملك فيصل قال : « في تلك الايام العصيبة كان يجيئني الناس متحمسين قائلين : ارفع العلم ، ونحن رجالك ، نفديك بارواحنا . واني اذكر واحداً من اولئك الفدائيين ، وهو من كبار رجالات العراق ، واشدهم تحمساً . ولكنه غاب قبل ان نفذ السر برسي كوكس امره بنفي الزعماء الوطنيين . ثم عاد ، فجاء يهنئني بالشفاء . فسألته قائلاً : وماذا نعلتم بالانكليز ؟ هل عدلتم عن اخراجهم من البلاد ؟ فاجاب فوراً دون ارتباك : قالوا لنا انكم انتم أخرجتم من البلاد ، فسكتنا . »

وقد كان لهذه الاشاعات ألسنة تشيعها للغرض منها ولغرابتها ، وآذان تسمعها مصدقة ، وتسمعها مستحبة متفائلة . وفي الامرين ما يريك ان الجو السياسي في تلك الايام لم يكن مكفهراً فقط ، بل كان مفعماً بالسموم البريطانية والوطنية ايضاً ، بسموم الشهوات السياسية والشبهات ، والدسائس والخدعات ، والمخاوف والمناورات .

يقول العرب : الحرب خدعة · ويقول الانكليز : كل شيء يجوز في الحرب وفي الحب · وها هنا الشيء الكثير بين العراقيين والبريطانيين من اسباب الحرب ، واسباب الحب ، ملتفة بعضها على بعض ، مشتبكة بعضها ببعض · فلو تمكنا من الفصل بين الاثنين ومعرفة الواحد من الآخر ، لو تمكنا ان نميز بين مواقف الحرب ومواقف الحب ، ونتفهم الاثنين في الفريقين ، لاستقامت المنازع وهان امرها ، ولكن دون ذلك اغواراً من التناقض والغموض · خذ المس بل مثلاً ، فانها في مواقفها تارة عربية وطوراً انكليزية ، وانها في عواطفها مثل كرمة تتخللها الادغال ، فتختفي عرائش الحب بين اشواك الحرب ، وتلتف فسائل الشوك حول العرائش فتكاد تخنقها · وخذ السر برسي كوكس وهو في حبه الصافي للعرب عموماً ، وللعراق خصوصاً ، لا يتجاوز الحدود التي لا ينمو ضمنها غير حب المصالح البريطانية ، والغيرة على الامم البريطاني ·

وما موقف اهل العراق؟ هذه الشيعة وهي حرب على الانكليز متقطعة ، حرب يتخللها هدنات يبرأون منها الى الله ويسكتون · وهي حرب على فيصل يتخللها فترات من الحب يبرأون منها الى الله ويسكتون · اما العشائر فهم في فيافيهم يعمهون ، ولا يعرفون موقفهم الحقيقي الا بعد ان تصدر الفتاوي بالمقاطعات ، او بالحرب ، او بالطاعة والاستكانة · واما السياسيون والفدائيون فقد قرأت ما قاله فيهم الملك فيصل نفسه · وقد رأيت السلطة البريطانية تعتقل الزعماء الوطنيين وتنفيهم خارج بلادهم بضعة اشهر ، وبغداد في ذلك الاثناء ساكتة ساكنة ، تتحمل مضض الصبر والالم ·

ان لذلك كله اسباباً ، سيجيء ذكرها مسهباً في كتابي الثاني عن

العراق واهله . اما الان فاني اكتفي بذكر سبب واحد من اسباب التخاذل في تلك الايام . فقد كانت بغداد على شيء من الغرور ، تظن نفسها سياسياً العراق كل العراق . وما كانت في الحرب ولا في الحب صاحبة العلم ، بل صاحبة القول والقلم . وخصوصاً في تلك الايام . فقد كان سلاح الهجوم سلاحُها مثل سلاح الدفاع ، كلاماً على ورق ، وكلاماً يحمله الاثير فيذيعه دون ان يعود بشيء من صداه .

وها نحن الآن سائرون في السبيل ذاته ، سبيل الحبر والورق . الا اننا هذه المرة كاتبون بدل المقالات والقصائد معاهدة دولية . اجل ، ان المعاهدة الان لمحور الاعمال كلها . وسيُخَلَّد فيها غير حب المس بل وحب السر برسي للعراق والعراقيين . سيخلد فيها كذلك حب المستر تشرشل للعرب . اللهم اذا استطاع اولو الامر واولو الالباب ان يستخلصوا من الكلمة الانكليزية المأثورة — كل شيء يجوز في الحرب وفي الحب — ما فيه خير البلادين على السواء .

وهذا ما يريده السر برسي كوكس ، وهذا ما ينشده الملك فيصل . اما السر برسي الذي جنح الى العنف ليفتح الطريق ويؤمنّه للمعاهدة ، فان له في المفاوضات كما اسلفت القول اساليب وقواعد شتى ، وهو فيها كلها السياسي المحنك كما يقال . وصار في امكانه الان ، وقد بلغ الارب في خطة العنف ، ان يبسم على عادته ، ويسير متمهلاً الى غرضه ، فيقاوم مالا يزال يعترضه من الصعوبات والعقبات ويغالبها بما يستحبه ويستلذه من ثمار الفكر والتبصر — من البراعة في عقد الخيوط الدقيقة ، من الكياسة في تلوين الالفاظ ، من الدهاء في رمي الحبالة وشد الربَق .

اما الملك فيصل فقد اساء الناس فهم موقفه في تلك الايام ، فلم ينصفه

الانكليز ولا انصفه العراقيون · قال الانكليز اصدقاؤه انـه انقلب عليهم بعد التتويج · وقال المتطرفون من الوطنيين انه يخدم مصالح الانكليز ويعمل باوامرهم · اما الحقيقة ، وان بدا شيء منها هنا وهناك ، الحين بعـد الحين ، فهي اصلاً واساساً واحـدة ، لا انكليزية ولا وطنية بل فيصلية عراقية · وبكلمة اوضح كان فيصل واقفاً في تلك الايام موقف الدفاع ، وكان همه الاول ان يحفظ العرش ، فيعزز مركزه كمليك العراق ليستطيع ان يعزز جانب العراق في المعاهدة · وكان همه الثاني ان يحمل المستر تشرشل على البر بوعده دون ان يعادي الانكليز · هذي هي الحقيقـة الفيصلية العراقية ، وفي حديث الملك فيصل ، المدون لحسن الحظ عندي ، ما يثبتها ويزيدها بياناً ·

اعود اذن الى مذكراتي في تلك الايام ·

في ١٠ ايلول ١٩٢٢ — حدثني الملك بما تم بينه وبين المستر تشرشل قبل مؤتمر القاهرة ، وفي ذلك الاتفاق تعترف الحكومة البريطانية باستقلال المملكة العراقية ، وتتعهد ان تلغي الانتداب ، وان تساعد العراقيين في تأسيس حكومة وطنية موطدة الاركان · وستُعقد لقاء ذلك معاهدة ولاء وتحالف بين بريطانية العظمى والعراق ، يُضمَن فيها للحكومة البريطانية بعض الحقوق في ترقية اقتصاديات البلاد واستثمارها ، وفي استخدام مستشارين واخصائيين من الانكليز لهـذه الغاية ، ولمعاونة الموظفين الوطنيين كذلك في ادارات المُلك الجديد ·

قال الملك فيصل : « وعدني المستر تشرشل وعدين — ان يلغي الانتداب ، وان يعترف باستقلال العراق · وقد جاءنا الان بمعاهدة طافحة بذكر الانتداب وعصبة الامم · فاذا كان الانتداب فما الفائدة في المعاهدة

وما الغرض منها ؟ واذا كانت المعاهدة فما الحاجة الى الانتداب ؟ غني عن البيان ان احد الصكين غير لازم وغير مفيد . اننا مصرون على ما وعدنا به المستر تشرشل ، وهو ما يطلبه العراقيون ، المعتدلون منهم والمتطرفون . واني لا ازال اعتقد وآمل انه يبر بوعده . والا فالموقف حرج ، يا اخي ، حرج جداً . »

قد كانت الامة باجمعها ، اذا استثنينا فريقاً من الموظفين وقسما من اهل البصرة ، ضد الانتداب قلباً وقالباً . وما كان لفيصل ، حتى اذا صرفنا النظر عن وعد المستر تشرشل ، غير هذا السبيل يسلكه فيقودها ويهديها الى المحجة العليا . فلو اراد يومئذ ان يغير في سيرها ، او يلطف نزعتها الى الاستقلال ، لما استطاع ذلك . هي ذي الحقيقة التي ادركها ، وقبلها ، ومشى في نورها حتى العقبة الاولى . ولا عجب اذا فضل ملكاً مستقلا على ملك مقيد بالانتداب ، وبارادة المندوب السامي .

بيد انه كان يدرك دائماً ما عليه للانكليز ، ويوازن ويقارن بين الحقيقتين ، حقيقة الدين ، وحقيقة الوعد ، فيحاول ان يقف بين الاثنين وقفة الصادق الكريم ، الصادق في وطنيته العراقية ، الكريم في تقديره الجميل . وكان يتحاشى عما فيه شيء من العداء او الجفاء للانكليز ، وهم يومئذ اصدقاؤه الوحيدون . هو الذي صرح بذلك ، وكانت صراحته تشف عن مراكد الغم في اعماق نفسه .

وهاك الحديث من مذكراتي : « لو رحت ابحث اليوم عن حليف للعراق فاين اجده ؟ في فرنسة ؟ الفرنسيس اعدائي . في تركية ؟ ما انتهت الحرب بيننا وبين الاتراك . في العجم ؟ ان حكومة العجم تزيد متاعبنا ومشاكلنا في تدخلها بشؤون اهل الشيعة في العراق . اين اجد

الحليف ؟ في نجد ؟ لا تزال خطة ابن سعود حربية اكثر منها سلمية . وفيها الخطر عليه وعلينا سواء . افلا ترى اننا محاطون بالاعداء [١] ، ولا اصدقاء لنا غير الانكليز ؟ هي الحقيقة ، يا اخي ، واذا اعترفت بها ، وقبلتها وعالجتها بالتي هي احسن ، قالوا اني امالىء الانكليز واخدم سياستهم ... والانكليز ؟ العياذ بالله .» عاد الى وعدَي المستر تشرشل واستطرد قائلا: « وهم يطلبون مني ان اوقع معاهدةً لا تمكنني من تأسيس حكومة وطنية قوية ، ولا تمكننا لذلك من القيام بتعهداتنا . خذ الجيش مثلاً . نحن نبغي جيشاً وطنياً ، ولا احد يتطوع وفي البلاد انتداب . والبرهان بسيط . يقول العراقيون : اذا كان الانكليز مقيمين في العراق فليدافعوا عنه بجيوشهم . هذا حق ، بل هذا منطق . والانكليز كثيراً ما يؤثرون المنطق على الحق . »

كان يحدثني بلهجة هادئة صافية ، الا انها شديدة بليغة . وقد ظهرت شدتها حتى في همسه ، وبدت بلاغتها حتى في وقفاته ، وفي ملامحه وحركاته . فكان ينزع خاتماً من اصبعه ويلعب به ، هدءاً لاعصابه . وعندما ذكر المستر تشرشل لاح على جبينه لهب من الغيظ ، فرفع السدارة عن رأسه ووضعها الى جنبه على الديوان .

هي اول مرة شاهدته مكشوف الرأس ، وكان ذلك بُعيد شفائه من العملية الجراحية ، فذكرت ، وانا اتأمل وجهه ، ما قاله فيه احد الفرنسيين ، وهو انه شبيه بوجه المسيح . كان الشعر فوق جبينه العالي الناصع كثيفاً يومئذ وخلواً من الشيب ، وكانت سيماء وجهه الشاحب

---

(١) وكل هؤلاء الاعداء صاروا بعدئذ ، بفضل فيصل ، اصدقاء للعراق والعراقيين .

المتضمر اكثر وضوحاً ، وابلغ معنى ، فبدت العين اكبر مما هي وابعد غوراً ونوراً ، وبدا الفم في نبذه وغضه اكثر انفعالا واشد كآبة ، وذكرني النتوء في عظمي الخدين بما يبرز في وجه ابراهيم لنكان . وما كانت اللحية الا لتزيد بطابع الهزال الذي زانه النبل ، وتجلت فيه الروحية السامية .

فهل يستغرب ان يكون لفيصل تلك الشخصية الساحرة ، التي قل ، ممن عرفوه ، من لم يعترف بها . اجل ، انه لقليل في الناس من لا تستولي عليهم مثل السجايا التي زانت فيصلاً وتجلت في ملامحه وفي مجالسه . ومن هذا القليل المندوب السامي السر برسي كوكس ، ذلك الانكليزي القح في ما بدا من نفسه ، وفي ما صفا من خلقه . فقد كان يحترم فيصلاً ويجله ، ولكنه كان يوصد باب قلبه ونوافذه كلها ، في مجالس الملك وفي احاديثه ، فلايدع لسحره مخروباً يدخل منه .

وقد ظل النزاع بينه وبين فيصل نزاعاً سياسياً صرفاً ، فترك السحر والانفعالات الروحية للمس بل ، تنعش بها النفس في ساعات قيظها ، وترصع بها الرسائل الى امها . وكان السر برسي يقيم بينه وبين المس بل في الساعات الحرجة جداراً من المنطق الصافي الصلب الصقيل كالرخام ، فلا يدعها تتغلب عليه بما سرى الى قلبها دون العقل ، او بما تغلغل في القلب وما فيه من اثار العقل غير الخيال والشذاء . فالنزاع اذن هو سياسي ، ولكنه في اسبابه الشخصية يشمل الطباع والتقاليد النفسية والجنسية .

وبكلمة اخرى ان النزاع في المعاهدة بين فيصل والسر برسي كوكس هو نزاع بين روح عاقله ، وبين عقل لا روح له .

الفصل الخامس

محاولات ومراوغات

اذا ما جنح المؤرخ غداً الى درس احوالنا السياسية الحاضرة ، يكتشف الحقيقة الكبرى التي تبدو لنا اليوم كبيرة حتى في جزئياتها . وهذه الحقيقة هي ان انحطاط الغربيين ، لا ارتقاء الشرقيين ونهضاتهم، هو الذي عجل سقوط السيادة الغربية في الشرق . فقد كانت العظمة البريطانية مثلاً مستمدة من قوى الشعب البريطاني الادبية والروحية ، تلك القوى التي تزعزعت بعد الحرب العظمى ، ورزحت تحت عبء ثقيل من الاصطلاحات والمغالطات الاجتماعية والسياسية ، ثم تلاشت بين ايدي السياسيين والماليين ، العاملين ليومهم ولقومهم ، بل انسحقت بين حجرَي الرحى للمصاحة المباشرة ، اي بين المهاودة والمساومة ، وما يصحبهما من من المحاولات والمراوغات .

هذا حال الغربي اليوم . وما حاله يا ترى في الماضي ? منذ خمسين سنة كان الانكليزي في الهند مثلاً يقول : اننا هاهنا بفضل احسابنا السياسية والادبية والروحية — اننا هاهنا لاننا ارفع منكم ، واقدر منكم ، واعلم منكم . وهذا ، وربك ، موقف شريف جدير بالاحترام .

اما اليوم فلا يستطيع الانكليزي في العراق ان يقول ذلك القول ، لا صراحة ولا ضمناً ، لا عن يقين ، ولا عن مكابرة . بيد انه يقول : اننا هاهنا لان عصبة الامم ارادت ذلك . وما في هذا القول الحقيقة كلها . بل ما فيه ، والحق يقال ، الأفكة كلها . وهاك ما تبقى منها . اولاً : عند ما وزعت عصبة الامم الانتدابات كانت مسيرة بنفوذ الدول التي ابتغت الانتدابات وسعت لها . وثانياً : عند ما كانت الجيوش البريطانية تحارب الاتراك في العراق كانت تعتقد وتتيقن صدق ما قيل لها ، وهو انها جاءت لفتح العراق للملك جورج وللقديس جرجس[1] لا للعراقيين .

وما كان بلاغ الجنرال مود ، اذ دخل بغداد (في ١١ اذار سنة ١٩١٧) غير صدى البلاغات التي كانت تذيعها دول الاحلاف ابان الحرب — ثقوا ، ايها العرب ، اننا لا نطمع ببلادكم . انما جئنا نخلصكم من الترك ، ونقدم البلاد ، بعد فتحها ، هدية لكم خالصة لوجه الله . وهذا ما قاله الجنرال مود في بلاغه . فان صدق البلاغ ، فالجنود المجاهدون قد خُدعوا خدعة فظيعة . وان كان البلاغ كاذباً ، فاهل البلاد المخدوعون .

تعالَ نعود ، من اجل المقارنة ، الى الماضي . فقد قال قائد آخر بريطاني[2] في موقف شبيه بموقف الجنرال مود : « اننا هاهنا بفضل ثلاثة هي تأثلنا الادبي ، وعوامل الايام ، والعناية الالهية . وهذا كل حقنا ، وهذه كل حجتنا في الاستيلاء والحكم . واننا في ما سنعمل لخير الاهالي مقيدون بضميرنا لا بضميرهم . »

قد تستغرب هذا الموقف وتستنكره . ولكنك محترم ، ولا شك ،

---

(١) القديس جرجس شفيع بريطانية العظمى

(٢) هو الجنرال لورنس فاتح دلي في الهند .

الروح التي كانت توحي به وتؤيده · ومن لا يحترم القوة العليا ، قوة النفس والاحساب ، التي هي مصدر العظمة الحقيقية ، وركنها الاوطد ؟ ألا ، مهما يكن من تغير الايام وتبدل السياسة والاحكام ، فان السيادة التي ترتكز على القوة الادبية والروحية — على الصدق والثقة بالنفس والايمان ، وعلى الصراحة والشجاعة والاخلاص — تظل لازمة في العالم ، وتظل محترمة معززة ، ويكون النصر حليفها عاجلاً او آجلاً اينما كانت·

هذه هي الحقيقة الناصعة في التباين بين اخلاق المسيطرين في هذا الزمان واخلاقهم في الزمان الغابر · هي الحقيقة في ما يصح ان نسميه مخشلب الاخلاق ودرّه، ابرزناها حباً بالحقيقة وتمهيداً لما سنطلعك عليه من مظاهرها في ما يتعلق بموضوعنا الآن ، اي المعاهدة البريطانية العراقية ·

عند ما أبل الملك فيصل من مرضه استأنف المندوب السامي السر برسي كوكس المفاوضة واياه ، وكان على اتصال دائم بالنقيب السيد عبد الرحمن ، فاتفق الثلاثة على تأليف وزارة جديدة يرأسها النقيب للمرة الثانية · وما كانت جديدة بغير الاسم ، لان اكثر وزرائها كانوا في الوزارة السابقة · قال العميد : ليس لدينا احسن منهم · وقال النقيب : لا يناسبنا غيرهم · وقال الملك : على الله الاتكال · بيد انه لم يكن مسروراً بالرئاسة ، لان النقيب ، وان كان قد رفض التوقيع على المعاهدة الاولى ، هو صديق المفوضية الوفي ، وبُعد تعيينه ثانية نصراً لها ·

امّن الملك متوكلاً على الله ، وارسل الفرمان الى بيت النقيب ، فقرئ هناك في حفلة صغيرة عليها مسحة من ابهة الدولة الغابرة دولة الترك · جاء السكرتير الاول يحمل حقيبة صغيرة من المخمل الاخضر ، فدخل القاعة يتقدمه ياوران يناديان : الفرمان ، الفرمان · وكان النقيب واقفاً

في وسط القاعة يعتمد على عصاه ، وحوله انجاله الكبار وبعض الاعيان من المعممين وغيرهم ٠

اخرج السكرتير من حقيبته طلحية من ورق الدواوين طويلة ، وقرأ بصوت مفخم امر صاحب الجلالة الى وزيره الاول بتأليف الوزارة ٠ وما كان شيء من تلك الديباجة العثمانية الطنانة ، المرصعة بـ « فخر الوزراء ، وقطب الحكماء ، وعين مجد الامراء ، مدير شؤون الدولة بالفكر الثاقب ، والرأي الصائب ، وزيري » الخ — ما كان شيء من هذا ٠ ما كان غير « صاحب المعالي » ، ثم الامر المشفوع بامل العرش الموطد بعون الله ، ان يسترشد معاليه في تأليف وزارته بما أُعطي من العلم ، وبما اتصف به من الحنكة والحكمة والاخلاص ٠

والنقيب ابن الثمانين السيد عبد الرحمن ، سيد العالمين بسخريات الزمان ، ابتسم ابتسامة صغيرة خبيثة لنفسه عندما سمع الامر بتأليف الوزارة التي كانت قد تألفت تماماً باجمعها ٠ فقال في جوابه المختصر المفيد انه سيتوكل على الله في انتخاب زملائه ٠ وبعد ذلك أُديرت كؤوس الشراب ثم القهوة ، وانتهت في صباح ذاك اليوم اشغال الدولة ٠

عندما كان النقيب رئيساً كانت الوزارة تجتمع في بيته ، لانه كان مقعداً ، وكانت المس بل تقول : ليت في رجليه شيء من النشاط الذي في عقله ٠ ولكن داء عصبياً احوجه الى العصا يستعين بها حتى في البيت ٠ وقد تكون هذه الحالة العصبية في صاحب المعالي السبب الاول او احد الاسباب التي حملت الملك فيصلاً على تفضيل سواه لمنصب الرئاسة ، فكان يضطر في المهم من الحادثات ان يجيء بنفسه الى بيت النقيب ٠ وكاني بالسيد عبد الرحمن ، قطب الظرفاء وينبوع الكياسة ، يستعين

بالتاريخ ليخفف الامر على جلالة الملك ، فيحدثه عن جده القادري عبد الرحمن الكيلاني ، قدس الله سره . فقد كان يزار ولا يزور — وكان الخليفة نفسه يتنازل مثلكم ، يا جلالة الملك ، لزيارته في بيته .

اما السر برسي كوكس والمس بل صديقاه الوفيان ، فحسبهما نور طلعته ، وحلاوة مبسمه . فما كان يرى من حاجة الى الامثال والنوادر التاريخية ليزيل من « تشريفها » ما قد تخلله من مرارة الواجب . نعم ، لقد كان من الواجب عليهما ان يزوراه ، وكانت المس بل تشرف غالباً كل يوم لتنير ذهنه ، او لتبلبله بما كان يدور ويحور ، ويطفو ويغور ، في ذهن صاحب المعالي الاكبر المستر تشرشل . ومما ينبغي ان يُذكر للنقيب بالحمد والثناء انه لم يقبل ان يرأس الوزارة الثانية الا بعد ان تعهدت المفوضية بتعديل المعاهدة .

وكان الانتداب شبح المعاهدة المخيف ، لا في نظر العراقيين فقط ، بل في نظر الانكليز ايضاً . وكانت الحكومة البريطانية تحاول ان تصبغ الشبح بالصباغ الزاهر الزاهي ، ليلتئم والوان المعاهدة الجديدة . فقد صرحت بقصدها وهو ان المعاهدة لا تقوم مقام صك الانتداب ، بل تدخل في صلبه وقلبه فتصلحهما .

استمرت وزارة المستعمرات تعلل نفسها بالآمال ، وهي واثقة انها تستطيع ان ترضي عصبة الامم بما تخترعه وتلونه من الالفاظ ، مستعينة بأقطاب القانون فيها ، فتقضي على المخاوف والاشباح كلها .

وهاكم المادة السادسة برهاناً على ما يقول المستر تشرشل . ان في هذه المادة من المعاهدة « تتعهد الجلالة البريطانية ان تستخدم نفوذها لادخال العراق في عصبة الامم باسرع ما يمكن » خلال مدة المعاهدة وهي (المادة

١٨) عشرون سنة ! باسرع ما يمكن خـلال عشرين سنة ! ان الله مع الصابرين • وعندما يصير العراق عضواً في العصبة ، كما جاء كذلك في المادة السادسة ، تبطل المعاهدة — الفعل لازم — تنتهي حتماً وتماماً •

على ان هناك ثلاثة شروط اخرى • اولاً : يجب ان توقّع المعاهدة • ثانياً : يجب ان يكون للعراق دستور اساسي • ثالثاً : يجب ان تخطط حدوده رسمياً ويعترف بها • وبعد ذلك — ثق ، يا جلالة الملك ، بما يقوله المستر تشرشل • ثم تجيء المس بل مطمئنة قائلة : سيدى فيصل ، المستر تشرشل رجل حر ، والمثل العربي يقول « وعد الحر دين » — هذا صحيح • وسيبر المستر تشرشل بوعده ان شاء الله • ثم تعيد قراءة البرقية الاخيرة او انها تتلوها على مسمعه • عنـدما توقع المعاهدة يباشر المستر تشرشل العمل لتحقيق التعهد المتضمن في المادة السادسة • وتجيئه في اليوم التالي وبيدها نسخة البرقية الاخيرة • سيدي فيصل ، يؤكد المستر تشرشل للمندوب السامي ، ويسأله ان يؤكد لجلالتكم ، ان حكومة جلالة الملك ستعجل في تقرير مسألة الحدود بين تركية والعراق •

وكان المندوب السامي يبعث بنسخ من هذه البرقيات الى النقيب مع ملاحظاته والحافه — « واملي بسعادتكم • • • » فقررت الوزارة في يومها العاشر ان تجدد ثقتها بالحكومة البريطانية ، بعد التوكل على الله ، وتصدق ما يقوله مندوبها ووزيرها • ثم وقعت المعاهدة (في ١٠ ت ١ سنة ١٩٢٢) وصدر بلاغ ملكي من البلاط ان تمت بعون الله المفاوضات ، بالرغم عما اعترضها من الصعوبات ، وان الفريقين توفقا الى حل مرض • فالمعاهدة مبنية على المصالح المشتركة ، والحقوق المتبادلة ، وهي تضمن سيادة العراق الوطنية واستقلاله السياسي ، كما انها تضمن دخوله في عصبة الامم •

ما اطمأن مع ذلك قلب الامة ، ولا خفتَ صوت المعـارضة . والحق يقال ان الملك فيصلاً نفسه كان يومئذ يحتمي بالالفاظ ، ويحاول ان يموه بالوانها الموقف المريب . ولا عجب اذا سرى اليه من النقيب ، ومن المندوب ، ومن وزير المستعمرات ، شيء من الامل بعلاج الزمان ، بل شيء من اليقين بان ما يفسده الناس تصلحه الايام .

وما كان احد من اساطين السياسة هؤلاء ليجسر على الايام فيقوم مقامها . وما كان احد يجرؤ ان يفكك ، بعد الاتكال على الله ، قيود الاحوال والمناسبات . فقد كان المستر تشرشل مسؤولاً لدى عصبة الامم . وكان السر برسي كوكس مسؤولاً لدى المستر تشرشل . وكان الملك مسؤولاً لدى السر برسي كوكس . وكان النقيب مسؤولاً لدى الملك . انه لجو مفعم بعوامل الخوف والجزع ، فيتذبذب فيه تيار المحاولات والمراوغات ، ويلوص في كلماته وميض امل خفي ينعكس في قلوب المتفاوضين — ان السبيل ضيق ، ايها السادة ، ولا مفر فيه من المسؤولية . على انه قد ينفرج ، وسينفرج اذا مضينا مشمرين في اية جادة تنفسح امامنا — وخير الجادات اهونها

مَن من السياسيين ينكر ذلك ؟ مَن من السياسيين المرنين على عقد المعاهدات الدولية يزدري الحكمة التي تفرضها المناسبات ، ولا يختار من السبل اهونها وان طال . وسنعطيك الامثلة من المقارنة بين المعاهدتين الاولى المنبوذة والثانية المتّبعة .

المقدمة في نص المعاهدة الاولى سلسلة من « حيث ان » مسندة الى معاهدة سيفر ، وعقد عصبة الامم ، وصك الانتداب .

اما في النص الثاني فقد ضرب المتعاقدان بالمقدمة عرض الحائط ،

وسارا تواً الى قلب الموضوع ، فجاءت كما يلي : يرى الملك فيصل ان من مصلحة العراق ان يعقد معاهدة ولاء وتحالف مع الملك جورج ، والعاهلان واثقان مطمئنان بان الصلات بين البلادين تستقيم بما تبيّنه وتحدده هذه المعاهدة .

المادة الاولى في النص الاول : « تتعهد الجلالة البريطانية بان تمد العراق بما يلزم من المشورة والمساعدة خلال مدة المعاهدة . »

ويتلو هذا في النص المتبع : « دون ان يضر بسيادتها الوطنية . » ولكن المادة العاشرة تذهب بكل ما هو مقصود ، في هذه الكلمات الخمس ، من الاحتياط .

وهاك نص المادة العاشرة في المعاهدتين :

« يتعهد الفريقان المتعاقدان ان يقررا في اتفاق خاص منفرد ما تراه الجلالة البريطانية لازماً في العراق من عقود او اتفاقات او امتيازات ، ويتعهد ملك العراق بالحصول على ما يلزم من التشريع لتنفيذ هذه الاتفاقات . »

أرأيت كيف يكون التسريح ، وكيف يكون الاعتقال ؟ وهل يستطيع غير الحاكم بامره في هذا الزمان ان يجبر مجلس الامة على التشريع بما يريد ؟ وهل كان الملك فيصل ذلك الحاكم بامره ؟ وهب انه استطاع ان يقوم وقام بقسم من هذا التعهد الخطير ، فاين معه السيادة الوطنية ، واين في الاقل استقلال المجلس وحرية التشريع ؟

المادة ١٦ في النص المنبوذ :

« تتعهد الجلالة البريطانية بقدر ما تسمح واجبات الملك ، بان لا تعارض في اي اتفاق جمركي او سواه ، يعقده العراق والحكومات

العربية الاخرى ٠»

المادة ١٩ في النص المتبع :

« تتعهد الجلالة البريطانية ، بقدر ما يتناسب وصلاتها الدولية ، بأن لا تعارض الخ ٠»

انت ترى ان في النص الاول تنحصر الجملة الاحتياطية بالدولة البريطانية ، وفي النص الثاني تنبسط حتى تعم الدول كلها ٠ فاين منها سيادة العراق الوطنية واستقلاله الاقتصادي ؟ فهو في النص المنبوذ اقل تقييداً منه في النص المتبع ٠ والاثنان يعللانه ، بدل ان يتعهدا له ، بحريته في عقد الاتفاقات والمعاهدات الجركية ٠

اما التعديل الذي أدخل على مادتي ١١ و ١٤ فلا تذبذب فيه ولا مراوغة ٠ هو صريح جلي قويم ٠ ولا عجب ٠ فالحكومة التي طلبته واصرت عليه ليست بحكومة العرق ٠ بل هي حكومة الراسماليين والدمقراطية — مهد مناقضات الزمان ٠ هي الحكومة التي كانت تفرض مشيئتها وتتنفذ على العالم المالي والاقتصادي ٠ هي الحكومة التي رفضت ان تنضم الى عصبة الامم ، وما رفضت ان تشارك بالمنافع والحقوق التي لاعضائها ٠

نقول نحن العرب : وما ظالم الا ويبلى باظلم ٠ سألت يومئذ فنصل ذاك « الاظلم » رأيه في السر برسي كوكس ، فاجاب بكلمة واحدة فكسي [1] وبعد ايام ، اذ كان قد قدم مطالب حكومته الى المفوضية ونالها ، قال لي يصف السر برسي باسلوبه الاميركي :

---

(١) فكس بالانكليزية ثعلب ، والياء كما في العربية ياء النسبة — فكسي

« ان في سياسته كثيراً من الزيت » [١] قلت : « وماذا في السياسة الاميركية ؟ » فرد حضرة القنصل سهمي قائلاً :

« علي ان اراقب السر برسي ، فلا يهضم الولايات المتحدة حقوقها . »

وقد استمع السر برسي الى المستر أوين يومئذ بالاذن التي تسمع لممثل دولة من الدول العظمى ، ونقل كلامه برقياً الى المستر تشرشل ، فكان التعديل بعد ذلك في مادتي ١١ و ١٤

جاء في نص المعاهدة الاول : « على العراق ان يعامل بالمساواة وبدون تمييز اهالي الدول المشتركة في عصبة الامم . »

وقد اضيف الى هذه الكلمات في النص الثاني : « او اية دولة اخرى من الدول التي يتعهد صاحب الجلالة البريطانية باتفاق او معاهدة واياها بان يكون لها نفس الحقوق كما لو كانت عضواً في عصبة الامم . »

« اية دولة اخرى » هي اميركة بعينها التي احرزت قسمتها في نفط العراق ، ومعها بضعة امتيازات في التنقيب على الآثار القديمة . وهلا يهم اميركة ، بلاد الرئيس ولسون ، من البلدان المشمولة بالانتداب ، غير ما فيه منفعتها المادية وشيء من المجد ؟ ...

لنعد الى العراق . ليس في نص المعاهدة الثانية من التغيير والتعديل غير ما ذكرت . فقد نزع منها اسم الانتداب ، وأضيف اليها كلمة مبهمة في السيادة الوطنية ، وبدلت « واجبات الدولة » بـ « الواجبات الدولية » . اما ما تبقى من المواد فهي بمعناها واحدة في النصين . وان عددناها لندرك

---

(١) ظاهر الكلام ان سياسته « مزيتة » ماشية مشية مطردة هادئة لا صوت لها . وباطنه ان سياسة السر برسي مبنية على مصالح انكلترة ومطامعها في نفط العراق .

مقدار ما تضمنه من « المصالح المشتركة » و « الحقوق المتبادلة » رأينا ان اربعاً منها (١ و ٥ و ٦ و ٧) مع العراق ، وتسعاً ٢ و ٣ و ٤ و ٩ و ١٠ ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤) هي عليه . اضف الى هذه المواد التسع الاتفاقات الثلاثة الملحقة بالمعاهدة ، اي التي تتعلق بالجندية والمالية والقضاء ، ترَ العجب في المساواة .

يوم وُقِعت المعاهدة قام بعض الوطنيين يحتجون ، فاجتمعوا وخطبوا ، وجاء فريق منهم الى بيت النقيب ، فاذن لهم بالدخول ، وسمع خطيبهم يخطب ، ثم سألهم قائلاً : « وباسم من تحتجون ؟ » فاجابوا : « باسم البلاد . »

فنهض اذ ذاك عن الديوان يهز عصاه ويقول : « ومن انتم لتحتجوا باسم البلاد ؟ انا صاحب البلاد ، وانا اعلم منكم بحاجات البلاد واغراضها . عودوا الى بيوتكم واشغالكم . »

خرجوا ساكتين .

وبعد شهر سكت صاحب البلاد نفسه . بعد شهر سقطت وزارة النقيب الثانية ، فسكتت كذلك المفوضية ، ولم تكترث للامر . فتساءل الناس قائلين : اين وفاء الانكليز ؟ وقال البغدادي بلهجته العريضة المعروفة : يسخرونهْ ، ويضجّرونهْ ، ويهجرونهْ !

كان السر برسي كوكس يومئذ في العقير عاملاً وابن سعود في تصفية الحياة المتعكرة بين نجد والعراق ، وتسوية العلائق النجدية البريطانية ، فيبرزها كلها جلية صافية في معاهدة او معاهدتين[1] ولا سيما ان مدته كمندوب سام كادت تنتهي ، فكره ان يكون بعده مسائل

---

(١) راجع « ملوك العرب » الفصل السادس من القسم الخامس في الجزء الثاني صفحة ٦١

متوقدة ، ومشاكل معقدة ان في العراق او في نجد . لذلك كان جاداً في اطفاء النار ، وفي حل العقد هنا وهناك ، فيستطيع اذ ذاك ان يحمل الى لندن النبأ المسر ان كل شيء هادىء في حومة العرب .

ومما هو جدير بالذكر ان مهمته كانت كثيرة العقبات ، شديدة المشقات ، خصوصاً وقد كان عليه ان يرضي العرب ، والحكومة البريطانية ، وعصبة الامم ، وحتى الولايات المتحدة . فمهما قيل في المعاهدة والدور الذي مثله على مسرحها ووراء مشاهده ، فما لا ريب به انه كان من المشيدين للملك الجديد . ومما هو دون كل ريب انه وضع اسس السلم والولاء بين البلدين نجد والعراق . لك ان تقول في سوى ذلك انه ماهر في الترقيع ، ولك ان تقول كذلك ان قطباته في الرتق غير محكمة ، يبدو عليها اثر السرعة والتعب . هذا صحيح ، وهو نفسه عالم به . وقد كان مدركاً ما في المعاهدة من الغبن للعراق ، وغير راض بان تستمر عشرين سنة . بل كان يعتقد انها قصيرة الاجل .

عاد من العقير يحمل في صدره ، وفي مذكراته ، من المعلومات الخاصة بنجد والعراق ما لا يستطيع ان يرسله بالبرق او بالبريد الى وزارة المستعمرات ، فوجب عليه ان يسافر الى لندن قبل ان تنتهي مدة وظيفته . وقد وعد الملك فيصلا انه سيبذل كل ما في طاقته ليجعل مدة المعاهدة خمس سنوات بدل العشرين سنة .

بيد ان الامور في وزارة المستعمرات تجري في مجاريها الخاصة المحددة . وان للعقل القانوني فيها قوالب لا بد منها . فهي اذا تكارمت مثلا تختار لكرمها القالب الذي يليق ظاهراً به ، ضيقاً كان او واسعاً . ومن هذه القوالب الالفاظ الشرطية والاحتياطية .

فقد قررت تلك الوزارة بعد ان استمع رئيسها المستر تشرشل الى السر برسي ان تحور المادتين ٦ و ١٨ في ملحق للمعاهدة . وهذا الملحق يقول : « ان المعاهدة تنتهي عندما يصير العراق عضواً في عصبة الامم ، وفي كل حال لا تتجاوز المدة اربع سنوات من تاريخ العقد لعهد السلم مع تركية . »

هو العقل القانوني بتنطعه وتحوّطه . فقد ابدل وعداً غير مقيد بشرط ما ، وان بعُد يوم تحقيقه ، بوعدٍ محدد ومقيد بالشروط . ومن هذه الشروط ان المعاهدة لا تنتهي الا بموافقة عصبة الامم (المادة ١٨) . فان تم السلم وتركية ، ومرت بعد ذلك الاربع سنوات ، ورفضت عصبة الامم ان تعترف بانتهاء المعاهدة ، ظل العراق مكانه ، بل عاد الى الجهاد حيثما بدأ به .

ومع ذلك كله فقد رحب الملك فيصل بهذا الملحق ، واذاع بلاغاً على الامة قال فيه ان الحكومة تمكنت « ان تخطو خطوة كبيرة اخرى في سبيل تحقيق اماني العراق ، وذلك بعقدها الملحق الجديد للمعاهدة العراقية الانكليزية ، وكان من جملة الاسباب الرئيسية المبني عليها الملحق تلك الخطوة السريعة التي خطتها حكومتنا في سبيل التقدم والاستقلال . »

كلام الملوك — مثل كلام الوزراء ! ولكن الامة ، وان كانت لا تدرك ما يدركه الوزراء والملوك ، تقرأ ما في قلبها ، قبل ان تقرأ ما في البلاغات الرسمية .

الفصل السادس

جهاد الملك فيصل

ما قُدِّر لملك من ملوك العرب في هذا الزمان اجتياز ما اجتازه الملك فيصل من غمرات المشاكل الوطنية والدولية . ولا قدِّر لسياسي من ساسة الدول الصغيرة أن يوفِّق مثله بين شتى العناصر المتضاربة التي اكتنفت المفاوضات لعقد معاهدةٍ كانت تبدو دائماً في طور التكوين . فلم تكن الوضعية لتثبت حتى في اساسها على حال من الاحوال . هي وضعية ذات انوارٍ وظلال مضطربة متقلقلة ، وضعية مقيدة بعوامل من التبدل والتغيّر كانت تنبعث ليس من لندن فقط ، بل من جنيف ايضاً ، ومن انقره وطهران والرياض . فأين من هذا الاضطراب ، وتضارب المنافع والاغراض ، طريق الثقة والاطمئنان ؟ اين تلك الطريق التي كان يتلمسها ويتجسسها الملك فيصل ، وقلما يجدها سليمة امينة . ولا غرو . فقد كثر فيها لمع السراب ، وتعددت فيها الحفَر والاخاديد ، فاشتد في الملك الحذر وازداد الاحتياط .

انها لحرب سلمية ، انها لحرب في الغيب . وقد تخللت واقعاتها سُحُب من الغازات السامة ، فجعلت التقنع — التستر — المخادعة — من لزوم

الدفاع . وقد كانت القضية ومعضلاتها في منزلة من الاهمية تصغر عندها الشخصيات ، وان كانت مملكية ، وتضؤل المطامع الخاصة ، وان كانت لاكبر السياسيين . فمن اهم الواجبات اذن هو ان تحل هذه المعضلات ، وتسوّى تلك القضية على مبدأ العدل الثابت ، والرضى الدائم ، فضلاً عن التأمينات الوطنية والدولية . هي ذي الحقيقة الكبرى التي قلما غابت عن بال الملك فيصل . فقد كان ، والحق يقال ، اشد ملوك العرب شعوراً باشتراك المنافع ، واكبرهم تقديراً للوضعية الاوروبية في ذا الاشتراك .

على ان واجبه الاول هو ان يصون حقوق البلاد من غوائل السياسة التي مر ذكرها ، سياسة المخاتلة واللين . وهمّه الاول هو ان يحفظ المملكة الفتية من عوادي الشقاق والفوضى ، التي بدأت تفتك بها في اواخر السنة الاولى من حياتها . وقد اشفق الانكليز انفسهم مما كان يهدد يومئذٍ العراق ، فكتبت المس بل الى امها ، في شهر آب سنة ١٩٢٢ تقول : « اننا نخشى انفجاراً ثانياً » (وهي تشير الى الانفجار الاول ، اي الثورة الاخيرة .)

ولكان الانفجار لولا صبر فيصل وتعقله ، لولا حنكته وبعد نظره . وما بالى ان يتهم بالعداء للانكليز ، وما بالى ان يقال انه يؤثر مصالحهم على مصالح البلاد . فقد مرّ بالتهم الانكليزية والعراقية مرّ الكرام ، ومشى الى غرضه بقدم ثابت ، وهمة صادقة . وما كانت مهمته هذه من المهمات التي يغبطه عليها احد من السياسيين او الحكام . فهناك الدسائس والمؤامرات ، والمخاتلات والخيانات ، يغالبها ويتغلب عليها . وهناك الاقليات والعشائر ، المطيعون دائماً في مناوأته ، يداريهم ويجاملهم ليستميلهم اليه . وقد كان لكل خطوةٍ اتجاه ، ولكل خطةٍ اسلوب

يختص بها . وكانت كلها بمجموعها تؤدي به من مرحل الى آخر أو حل منه . مع ذلك كله فقد كان هدفه طول ذاك الجهاد واحداً ، وكان الهدف بعيداً ثابتاً ناصعاً لا يتغير ، ولا يثنيه عنه شيء في مغالبات الناس وحماقاتهم او في نكد الزمان وعواديه . وهذا الهدف هو عصبة الامم . سعى وجاهد فيصل ليصل بالعراق الى عصبة الامم ، لا لفضل فيها خاص ، بل للتخلص بواسطتها من هذا الشيء الذي ولدته — من هذا الانتداب ابنها ، ومن نيره .

وقد كان عليه ان يقود العراق في اجتيازه المراحل ، الواحدة بعد الاخرى الى تلك المحجة البعيدة . بيد انه كان مقيداً في القيادة بخطة اخرى غير خطته ، بل بخطط غير تلك التي كانت توحي بها السياسة الفيصلية . كيف لا ، وللانكليز وجهة نظر يجب ان تتقدم ، وان تغيرت كل يوم ، وجهة نظره ، او تلتئم بها . كيف لا وللانكليز حق في الارشاد ، واساليب في الارشاد عجيبة . فعليه ان يسلك بموجبها ، او يتلمس سبيله بتعقل انكليزي ، كما يتلمس الجواد طريقه خلال الضباب بلندن .

بل كان عليه ان يرى وراءه كما يرى امامه ، وان يحسن فوق ذلك شيئاً من علم المناقضات ! وها نحن في الفصل الاول من هذا العلم الطريف نعقد معاهدة تحالف مع حكومة دستورية نيابية ، لا مجلس نيابي لها ولا دستور ! ولا بأس . فانه من الممكن ، في علم المناقضات ، ان تجر العربةُ الحصان [1] . وعندما تدنو ساعة الاعجوبة اي عندما تشرع الامة في سن دستورها الاساسي ، ينبغي ان لا يحدث ما قد يمنع الحصان

---

(١) مثل انكليزي يضرب لمباشرة الامور من آخرها

من السير وراء العربة . وبكلمة عربية مجردة من المجاز الانكليزي ينبغي ألا يكون في دستور الامة — ذات السيادة — ما يناقض مضمون المعاهدة . حاول فيصل ان يسير بنور هذه الحكمة الانكليزية — ان يهتدي بهذا الهدي البعيد الضياء — وان يفوز فوق ذلك بحب شعبه ، واحترام جيرانه . فهل افلح سعيه هذا المثلث الزوايا ؟ سنعود الى هذه المسألة في الفصل التالي . اما الان فعلينا ان نتبع الحوادث .

بعد ايام من عقد المعاهدة صدر بلاغ ملكي بوجوب انتخاب المجلس الوطني التأسيسي ، ليجتمع في الشهر الاول من سنة ١٩٢٣ ، ولكن المعارضة المستمرة حالت دون مباشرة العمل . وكانت تزداد شدة في الشيعة ، اذ أفتى المجتهدون بمقاطعة الانتخابات ، وهم يموّهون سياستهم الفارسية بما يظهر من عطفهم على الاتراك . وكان آية الله الشيخ مهدي الخالصي اشد زملائه تطرفاً ، وانكرهم مكابرة حتى في مجابهة الملك . فغضب رئيس الوزارة عبد المحسن السعدون غضبته الاولى ، وامر بتسفير آية الله الاكبر .

عندما أُبعد الشيخ مهدي الخالصي الى بلاد فارس ، صاح زملاؤه محتجين ، وختموا احتجاجهم بان حمل كل منهم عصا الترحال ، ونفض عن نعله غبار العراق . راحوا يشاركون اخاهم الاكبر منفاه في طهران . فحمدَ لَ السعدون . ولكن العقبات ظلت قائمة في سبيله ، بل كانت المحنة محنته تشتد بدعاء اولئك المجتهدين ، على بعدهم ، وبصلوات اتباعهم الحارة .

فزع الملك ، وفزع العميد الى السعدون . توحدت قوات البلاط والمفوضية والحكومة على المعارضة ، ففتت في ساعدها ، وما تمكنت من القضاء عليها . قد استمرت الحال هذه سنة كامله ، سقطت خلالها ،

وزارة السعدون . فجاء جعفر باشا العسكري ، باسم ملكي ، يستأنف الجهاد جهاد المعارضين بانتخاب المجلس ، لانه ، كما ادعوا ، سيسن قانوناً يتضمن الاعتراف بالمعاهدة . مضت وزارة جعفر في سبيلها ، وكانت تمدها المفوضية ويمدها البلاط ، بكل ما لديهما من القوة القانونية والنفوذ الادبي — الغير القانوني — وكانت في النهاية موفقة ، فجرت الانتخابات ، واجتمع المجلس التأسيسي ، الذي فتحه الملك فيصل في ٢٧ اذار سنة ١٩٢٤ ، اي بعد سنة وخمسة اشهر من يوم توقيع المعاهدة .

في ذلك الاثناء عُقدت وثيقتان ، في لندن ولوزان ، هما للعراق على جانب من الاهمية ، الاولى الملحق الذي جعل مدة المعاهدة اربع سنوات ، بدل العشرين سنة ، والثاني عهد الصلح بين تركية والحلفاء . فجاءت هاتان الوثيقتان مدداً للحكومة في خضد شوكة المعارضة ولو خارج المجلس . اما في المجلس فقد كان الوطنيون المتطرفون الاكثرية فيه ، فحملوا على المعاهدة ، وخصوصاً على ملحقاتها الثلاثة ، التي تتعلق بالجندية والمالية والقضاء ، حملات شديدة ، تخللها نوع من الجدل لا يندر في الغرب ويُستغرَب في الشرق ، فدارت رحى القتال ، بالايدي والكراسي ، بينهم وبين انصار الحكومة . وكان حزب العمال البريطاني قد فاز في الانتخابات ، فتولى الحكم هناك ، فناط المتطرفون بوزارته كبير الامال ، وامعنوا بالعصيان . ان احرار بغداد يحيون احرار العمال بلندن ، ويستعطفونهم .

رأى المندوب السامي الجديد السر هنري دوبس[1] شيئاً من البراعة في هذه المناورة ، فحاول مغالبتها بتعديل الاتفاق المالي . وهو غير

---

(١) Sir Henry Dobbs

متيقن ما قد يكون موقف الحكومة الجديدة فيه . وما عتم ان جاءه الخبر اليقين ، فلا يزال النور في وزارة المستعمرات نور المستر تشرشل ، ولا تزال القاعدة في عهد العمال كما كانت في عهد السلف — « العربة تجز الحصان . »

اجل ، يجب ان تقرّ المعاهدة قبل كل شيء . وبعد ذلك « تعيد الحكومة البريطانية النظر في تعهدات العراق المالية . » كان احرار بغداد يتوقعون غير هذا من اخوانهم احرار لندن ! فازدادوا تمرداً ، اذ رأوا عكس ما أملوه ، وتفانوا ، لجأوا الى الكراسي ، في سبيل المعارضة . فارسلت اذ ذاك وزارة المستعمرات بلاغها المصعق — ان لم يتخذ المجلس في اليوم العاشر من حزيران او قبله قراراً حاسماً ، تحسب الحكومة البريطانية المعاهدة مرفوضة ، وتسترعي نظر عصبة الامم الى الانتداب . وبكلمة اخرى قد أنذرت العراق بالحكم الانكليزي التام ، بالحكم المباشر .

مما شجع الحكومة البريطانية يومئذ في ذا العمل مفاوضتها والاتراك في مسئلة الحدود العراقية الشمالية ، وقد كانت الموصل موضوع البحث والنزاع . فهل تفادون بالموصل ، يا احرار بغداد ؟ ! نعم ، الموصل ، ستخسرون الموصل . وسرى التهامس في الدوائر السياسية وفي الاندية — سنخسر الموصل حتماً اذا رفضنا المعاهدة .

بيد ان المجلس كان قد ارفضّ لاجلٍ غير مسمى . فصدر الامر باجتماعه ثانياً ، فاطاع الامر ثلثان او اقل من اعضائه . وعندما جاء اليوم العاشر من حزيران ، وادبر نهاره ، واقبل ليله ، لم يكن فيه العدد الكافي للنصاب القانوني . فبادر بعض رجال الحكومة والبلاط لكشف المحنة ،

راحوا يفتشون في بغداد عن الاعضاء المتلكئين والمختبئين ، فاهتدوا اليهم وتوسلوا — حاسنوهم بالكلام وجاملوهم ووعدوهم وأوعدوهم — وظفروا بعد ذلك بهم . فجاءوا المجلس وكمل النصاب في الساعة الاخيرة قبيل نصف الليل . كانت تلك الليلة من ليالي فيصل المدلهمة . ولكنه في الساعة الثانية عشرة منها تنفس الصعداء ، اذ جاءه الخبر ان المجلس أقرّ المعاهدة [1] . على انه اضاف الى الاقرار ملحقاً يعرب فيه عن امله بان تعدّل الحكومة البريطانية ، براً بوعدها ، الاتفاق المالي في القريب العاجل ، وألا تتنازل لتركية ، في اي حال كان ، عن ولاية الموصل . وبعد ذلك استأنف اعماله بهدو وسكينة ، فأنجز الدستور وقانون الانتخاب واقرهما ، ثم ارفض عقده ، وتفرق اعضاؤه .

هذه هي المرحلة الاولى التي اجتازها العراق في طريقه الى عصبة الامم . وقد اجتازها على ما كان من مناصبة الشيعة ومقاومتها ، ودون ان يحدث ما ينكد عيش المتشرعين والمتعاهدين . ومن الحقائق الاخرى الثابتة هو ان الحكومة البريطانية سترشح العراق لعضوية العصبة في سنة ١٩٢٨ اي بعد اربع سنوات من تاريخ معاهدة لوزان . فماذا عسى ان يكون بعد ذلك شأن المعارضة . بل ماذا عسى ان نقول في الحكومة البريطانية ، وقد برهنت في تلك السنة بعد شهرين من اقرار المعاهدة ، عن صدق نياتها . كيف لا وقد وقف اللورد بارمور في مجلس العصبة بجنيف في دورة ايلول يقدم المعاهدة الانكليزية العراقية وملحقاتها للموافقة ويقول : «قد تقدم العراق في السنتين الاخيرتين تقدماً سريعاً مما يجعل سياسة الانتداب ،

---

(١) كان الاعضاء ٦٩ فوافق على الاقرار ٣٦ وقاومه ٢٤ وامتنع التسعة الباقون عن التصويت

وفقاً للمادة ٢٢ من ميثاق العصبة ، غير موافق له بعد حين ٠» ثم اعرب عن يقينه ان سيصبح في سنة ١٩٢٨ اهلاً لعضوية العصبة ، فترشحه الحكومة البريطانية لذلك ٠ وقد نهجت هذا المنهج الحكومة البريطانية في تقريرها عن العراق لعام ١٩٢٥ ، فتكلم مندوبها امام لجنة الانتدابات الدائمة بلهجة اصرح من لهجة اللورد بارمور عن تقدم الحكم الوطني الدستوري ٠ ومما لا ريب فيه ان بريطانية كانت راغبة بانهاء الانتداب رغبة العراق ، رغبةً صادقة ، اللهم بعد ان تكون قد أمنت هناك بواسطة المعاهدة العلاقات والمصالح البريطانية ٠

ها هنا حد السلامة ٠ هاهنا تقف الحكومتان امام العقبات التي نشأت عن مسألة الحدود التركيه العراقية ٠ ومع ان نيات الحكومة البريطانية كانت صادقة شريفة في هذا الامر ، فقد اخفقت مساعيها لحسمه مباشرة ، فاضطرت اذ ذاك ان تحيله الى عصبة الامم عملاً بمضمون معاهدة لوزان ٠ وقد عينت العصبة بناء على ذلك لجنة من قبلها ، فزارت العراق في اوائل سنة ١٩٢٥ ، وقضت ثلاثة اشهر تستكشف الحدود الشمالية وتحققها ، وتدرس احوال الاقليات هناك ، وتسمعهم يشكون ويتدللون ٠

وكان الاشوريون اشد تلك الاقليات المزعجة ازعاجاً ، مع انه لم يكن لهم ، في ذلك الحين على الاقل ، ما يبرر الشكوى ٠ بل كانوا ، عكس الامر ، مغمورين بالعطف ، مدلَّلين ٠ عطفت عليهم حكومة جعفر ، ودللتهم حكومة ياسين ، وجاءهم حتى من الملك فيصل الكلمة التي فيها كل الضمان والامان ٠ فقد تعهدت الحكومة العراقية ان تقدم الاراضي لاولئك الذين يضطرون بعامل التحديد الجديد ان يخرجوا من بلادهم ، وان تنشىء ادارات محلية تضمن لهم الحد الاقصى من الحرية في

حزوالة اعمالهم ، وفي المحافظة على تقاليدهم وثقافتهم · وقـد كان لموقف الحكومة العراقية الوقع الحسن في نفس اللجنة ، فخططت مطمئنة الحدود التي ضمنت ولاية الموصل للعراق ·

غضب الاتراك لذلك · وبعد ان أُعلنت الحدود الجديدة التي دُعيت « بخط بروسل » اخترقت جنودهم تلك الحدود ، وهجموا على بعض القرى ، فذبحوا باهلهـا الاكراد والاشوريين ، وتقدموا في اغارتهم جنوباً ، وهم يهددون بالاستيلاء على الموصل · فروعوا حتى عصبة الامم التي عينت لجنة اخرى لاعادة النظر في تلك الحدود · جاءت اللجنة الثانية ، وساحت ، ودرست ، وحققت ، وقدمت تقريرها الى العصبة في جلسة كانون الاول سنة ١٩٢٥

بينما كانت اللجنة قائمة بعملها في الشمال ، انتخب العراق مجلسه النيابي الاول ، ففتحه الملك فيصل في غرة تموز ، وهو مستبشر بهـذه الخطوات التي تقرب منه تلك المحجة القصية بجنيف · فها كم دستورنا ، وها كم مجلسنا النيابي ، وهذه حدودنا الشمالية قد تحددت · فماذا تبتغون بعد ذلك منا ·

سافر الملك فيصل الى اوربه في الشهر التالي ، وهو على توعكه ووهن جسمه ، فرح مبتهج · فقـد راح في هذا الصيف مستشفياً ، ومستكشفاً جو السياسة ، وكان امله ان يصل بالعراق الى العصبة قبل اليوم المنشود · وما المانع ، ونحن نجتاز المرحلة بعد الاخرى بسرعة مدهشة · فراسل وحادث وقابل من لهم النفوذ الاكبر في السياسة الدولية وفيهم المخلصون والمحبون ، وظل على اتصال بهم وهو يستشفي باحدالينابيع المعدنية بجنوب فرنسه ·

بيد ان هناك كذلك ، في حومة السياسة الدولية ، الغير المخلصين والمحبين والغير العاملين في سبيل السلام ، والغير الامرين بالمعروف ، وهم من اصحاب

الامر والسلطان . وقد كان لاصواتهم ولهمساتهم ، وحتى لانغامهم في الجو المضطرب مكان ، اي مكان . فلا بد ان يكون قد سمع فيصل ، كما سمع بطل الرواية مَكبْث(١) بعض اصوات الحقيقة ، في ذاك الصيف ، من فم « بنات الديجور » بنات عم النفاثات في العقد . واخليق بهن ان ينطقن ، ان في هذا الشرق او في ذاك الغرب ، باسم زمان عتُلٍ زنيم .

« المليح قبيح ، والقبيح مليح —
هاتِ الحطب وهاتِ الشيح ،
وانفخي ، وانفخي ، وانفخي يا ريح(٢) . »

ايه ايتها السواحر الشقيقات ، النافخات والنافثات ، ايه بريطانية وتركية وجنيف ، انفخن في النار السياسية ، انفثن في العقد الدولية ، وقلّسن ، قلّسن في غابات الاسرار ، حول النار ، وتنبأن لهذا الملك العربي ، المتحدر من صلب نبي العرب .

فيصل العراق :
النجم بعيد قريب ،
والعصبة اخت الحبيب ،
هات الحطب وهات الشيح ،
وانفخي ، وانفخي ، وانفخي ياريح .

---

(١) هي من روايات الشاعر الانكليزي الاشهر شكسبير ، وفيها مشاهد العرافات اللواتي يدعوهن « بنات الديجور »

(٢) هذا ما تقوله السواحر الثلاث في تلك الرواية ، ومعناه ان ما يراه الناس مليحاً هو قبيح في اعيننا ، وما يرونه قبيحاً هو عندنا حسن . فهل تواردت الخواطر بين شكسبير وصاحب الاية : ولعلكم تكرهون شيئاً وهو خير لكم .

فيصل العرب :
على مغزل العصبة غزل العراق ،
وغزل الشقاق والاشتياق ·

كان مجلس العصبة يدرس في ذلك الحين تقرير لجنة الحدود الثانية ، فاثبت في جلسة كانون الاول ما قررته اللجنة الاولى — أيد خطيروسل على شرط — على شرط — ان تعقد انكلترة والعراق معاهـدة جديدة لمدة خمس وعشرين سنة ! ! « المليح قبيح والقبيح مليح ··· »

كان فيصل قد عاد الى بغداد متشائماً ، ولكنه لم يتوقع مثل هذا الشؤم ومثل هـذه الكريهة · ماذا عدا عما بدا · فقـد اقرت العصبة منذ سنة (في جلسة ايلول سنة ١٩٢٤) المعاهـدة العراقية الانكليزية ، واقرت الملحق الذي خفض مدتها من عشرين سنة الى اربع سنوات · فما الذي جرى خلال السنة ليبرر هذا الانقلاب ؟ وما السبب يا ترى في رفض الملحق ونبذه؟ هل وقفت العصبة هذا الموقف الجديد لخير بريطانية العظمى ام لخير تركية ام لخير العراق ؟ ام هل كانت قد أشربت حب الاشوريين والاكراد فهامت بهم ، واغدقت عليهم خمس وعشرين سنة من بركات الحماية البريطانية ؟

لا شك ان الاقليات في ولاية الموصل كانت يومئذ في حاجة الى الحماية ، وخصوصاً من غوائل الاتراك · ولكن العراق كان مستعداً وقادراً فضلاً عن حليفته العظمى ، ان يقوم بهذه الحماية · اضف الى ذلك ان دستور العراق يضمن لهذه الاقليات كل ما لسواهم في البـلاد من الحقوق المدنية والدينية · فماذا فوق هذا تبتغي عصبة الامم ؟ وكيف تبرر موقفها

الشاذ المحفوف بالغموض ؟ انه لمن الصعب جداً ان ندرك الحقيقة في نيتها واغراضها . فهل هي في عملها انسانية الشعور والاحسان ، تعطف على اقلية مظلومة ، وقل مهددة بالفناء ، وتود ان تخلصها وتضمن لها اسباب العيش والاطمئنان ؟ ام هي في عملها اوروبية النزعة ، مسيحية الشعور ، تفصل بين دولتين اسلاميتين من جهة ، وبينهما وبين دولة مسيحية كبرى من الجهة الاخرى ، فتسمح بالدخول على مقراراتها لاغراض اقلية مسيحية ، او بالحري لاغراض الرؤساء الدينيين لتلك الاقلية واصحاب المصالح من اشياعهم ؟ انه لامهل ان نتغلب على اعتقادنا في صحة الموقف الاول ، من ان نتغلب عليه في الثاني .

ولكن التحليل لا يريح البال ولا يدخل على القلب السرور . حملت بريطانية قرار العصبة الجديد ، وسارعت في تنفيذه . فوصلت المعاهدة الجديدة الى بغداد في اواخر كانون الاول ، فوقعها رئيس لوزارة السعدون بعد ان وعده المندوب السامي الوعود في ما يتعلق بالاتفاق المالي ، وبدخول العراق في عصبة الامم . ثم جاء الرئيس بالمعاهدة الى المجلس ، فتصدت لها المعارضة ، يتقدمها ياسين الهاشمي ، وطلبت ان تحال الى لجنة خاصة للدرس . فرفض السعدون الطلب ، واقترح ان تكون المناقشة سرياً ، فأيد اقتراحه رجال حزب التقدم ، وكانوا قد رفعوا اليه عريضة يلحون فيها بالاسراع في المناقشة . وعندما أُخرج المتفرجون خرج رجال المعارضة ، فلم يبال الرئيس بذلك .

أُقفلت ابواب المجلس ، واستؤنفت الجلسة بكلمة من الرئيس وجيزة صريحة شديدة : — ايها السادة ، اذا رفضنا ان نقر هذه المعاهدة ، خسرنا الموصل . وما زال الامر كذلك ، فلا بأس اذا جاملنا المندوب

السامي في طلبه ، بل في طلب وزير المستعمرات المستر إمري ، وهو ان يتم الاقرار قبل افتتاح دورة المجلس النيابي البريطاني في اول شهر شباط .
كان المجلس ، او ما تبقى فيه بعد خروج المعارضة ، من حزب السعدون ، فبالغ بالمجاملة ، بعد الحوقلة والاتكال على الله ، واقر المعاهدة ، اكراماً للموصل لا للمستر إمري ، في ١٨ كانون الاول ، بما يقارب الاجماع[1] .

وفي هذه المعاهدة عاد الانكليز الى تعديل نص عهدهم الذي يتعلق بدخول العراق عصبة الامم ، فجاء كما يلي : «عندما تنتهي المعاهدة الاولى ، عملاً بالملحق المعقود في شهر نيسان سنة ١٩٢٣ ، وبعد ذلك في كل اربع سنوات متوالية الى ان تنتهي الخمس والعشرين سنة اي مدة المعاهدة الجديدة ، تنظر الحكومة البريطانية في ما اذا كان ممكناً ان تتوسط لادخال العراق في عصبة الامم .» هو المطال والتمحل ، بل هو العهد المنقوض . وقد رُطم العراق وتضعضع ، وامسى الملك فيصل في حال شبيه بحاله في سنة ١٩٢٢ ، بل اشد وانكد . وآحرّ قلباه من قلبه شبمُ ...

ما وهن مع ذلك العزم منه ، ولا ضعفت ثقته بالله وبنفسه . بل كان دائماً يقول : سنسير بعون الله من معاهدة الى اخرى ، وسنظفر بالتي فيها حقنا باجمعه — سنظفر بالمعاهدة التي ستدوم . وبعد بضعة اشهر انعشت اماله وامال العراق المعاهدة الثلاثية — التركية العراقية البريطانية — التي عُقدت في انقره في الخامس من شهر حزيران سنة ١٩٢٦ ، فاعترفت تركية بخط «بروسل» — سلمت للعراق بولاية الموصل .

---

(١) من الثمانية والثمانين ، عدد اعضاء المجلس ، كان تسعة غائبين ، و١٩ من المعارضين الذين خرجوا ، والباقي اي ٥٨ اقروا المعاهدة .

أدب الملك مادبةً رسمية ، احتفالاً بهذا الحدث وتفاؤلاً به ، فخطب خطبةً اعرب فيها عن رغبته الشديدة بالسلم وجيرانه كلهم ، وانه سيبذل ما في طاقته في هذا السبيل . وقد اشار المندوب السامي في تقريره الى هذه الخطبة فقال انه « اعرب عن امتنانه للحكومة البريطانية ، وتقديره لجهود ممثليها في سبيل العراق . »

على ان الحوادث التي تتابعت بعد ذلك وتفاقمت لا تشف عن شيء من روح الامتنان والتقدير . ليصور المندوب صورَهُ السياسية الزاهية الالوان . ليموّه وينمق المحال ما شاء وشاءت السياسة . فان الحقيقة البارزة الناصعة هي ان العراقيين فقدوا الثقة بالانكليز ، فقدوها كلها ، وكان احتقارهم لممثلي الحكومة البريطانية يزداد يوماً فيوماً . احتقروهم نعم ومقتوهم .

وكانت السنة التي عقبت ابرام المعاهدة الاخيرة اظلم ما كان من عهد السر هنري دوبس المظلم . فقد توترت العلاقات فيها بين البلاد والمفوضية ، وتكاثفت صفوف المعارضة للسياسة البريطانية ، وانتشر في البلاد روح عداءٍ للبريطانيين باصرةٌ عاقلة ، فكانت لذلك ابلغ واسرع في تقويض سيادتهم الادبية والسياسية . لا عجب ، وهم هم المخلفون بالوعود ، الناقضون للعهود .

اما المعاهدة فما حلّت من العُقَد كلها غير عقدة واحدة ، هي الحدود التركية العراقية . وظلت الاتفاقات الاضافية ، المالية منها على الاخص والعسكرية ، مفتوحة للبحث ، للمحادثة ، للنزاع . بيد ان وزارة السعدون كانت تنتظر على الاقل تسوية المشاكل المالية وتقويمها في اتفاق جديد . فخاب املها ، واستعفى رئيسها عبد المحسن حرداً ناقماً .

ثابر الملك فيصل وانتدب جعفر العسكري ليؤلف وزارة جديدة . فجاء جعفر يباشر العمل باسم الله ، وباسم التفاهم العراقي البريطاني .
— هم بليتنا ، يا اخي ، ونحن بليتهم . فيجب علينا ان نتفاهم لنحدد في الاقل اجل البليتين .

وكان المندوب السامي السر هنري دوبس قد بدأ يشعر هذا الشعور ، ويدرك هذه الحكمة . لا سيا ان بليته الشخصية أوجبت عليه الاسراع في العمل ، اذ كانت اسبابها تتصل بوزارة المستعمرات التي طالما اصمّت اذنها لاقتراحاته وآرائه . ولكنه توفق في النهاية الى شيء من الاقتناع ، فقبل رئيسه الوزير ان يُعاد النظر في المعاهدات لتعديل بعض بنودها .

بدأت المفاوضات فوراً في بغداد ، ثم فر المتفاوضون هاربين من حر العراق ، واستأنفوا العمل بلندن في الخريف . وكان الملك فيصل قد تقدمهم الى اوروبة ينشد العافية ، ويستوحي عن كثب مقامات السياسة الدولية وارباربها . فحط رحاله على مياه « إكس » المعدنية ، وكان اتصاله بوفد العراق بلندن متوفر الاسباب قريبها . على ان المفاوضات كانت سريعة التطور ، فرأى الوفد ان يكون الملك اقرب اليهم ، فابرقوا بذلك اليه .

غادر الملك فيصل « إكس لِه بان » فعرج على باريس في طريقه الى لندن . ويوم كان في عاصمة الفرنسيس ، قرأ في صحف الاخبار ، في الصفحة الاولى ، مطبوعاً بالحرف العريض ، نبأ جاء من العراق ، من كركوك ، من عاصمة النفط ، ينبئ بالحدث الخطير . ألا ان « بابا كُركُر » لمن المرسلين . « بابا كُركُر » ، بِكرُ الآبار ، ينطق بالخير ، ويبشر بالبركات . فبينما كانت الشركة التركية ، التي مُنحت امتيازها في سنة

١٩٢٥ ، تسبر غور « كُر كُر » وقبل ان بلغت المائة والثمانين قدماً الى قلبه ، انفجر انفجاراً هائلاً ، وقذف بخيره عالياً — مائة وستين قدماً فوق الارض ! « بابا كُر كُر » — « بابا كُر كُر » ! تبارك اسمك وتمجد ! — سيساعدنا نبأك في حل المشاكل والمعضلات · عبر الملك فيصل بحر المانش، وهو سابح في سماء من احلام النفط والاستقلال ·

ولكن لندن عدوة الاحلام ، ووزارة المستعمرات فيها تقرأ انباء « بابا كر كر » وتمضي في امورها · ومن تلك ما كان مهيّئاً لفيصل · فقد صُدم في وزارة المستعمرات ، يوم وصوله ، صدمة عنيفة ، جاءت في مذكرة كانت تنتظره هناك · جاش في صدره الغيظ وهو يقرأ ، ويتأمل خط كاتبها · عرف الخط وتأكده ، فازداد تغيظاً · نعم ، هو خط المندوب السامي السر هنري دوبس نفسه ، وفي كلماته التُهم والتوبيخ · — الملك فيصل يناصب بريطانية العظمى العداء · الملك فيصل لا يمثل العراق بما يفعل ويقول · الملك فيصل يناصر المعارضة ويشجع سراً المعارضين والمتطرفين · ينبغي ان يعلم انه ملك دستوري لا يجوز له ان يتدخل في شؤون الدولة ، فيتركها لرؤساء الحكومة وللبرلمان · ويجب عليه ان يترفع عن المنازعات والسياسات الحزبية · · · سأل الملك معنى ذلك وبيانه فقيل له انه جاءهم في التقارير الرسمية من بغداد ·

ليس في تلك المذكرة ، نظراً الى الزمان والمكان ، شيء من حسن الذوق · وليس فيها ، نظراً الى الاحوال ، شيء من الاصالة والسداد · وهب ان ما جاء في التقارير المبنية عليها صحيحاً ، فهل تساعد يا ترى في انجاح المفاوضات ؟ وهب ان اضطراب الجو كان وقتياً وان حلم الملك فيصل وصبره تغلبا على شعوره ، فكيف السبيل الى التوفيق بين حقائق السياسة

وظواهرها ؟ كيف نستطيع ان نوفق بين معاهدة سنة ١٩٢٢ وبين الاحوال الحاضرة ؟

مما لا مراء فيه ان العراق ، في الخمس السنوات الاخيرة ، تقدم تقدماً يذكر ، سياسياً واقتصادياً ، وان النفقات البريطانية الادارية والعسكرية هبطت هبوطاً جسيماً . [1] ومما لا ريب فيه ان كفاءة العراق للعضوية في عصبة الامم هي أظهر مما كانت يوم رفع اللورد بارمور صوته في مجلس العصبة ، وردد تقرير سنة ١٩٢٥ صداه امام لجنة الانتدابات الدائمة تنويهاً بالعراق ، وتأييداً لمطالبه .

ولكن — ولكن — نظراً الى حكم العصبة بالموصل للعراق ، وتقييد ذلك الحكم بشرط هو ان تمدّد المعاهدة عشرين سنة ، ودفعاً للظنون التي قد يثيرها التعديل او محاولته في نفوس الاتراك ، فيعودون الى المطالبة بالموصل فضلاً عن ان اتهامهم بريطانية والعراق بنقض العهود بعد بلوغ الارب — نظراً الى هذه الامور كلها ليس من مصلحة الحكومتين ان تستعجل الانضمام الى عصبة الامم . بل ينبغي ان نؤجل المسألة الى سنة ١٩٣٢ [2] وستظل في هذا الاثناء العلاقات البريطانية العراقية على حالها .

---

(١) لم تتجاوز النفقات في سنة ١٩٢٧ التسعمائة الف ليرة ذهبية

(٢) النصوص المختلفة للتعهد الواحد هي كما يلي :

« يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بان يتوسط لادخال العراق في عصبة الامم باسرع ما يمكن . » المادة ٤ — معاهدة ١٩٢٢

« ينتهي أجل المعاهدة بدخول العراق في عصبة الامم . ولا يتأخر ذلك في اي حال عن الاربع سنوات من تاريخ عقد الصلح وتركية . »

الملحق للمعاهدة — نيسان ١٩٢٣

« عند انقضاء مدة معاهدة ١٩٢٢ والملحق بها ، تنظر الحكومة البريطانية في

اما الوفد العراقي فقد قاوم هذا التمحل وحاول التغلب عليه ، مصراً على تعديل بعد تعديلاً . فاخفق في محاولاته ومساعيه ، ووقف المتفاوضون امام العقدة التي لا تحل . فغضب جعفر بلندن ، كما غضب قبله السعدون ببغداد ، وحمل حقائبه وارتحل .

وكان الملك فيصل قد عقد النيـة على الرحيل ، لولا فرصة سنحت لاعادة المحـادثة والحكومة . فقد أقيمت له مأدبة وداع ، حضرها بعض الوزراء ، فخطب فيها خطبة بليغة بصراحتها . ومما قال انه يؤثر العودة صفر اليدين على ان يحمل معاهدة لا تفضل التي سبقتها بشيء ، بل هي دونها في بعض موادها . فهز الوزراء رؤوسهم ان صحيح ، واكدوا له بعد ذلك ان الامل لم ينقطع ، وان المأزق قد يتسع للخلاص .

توقف الملك فيصل عن السفر ، وابرق الى وزيره جعفر ، الذي كان

التابع للحاشية الثانية في الصفحة السابقة :

اذا كان العراق قد بلغ الرقي الذي يؤهله للعضوية في عصبة الامم . »

المادة ٣ — معاهدة ١٩٢٦

« اذا استمر العراق في رقيه الحاضر وظلت الامور جارية مجراهـا الحسن ، يؤيد صاحب الجلالة البريطانية في سنة ١٩٣٢ ، ترشيحه لعضوية العصبة . »

المادة — ٨ معاهدة ١٩٢٧

كذلك تتلون العهود وتنتقض . فالعهد الذي قطعه الانكليز في سنة ١٩٢٢ ، عدل في سنة ١٩٢٣ ، ونقض في سنة ١٩٢٦ ، ثم بعث حياً في سنة ١٩٢٧ وهـو مقيد بشرطين . جاء في تقرير الحكومة البريطانية على ادارة العراق لسنة ١٩٢٨ ، صفحة ٢٧ ، ما يلي : « ان هذا التقلب في موقف الحكومة البريطانية بعث الريبة في نفوس العراقيين بحسن نيات انكلترة ، ومكن فيهم الاعتقاد بانها لا ترغب في تأسيس دولة مستقلة في العراق . بل ان قصدها الحقيقي هو ان تستعمر البلاد . »

قد بلغ مرسيلية ، يأمره بالعودة . امتثل جعفر الامر ، فعاد ادراجه ، ثم استؤنفت المفاوضات ، وقُبلت المعاهدة ، دون تعديل فيها يستحق الذكر. فما السبب يا ترى في هذا الانقلاب الفجائي ؟ ما الذي حمل الملك وجعفر على القبول ، بعد ان صرح الاول ذلك التصريح ، واعرب الثاني عن رفضه بالرحيل ؟ هل اعتمد الملك على وعود الوزراء اصحابه ومعها ضمانات وزارية سرية ، ام هل كان الملك مكرهاً .

اقف هاهنا لاقول كلمة فيها بيان شخصي . ليلة كان الملك فيصل يقص عليّ قصة هذه المعاهدة ، او ما كانت قسمته فيها من المفاوضات المفرحة والمفجعة ، من « بابا كركر » في صحف باريس الى تلك المذكرة في وزارة المستعمرات بلندن ، جاءه رئيس الوزارة نوري السعيد بالخبر المسر من منطقة القتال بيارزان ، فتحول الحديث من لندن الى بلاد الاكراد . وما سنحت بعد ذلك الفرص — سنحت الفرص ؟ انما هي كلمة باطلة لا يجوز ان اموّه بها ذنبي . فقد ذهلت عن الموضوع في ما كان بعد ذلك من المجالس والاحاديث ، وما عاد الملك اليه . وقد يكون شريكي في الذنب ، رحمه الله ، فشغلني مراراً عن السياسة بتلك الاحاديث الحافلة بالعبر وباللطائف البشرية .

بيد اني استعين ، وانا اعود الان الى تقصي الحوادث ، ببعض الوثائق والتقارير الرسمية ، عاني استطيع ان اجلو للقراء خبر ذلك الحدث او ازيل شيئاً من غموضه .

اعيد اذن السؤال : هل كان الملك فيصل مكرهاً في قبول معاهدة سنة ١٩٢٧ ؟ يسارع بعض الكتاب والسياسيين العرب ، في مثل هذه

الاحوال ، الى اتهام الحكومة البريطانية بالمكر والخداع ، دون ان يتحققوا الحوادث ، ودون ان يثبتوا التهم . وقد قالوا في الحادث الذي نحن بصدده انها اثارت عرب نجد على العراق في ذلك الحين لتنفذ سياستها فيه ، لتجبر الملك فيصلاً على قبول المعاهدة . وفي ظاهر الامر ما يبرر الظن على الاقل . فقد اغار عرب نجد على العراق في خريف سنه ١٩٢٧ ثم في شتاء السنة التالية .

ولكن ذلك لا يثبت الحقيقة كلها . فهل كان عرب نجد ، او بالحري هل كان الملك عبد العزيز ابن سعود مدفوعاً من الحكومة البريطانية في تلك الاغارات لاكراه العراق واذلاله ؟ اذا لم يكن الامر كذلك فكيف اتفقت يا ترى تلك الاغارات وانقطاع تلك المفاوضات بتاريخها الواحد ؟ فهل هي الصدف ، هل هي الاقدار التي أضرمت النار على حدود العراق عندما كان جعفر يتجهز للرحيل ؟ فاذا كانت الصدف او الاقدار بريئة من هذا الاثم ، فهل الانكليز بريئون ؟ واذا لم يكونوا بريئين فكيف نستطيع ان نثبت ذلك ؟ وهب ان الامر لا يحتاج الى الاثبات ، وهب اننا قبلناه على ظاهره ، فهل الانكليز وحدهم ملومون ؟ أوليس اللوم الاكبر على العرب الذين يقبلون بان يذلوا اخوانهم العرب لاعزاز الاجنبي ؟ اني اجل ابن سعود عن مثل هذه المعرات . وان الحقائق الراهنة في هذه المسألة لا تبرر حتى الظنون . فقد كان لحوادث نجد واغارات اهله اسبابها النجدية العراقية — وكان للانكليز كذلك يد فيها . ولكن الصلة مفقودة بين سياسة الامن وسياسة المعاهدات . وبكلمة اخرى ان للسلسلة التي تربط البادية بوزارة المستعمرات حلقة مفقودة ، ولا نظنها ، في ما يتعلق بموضوعنا

موجودة[١] .

اما الملك فيصل فاني اميل الى الاعتقاد انه كان يجاري الوزراء اصحابه ويتبع في الوقت نفسه سياسة خاصة به ، فيوصل الخيوط ويقطعها عملاً

(١) اني مثبت الحقائق التاريخيه في ما يلي :

ا ــ ما رضي عرب مطير بالحدود النجدية العراقية المقررة في معاهدة العقير (تشرين الثاني سنة ١٩٢٢) وقد احتجوا لدى ابن سعود وتحاجوا مراراً بخصوصها.

ب ــ قررت الحكومة العراقية بناء مخفرين عسكريين ، واحد في ابي الغار والاخر في البصية للمحافظة على تلك الحدود ومنع الغزوات بين البلادين .

ج ــ قلق عرب مطير وهم يرتادون الاماكن المجاورة للمخفرين وما دونها في الايام المجدبة ، وخافوا ان يفقدوا ما يدعونه حقاً شرعياً ــ تقليدياً ــ فرفعوا امرهم الى ابن سعود فاحتجت حكومة نجد (في ت ١ سنة ١٩٢٧) على المخفرين بحجة انها يحدثان الاضطراب فضلاً عن انها يخالفان المادة الثالثة من معاهدة العقير.

د ــ بعد شهر ونصف من احتجاج حكومة نجد (في ٢٥ ت ٢) اغار عرب مطير على مخفر البصية واكتسحوه .

هـ ــ قبل هذه الاغارة بيوم واحد ارسل ابن سعود وزيره الشيخ حافظ وهبه الى الكويت بالطيارة ليحضر المؤتمر المقصود عقده هناك لبحث المسائل التي تتعلق بالحدود النجدية العراقية، ولكن غزوة البصية حدت بوكيل المندوب السامي الى تأجيل المؤتمر .

و ــ في اوائل ك ١ اغار عرب نجد على القبائل العراقية في لواء الناصرية .

ز ــ وفي ١٣ ك ١ قبل ان وقعت المعاهدة البريطانية العراقية بيوم واحد هاجم سرب من الطيارات الانكليزية اولئك العربان كما فعل قبلاً في غزوة الشهر السابق .

ح ــ اعاد عرب نجد الكرة مرتين بعد توقيع المعاهدة ، اي في شهري ك ٢ وشباط من سنة ١٩٢٨.

ط ــ اضف الى ذلك ان فيصل الدويش شيخ مطير كان ثائراً كما برهنت الحوادث على ابن سعود لمطامع شخصية سياسية . وان ابن سعود في قمع ثورة الدويش والقضاء عليه لم يكن مدفوعاً بغير مصالحه ومصالح بلاده .

بتطور الاحوال . اذ كر كلمة بليغة لاحد العرب وفيها حكمة رائعة :
غلبتمونا ولكنكم جهلتم اننا شئنا هذه الغلبة لكم . ولا عجب اذا انتهج
الملك فيصل هذا المنهج ، بعد تلك الوليمة ، وهو متيقن انه سيرطم الانكليز
برطمة المعاهدات التي تتابعت السنة بعد السنة ، فتزداد العقد تعقيداً ،
ويقنطون اذ ذاك من الغلبات الغير مفيدة .

وكان بعض السياسيين قد بلغوا هذه المرحلة ، فقامت صحافتهم تندد
بالحكومة -- هي ذي الدعاية التي رحب فيصل بها — فقالت ان الحالة
امست لا تطاق ، وانها « من انكر الحالات في العلاقات الدولية الحاضرة . »
وعندما يرفض المجلس النيابي العراقي المعاهدة غداً ، فماذا عساها ان تقول
في « الحالة المنكرة ؟ » — اذن سنورد هذه المعاهدة حتفها ، سنشيعها
الى القبر . وسيكون في الجنازة النصر الباهر للمعارضة — للبلاد ! .

اما الحكومة البريطانية فقد اعدت كذلك العدة للعمل ، وكان المفوض
السامي السر هنري دوبس متأهباً للسفر والجهاد . واحد يريد دفن المعاهدة
وآخر يريد تتويجها . انتقل المسرح من لندن الى بغداد ، وجاء المتصارعون —
الملك وجعفر والسر هنري — يستأنفون الصراع . من مدينة الضباب
جاءوا الى مدينة الغبار — وفي الحالين حالَ الستار ، دون الابصار .

ما كان المندوب السامي ليطمئن الى وزارة جعفر فباشر لابدالها
بوزارة اخرى ، ولو كان له ان يرى شيئاً من مناورة جعفر الاولى لكفى
نفسه مؤونة المناصبة . جاء جعفر بالمعاهدة للدفن لا للتتويج ، واول ما كان
من مناورته ، عند وصوله بغداد ، انه اذاع مضمونها ، فاثار عليها الرأي
العام . حملت عليها الصحافة حملات شديدة ، وقامت المعارضة تندد بها
وبالوزير حاملها . رمى جعفر بالمعاهدة الى الامة تمزقها قبل ان تصل الى المجلس ،

وهو يضحك في سره ، ثم استقال . وقد عدت استقالته النصر الاول للسر هنري دوبس .

ثم دعي عبد المحسن السعدون لتأليف وزارة جديدة . وعبد المحسن صديق الانكليز . كيف لا وهو الذي حمل المجلس منذ سنة على اقرار المعاهدة الاخيرة . لبى عبد المحسن الدعوة ، فعُد ذلك نصراً ثانياً للسر هنري .

وهذا البرلمان لا يعوّل عليه فينبغي ان يُحل . وكان عبد المحسن يرى هذا الرأي فحل البرلمان ، وفاز السر هنري فوزه الثالث .

ثم جرت الانتخابات ، وكان لحزب التقدم (حزب السعدون) الاكثرية الساحقة في المجلس ، الذي اجتمع في ايار سنة ١٩٢٨ . فتم النصر للسر هنري دوبس .

اما الملك فيصل فقد سار في الوقت ذاته سيره ، ودبر تدبيره . أليس السعدون وزيره الاول ، وزيره لا وزير سواه ؟ أوليس هو فضلاً عن ذلك من اشراف العرب ، ومن كبار الوطنيين في العراق ؟ والزعيم الاول المهيمن على حزبه ، الممتع بثقة انصاره ؟ كان السر هنري عالماً بذلك ، وعالماً فوق ذلك بامور كثيرة . ولكنها فاته الشيء الذي فيه العلم كل العلم . وهو ان صديقه السعدون قد غيّر خطته السياسية ، فلا يرى الان من حاجة الى الضغط على المجلس . بل لا يرى ان يعرض المعاهدة عليه قبل ان يتم تعديل الاتفاقين المالي والعسكري . وهو اذا اصرّ على ذلك يكفي نفسه شر المعاهدة ، فتظل مدفونة في مكتبه . ذلك لان في الاتفاقين عقداً عصى حلها اسلافه وسلف السر هنري . وما كانت شروط الحكومة البريطانية هذه المرة اخف مما سبقها . فقد قيدت ملكية العراق لميناء

البصرة ولسكة الحديد بقيود ثقيلة ، وتمحّلت على عادتها في مسألة التجنيد الاجباري ٠

تلبد جو المفوضية بالغيوم ٠ فقد تمردت لجنة المجلس المعينة لدرس الاتفاقين ، فضربت باقتراحات المندوب السامي عرض الحائط ٠ وتمردت الوزارة ، فأصرت على تعديلٍ كليٍّ جوهريٍ ، وتمرد المجلس الذي اصبح حزب التقدم فيه — حزب السعدون — اشد تطرفاً من المتطرفين انفسهم ٠

صُعقت المفوضية ٠ تبلبل السر هنري دوبس ٠ فالاذعان لارادة العراقيين مستحيل ٠ والرد لمطالب العراقيين خيبة له ، هو الطامع الآمل بابرام المعاهدة ٠ فعمل المكره عليه ، قبل بالخيبة ٠ ثم استقال السعدون ٠ وقد كان النصر الاكبر ، في رفض المعاهدة والاتفاقين ، للأمة وللبلاط ، فهتف الملك بشكر الله وحمده ٠

ولكن الحساب لم ينتهِ بينه وبين المندوب السامي ٠ فلا يزال هناك دَين صغير — تلك المذكرة في وزارة المستعمرات ، المكتوبة بخط يده ، لم ينسها الملك فيصل ٠ وعندما سقطت وزارة السعدون (كانون الثاني ١٩٢٨) واخفقت المساعي المكررة لتشكيل وزارة جديدة ، واقبل السر هنري الى البلاط يطلب مقابلة الملك ، حان وقت الحساب ٠

السر هنري : « البلاد بلا وزارة ، يا صاحب الجلالة ، وهي تنتظر ان تعينوا من يؤلفها ٠ »

الملك فيصل : « ولكني ملك دستوري ، وعلى الملك الدستوري ان يلزم الحياد »

وعندما جاء المرة الثانية بالمهمة نفسها ابرز تلك المذكرة وقال :

« هذا ما تريده انت يا حضرة المندوب . يجب على الملك الدستوري ألا يتدخل بشؤون الدولة [1] . أليس كذلك ؟ ان شؤونها الآن بيدك ، ولك ان تعين من تشاء . »

مرت ثلاثة اشهر ، والبلاد بلا وزارة ، والملك فيصل في موقفه لا يتحول عنه . فانكسفت المفوضية بعد انهزامها مرتين متواليتين ، واستُرجعت المعاهدة التي كانت اصل الازمة ، وحانت ان تنتهي مدة السر هنري دوبس كمندوب سام في العراق ، فانتهت قبل اوانها . وكان من الممكن ان تنتهي باوانها وبسلام .

---

(١) « بعد ان أعلن الدستور اخذ الملك فيصل يتجنب التدخل اكثر من اللازم بشؤون الدولة . » — السر هنري دوبس ، في رسائل غرترود بل ، صفحة ٥٥٤ .

الفصل السابع

فوز الملك فيصل

في الهجوم العام يزحف الجيش بقواته كلها ، فتكثر فيه الاصابات والاستشهاد . وشبيه بذلك الحكومتان البريطانية والعراقية في ما بذلتا من الجهود الشديدة ، خلال سنة ١٩٢٨ ، لتخرجا من خنادق الماضي واوحاله ، ولتتقدما فتصعدا الى قمة النصر — الى عصبة الامم . فقد كان الاستبسال ، والاستشهاد ، وكل ما يصحب الواقعة الفاصلة من الهول والبلاء . علَتْ وزارات وهوت في بغداد . انهزم المحافظون ، وفاز العمال في حومة الانتخابات بلندن . مزّقت السياسة كتباً من ثقاليد الجدود ، وضحت بكتائب من جيش التقهقر والجمود . قضى عميدٌ في النضال ، وانتحر وزير إبان القتال . ذُللت عقبات ، وجُددت خصومات . وكل ذلك في اثناء سنة واحدة ، وكل ذلك لمجد العراق وبريطانية العظمى .

قد يكون في قولي « المجد » شيء من الخيال الشعري . ولكن الحقيقة في اباطيل الامم هي اغرب من الخيال . وهي تتخلل تارة اشد النزعات الوطنية، والعُنجهيات القومية ،وطوراً تبعث في الامم روائع الاوهام . ومن هذه الاوهام ما يتعلق بالعقل الشرقي . اسأل الغربي رأيه فيه

يجيبك قائلاً : انه بعيد الغور ، كثير الكهوف والتعاريج ، حاجبه التجمل ، وحجابه الغموض ، وقلبه متلبد بالاسرار . فلا عجب اذا عجز عن كشف كنهه الالباء ، وخصوصاً منهم الغربيون . وما هي يا ترى الحقيقة ؟ اذا انت أضأت لدى هـذا العقل نور الاحسان والمعروف ، اذا انت دنوت منه والقلب منك مشرق بالنبل ، والنية منك صافية طاهرة ، يبدو في الحال جلياً قويماً في تبسطه وفي سذاجته ، فتتيقن انه مثل عقل اي كان من كرام الناس في العالم اجمع .

ومن تلك الاوهام ان الامة العظيمة ، الكريمة الاحساب والانساب ، انما هي كذلك لان اغوارها لا تدرك ولا تحد . او ان الناس يسيئون فهمها ، ولا يدركون سر عظمتها ، لانها ارفع شأناً ، واكرم حسباً من سواها . ويتبع هذا المنطق زعمهم ان العداوات والحروب تنشأ كلها عن هذا الجهل او هذا العجز في الادراك والتقدير .

انما الحقيقة عكس ذلك . فقد يندر ان تقوم الحرب بين امتين دون ان تكون كلتاهما عالمة كل العلم او جله بقوى الاخرى وبمواطن الضعف فيها ، ولا سيما بالاسباب المادية والمعنوية التي تتعلق بالضعف والقوة . واذا كان هناك شيء من الغموض ، اذا كان هناك حجاب من الاسرار ، فهو في عقل الحكومة ، لا في عقل الامة ، هو في دوائر الاستخبارات الرسمية ، لا في عقليات الشعوب .

يوم القى المؤلف محاضرة عن البلاد العربية في الجمعية الاسيوية بلندن كان السر غلبرت كلايتون [1] رئيس الحفلة ، فتكلم في الختام وقال : « لست من الذين يعتقدون ان في العقل الشرقي شيئاً غير عادي . فالشرقي

(١) Sir Gilbert Clayton

هو مثل غيره من الناس يجب ان يعامل بلطف واكرام، وهو يرتاح للصدق والاخلاص . » اني انقل هذه الكلمات لما فيها من المغزى الخاص بما تقدم من الموضوع . فقد القيت المحاضرة في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٨ ، وكان قد تعين السر غلبرت كلايتون مندوباً سامياً في الشهر السابق ليخلف السر هنري دوبس في العراق . اني لذلك انقل كلماته الاخرى وان كانت شخصية لان فيها رسالةً لابناء بلاده . فقد قال تلك الليلة : « ان في محاضرة السيد الريحاني غذاءً للفكر والتبصر في موضوع قريب من قلبه ، وهو وان لم يكن قريباً كثيراً من قلوبنا جدير بان يدخل العقول . » [1]

اما السر غلبرت فقد تغلغل الموضوع في عقله وقلبه معاً . وبعبارة أدق اقول انه تغلغل في عقله ، ودخل على قصدٍ الى قلبه . فقد كان ذا علم جم بالعرب والبلاد العربية . وكان لعلمه جناحان من الحب والحماس ، فاستطاع ان يحلق والوطنيين في سماء الاماني والآمال دون ان يفادي بعقيدته ، وان يعود بهم الى ارض الحقائق العملية دون ان يفقد ثقتهم به . ومن جميل يقينه ، وبليغ حكمته ، ان اقصى الاماني الوطنية تتكيف لتلتئم والمصالح البريطانية ، اللهم اذا روعيت فيها كرامة الوطنيين .

عندما وصل الى بغداد في اوائل اذار من عام ١٩٢٩ كان الجو السياسي في اشد مظاهر الخوف والريبة والخطر . فما زالت البلاد بدون وزارة ، وما زالت الازمة في اشتداد . وقد كان العراقيون ، على اختلاف مطالبهم ونزعاتهم ، يشكون كلهم من المستغربات والمناقضات في سياسة الانكليز واحوال البلاد . فأين السيادة الوطنية من الانتداب ؟ واين الجيش الوطني وامره في الحقيقة بيد المندوب السامي ؟ واين الوزراء

---

(١) مجلة جمعية آسية الوسطى الجزء ١٦ صفحة ٥٤

المسؤولون قانونياً لدى المجلس ما زال المستشارون البريطانيون في الوجود ؟ وهذا الجيش الضعيف الذي نريد ان نقويه بالتجنيد الاجباري ، والتجنيد الاجباري غير ممكن بدون جيش قوي . وهذه الحكومة التي يحق لها ان تعلن الاحكام العسكرية لا يحق لها ان تنفذ تلك الاحكام . وهذه الحكومة المتولية ادارتي ميناء البصرة وسكة الحديد العراقية ، ولا تملكهما . وهذه الحكومة التي تدفع نصف نفقات المندوب السامي وديوانه دون حق البحث او السؤال . وبعد ذلك كله ، هذه الحكومة العراقية التي يزدريها الانكليز ، وهذه الامة العراقية التي يعبث الانكليز بمقدراتها . لولا ذلك لما كان هذا التلون منهم ، وهذا التقلب في وعودهم وعهودهم .

ان اول هذه الوعود واهمها في نظر العراقيين التوسط لدخول العراق في عصبة الامم . فقد قال الانكليز في وعدهم الاخير : « اللهم اذا استمر العراق في رقيه ، وجرتِ الامور مجراها الحسن » . هذا التلون الاخير في الاحتياط دخل على القلوب فافسد ما تبقى فيها من حسن النية والامل ، بل زاد بما فيها من الغل والشنآن . فقال العراقيون : لقد خاننا الانكليز . وقال بعض الانكليز انفسهم : كدنا بسياستنا نقضي على ثقة العراقيين بنا[1] .

كان السر غابرت كلايتون سريع الادراك ، سريع العمل . وقد ادرك ان الشكوى الاخيرة هي مفتاح المعضلة المحيرة للالباب ، فانتهز الفرصة السانحة لحالها . اقدم على العمل الذي يضمد جروح الكرامة العراقية ، فيعيد الى قلوب العراقيين الثقة بالانكليز .

---

(١) « ان تهمة الوطنيين العراقيين ايانا بنقض العهود لا تخلو من الحق . » السر هنري دوبس في The Empire Review عدد ايلول سنة ١٩٢٩ .

ولكن الشكوك ظلت سائدة حتى في البلاط . وقبل ان اقدم الملك على تجديد المفاوضات اراد ان يسبر غور عقلية المندوب السامي . فما هي مثلاً سياسته العربية ؟ ما هي الصلة التي تجمعه بابن سعود ؟ فقد افلحت مفاوضاته في الحجاز وعقد والملك عبد العزيز باسم الحكومة البريطانية معاهدة ولاء ، بل معاهدتين . لم يكن الملك فيصل ليهتم لهذا الامر في غير تلك الاحوال ، وخصوصاً ان العلاقات التجدية العراقية كانت لا تزال متوترة . فقد قاسى كثيراً من حسن الظن ، وكان عليه ان يرعى الحديث : ان سوء الظن من حسن الفطن .

لذلك باشر العمل متئداً . فكانت الوزارة الاولى ، التي تألفت بعد وصول السر غلبرت كلايتون بشهر واحد (٢٨ نيسان سنة ١٩٢٩) تجربةً من التجربات ، وكان توفيق السويدي رئيس الوزارة مثل الجندي الذي يُرسل الى ما دون خطوط النار للاستكشاف .

اما السر غلبرت فما عتم ان كشف امره اذ قال في خطبةٍ له : « قبل ان تنتهي مدة وظيفتي آمل ان ارى العراق متبوئاً الكرسي الذي هو جدير به في عصبة الامم . » ثم مكّن قوله في المذاكرات والوزارة الجديدة ، فاعرب عن رغبته الصادقة بتأييد العراق في مطالبه ، وخطا الخطوة التي فيها كل اليقين وكل الاطمئنان ، اذ ارسل الى حكومته بلندن يقترح عليها ان « تلغي الشرط الذي يقيد وعدها بالتوسط لدخول العراق في عصبة الامم . »

خلال ذلك كانت الازمة السياسية في انكلترة قد انتهت بانهزام الاحرار والمحافظين وبفوز العمال ، فعاد المستر رمزي مكدونلد (في ٥ حزيران ١٩٢٩) الى الكرسي الاول في الوزارة . اذن ستنظر حكومة

العمال في اقتراح السر غلبرت . ومع ان الملك فيصل ورجاله لم ينسوا ما كان من تحفظ وزارة العمال السابقة في صيف ١٩٢٤ ومن تذبذبها ، فقد توسموا الخير في الانقلاب السياسي الجديد ، و في رجوع العمال للحكم ، واخذ الجو السياسي في بغداد ينكشف وينجلي .

ولا عجب . ان خمس سنوات من زماننا هذا ، لتغير في طباع الاحزاب السياسية ، ان لم يكن كذلك في مبادئها . انتفضت آمال العراقيين وحلقت عالياً ، ورأى الملك ان الوقت قد حان لتغيير الوزارة السويدية ، التي إستقالت في اواخر شهر آب . ولكن عبد المحسن السعدون ، الذي دُعي لتأليف وزارة وطنية قوية ، تتمكن من معالجة الامور في تطورها الجديد ، ابى ان يفعل قبل ان تقبل الحكومة البريطانية اقتراحات المندوب السامي .

نظرت تلك الحكومة في الاقتراحات نظرة جديدة ، فبدت لها هذه المرة في غير وجهها السابق . او بالحري بدأت الحكومة ترى ما فيها من العدل والانصاف ، والحكمة الناضجة . وقد تيقنتْ ان العراق تقدم تقدماً يذكر في السنوات الخمس الاخيرة ، فظهر التحسن خصوصاً في ادارته المالية وفي الامن العام . لذلك كان جوابها صريحاً ، جلياً ، مقنعاً . فقد تضمّن الوعد الشافي الغير المقيد بشرط ما ان ترشح العراق للعضوية في عصبة الامم في عام ١٩٣٢ ، وان تعلم مجلس العصبة بذلك في جلسته المقبلة ، كما انها قررت العدول عن معاهدة ١٩٢٧ .

على ان الاقدار ، واأسفاه ، قضت بان لا يرى السر غلبرت كلايتون نتيجة سعيه الاول في سبيل العراق وبريطانية العظمى . فقد صُرم حبل حياته قبل ان يجتاز المرحلة الاولى من المشروع الذي تصوره لنفسه . مات فجأة في بغداد ، وهو في الخامسة والخمسين من سنه ، مات في ١١ ايلول ،

قبل ان يصل الجواب من لندن بثلاثة ايام ، فخسر الانكليز سياسياً من سياسييهم المقتدرين النزيهين ، وخسر العرب صديقاً كبيراً مخلصاً .

قد يصح ان تقول ان السر غلبرت كلايتون لم يكن اكثر علماً بالعرب والبلاد العربية اكثر من اسلافه ، ولكن علمه كان مشفوعاً بالعطف النزيه ، وبالفكر الوثاب . اما حبه للعرب فما كان مبنياً على مجرد النظريات ، او مجرد العواطف ، كما هو عند بعض المستعربين ، ولا كان مقيداً بالمصالح الشخصية او الجنسية او الدينية كما عند البعض الآخر ، بل كان مرتكزاً على ثلاثة اركان هي العلم والخبر والعطف الشريف . وكان فوق ذلك مشرباً بروح الحكمة التي اشرت اليها في ما نقلته من كلامه . كان صادقاً نزيهاً ، كما كان حراً كريماً . بعث في النفوس الثقة دون ان يكن للرقي العداء . وبكلمة المقامر البسيطة ، كان يلعب على المكشوف . له جرأة في الثبات على يقينه والافصاح عنه ، وله مع اليقين مثل اعلى ما خشي ان يستهدف من اجله . قال الاستاذ طوني[1] : « لقد كان فوزه باهراً في المدة القصيرة ، في الستة الاشهر ، التي تولى فيها اعمال المفوضية ، قطبع تاريخ العلاقات البريطانية العراقية بطابعه ، وادخل العراق في طور التحسن الدائم . »

لا ننكر ان تطور الاحوال اسعف مسعاه . ولا يفوتنا ان نذكر ان سلفه السر هنري دوبس اقترح على وزارة المستعمرات اقتراحاً شبيهاً باقتراحه . بيد ان مرجع الاول كان وزارة عمال تجنح ، ضمن دائرة معلومة ، الى البدع السياسية ، ومرجع الثاني وزارة محافظة ، رأسها يابس وقلبها متحجر .

(١) كتاب مراجعات الشؤون الخارجية لسنة ١٩٣٠ صفحة ٣٢١

وهناك فرق آخر . كان السر هنري دوبس في جرأته السياسية والادبية يسير الى حد ولا يتعداه ، فيعرب عن ارائه بصفته الرسمية لحكومته ولا يجهر بها في البلاد التي اضطربت شؤونها في عهده . واني على يقين ان ان مجمل امره كان بيده ، لا بيد الوزارة بلندن ، ولكان تغلب على كثير من الصعوبات ، وذلّل الكؤود من العقبات ، لو انه صارح العراقيين ، ورعى لهم شيئاً من الكرامة القومية . ان المقارنة تسيء في بعض الاحيان وتجرح ، ولكني حباً باظهار ما حسن من نياته انقل ما يلي من مقاله في المجلة التي اشرت اليها[1] :

« رفعت مطالبهم (الضمير يرجع الى العراقيين) بكاملها الى الحكومة البريطانية . وقد كنت اميل الى الاعتقاد ان لا ضرر للمصالح البريطانية ولا للمصالح العراقية ، اذا عُقدت معاهدة معدلة تبطل انواع الاستيلاء البريطاني الرسمي كلها . وقد ادركت منذ البدء ان الحكومة العراقية هي مخلصة في ولائها ، ومقدرة للمشورة حق قدرها ، اللهم اذا لم تجئها بصورة التحكم . وما شككت قط انها تعمل بالمشورة راضية شاكرة ، اذا ما جرّدت من الواجبات التي تفرضها المعاهدة . فان خُففت القيود الظاهرة ، تمكنت القيود الحقيقية . »

لو صرح السر هنري دوبس بهذه الاراء على صفحات الجرائد ببغداد بدل ان يبعث بها الى وزارة المستعمرات لتخزن هناك ، لسهل لنفسه سبيل العمل النافع لبلاده وللعراق . فقد كان ولا مراء رجل اداري مقتدر ، حازم . بيد انه زاد بمصاعبه ، وبنفور الناس منه ، في ما كان من تدخله ، الواجب والغير الواجب ، باعمال الحكومة . وقد كان في بعض الاحايين ،

---

[١] راجع الشرح في صفحة ١٢٩

مستأثراً مستبداً . فيقف موقف الحاكم بامره ليوطد « الاستيلاء الرسمي » ، ليفرض « المشورة » فرضاً ، ليعطي « صورة التحكم » رهبتها ، ليمكن « القيود الظاهرة » مهما كانت عرضية . أسموه في بغداد « الجبار » وهو عكس ما كان عليه السر غلبرت كلايتون قولاً وعملاً . فلا عجب اذا شكرت بغداد الله على رحيل الاول ، واسترحمته تعالى للثاني .

وقد كان الحزن في البلاط حزنين . حزن الملك فيصل لما نعي له السر غلبرت ، وحزن لما جاء الجواب بالايجاب من حكومة لندن . ولا يُستغرب اذا ما سبق الحزن الفرحَ الى قلبه وهو الكريم الشيم ، الرقيق الشعور . فعندما جاءه الخبر بذلك الجواب قال متأسفاً : « لو ان الله امد باجل المندوب ليرَ بعينه ، قبل أن يُغمضها الموت ، قبول حكومته بما اقترحه من اجل العراق . »

عندما اعلن جواب الحكومة البريطانية اهتزت اليه البلاد من اقصاها الى اقصاها . وذلك الجو السياسي الخبيث ، المفعم بالريبة ، المثقل بالغل ، غدا رائقاً نقياً ، مشرقاً بالامال ، متموجاً بالثقة ، متألقاً بالسرور والارتياح . لله هؤلاء الشرقيون ما اسرعهم لتقدير حتى الاشارة من اللطف والمعروف ، وما أكرمهم فيه . وان هذا الكرم وذاك التقدير لمن تراثهم القومي والادبي . فاذا ما رقص القلب طرباً ، واهتزت العواطف عرفاً بالجميل ، اذاعت الاقلام آيات الحمد ، ونثرت الالسن درر الثناء .

كان رئيس الوزارة عبدالمحسن السعدون في طليعة المبتهجين الناطقين بالحمد والتسبيح . فقد افتتح اول جلساته (١٩ ايلول) بخطبة رائعة مجنحة ، وهو فخور ان وزارته هذه تمثل البلاد كل التمثيل ، ومتيقن ان ستكلل اعمالها بالفوز الباهر . صدقت كلمته الاولى لان الوزارة تألفت من

الاحزاب السياسية كلها . ولكن رحى الحرب انما هي في البلاط ، يديرها الملك ويشرف عليها . فقد شاء ان تكون هذه الوزارة اقوى ما تقدمها ، أعمها نفوذاً وصولة ، فكان من اعضائها ياسين الهاشمي ، زعيم المعارضة ، وناجي السويدي ونوري السعيد ، وكلهم قلب واحد وفكر واحد في الرغبة بالتعاون والحكومة البريطانية ، كلهم متيقنون ان ستتوفق المفاوضات هذه المرة ، وسيفوز العراق سنة ١٩٣٢ بما يبتغيه .

بيد ان الاقدار استمرت في تمردها . وما لبث المتفاوضون ان علموا ان قلب المسألة لم يتغير تغيراً يذكر . فقد كانت الحكومة البريطانية تظن ان وعدها المطلق بالتوسط لدخول العراق في عصبة الامم يحمل العراقيين على قبول المعاهدة الجديدة، وان كانت بمضمونها لا تختلف كثيراً عما تقدمها . فضلاً عن ذلك قد اختلف المتفاوضون مقاماً ومزاجاً . فالذي مثل المفوضية اي المفوض السامي بالنيابة ، لم يكن بامكانه ان يحل او يربط ، بل كان عليه ان يبلغ الحكومة العراقية آراء بل مشيئة حكومته المتعسفة . كان « جباراً » بالنيابة ، يثير الاحلام ولا يسودها . وكانت الوزارة في ما سوى فكرة التعاون التي مر ذكرها ، على تباين في العقليات والنزعات . رئيسها عصبي المزاج تارة تخمد ناره ، وطوراً تحتدم . وياسين الهاشمي جنديُّ المنهاج ، يضرب عندما تسنح الفرص ضربته القاضية ، وناجي السويدي فقهي الروح غزير المادة ، كثير البوادر القانونية .

اضف الى هذا ان العقبات الثلاث الكأداء كانت لا تزال قائمة في طريق المفاوضات . وهذه العقبات هي الاتفاق المالي ، والاتفاق العسكري ، وقوة الطيران البريطانية في العراق . فالوطنيون المتطرفون ، يتقدمهم ياسين ، استمروا يحاجون بخصوص ملكية مرفاء البصرة وسكة الحديد

العراقية وثمنها ، وأصروا على التجنيد الاجباري بمساعدة القوات البريطانية اذا اقتضى الامر ، وظلوا يعترضون على انشاء قوة بريطانية للطيران في العراق ، لان ذلك ينافي السيادة الوطنية والاستقلال ٠

اما الرئيس عبد المحسن فقد كان يرى ، في ساعاته الهادئة ، رأيه السديد في التطرف واضراره ، ويحاول ان يبني جسراً للعبور بين وزارته والمفوضية ٠ وكان في بعض الاحايين يرى عجز المفوضية او ترددها في التعاون ، فيخرج عما ملك من نفسه ، محتدم الغيظ ، منددا مهدداً ٠ فأثار عليه المتطرفون والانكليز معاً ٠

وقد فاته وفات زملاؤه ان عصبة الامم نفسها تحسن التذبذب ٠ فقد ترفض قبول العراق عضواً فيها بالرغم من توسط بريطانية العظمى ٠ هذا الوجه الجديد من وجوه التمحل عرضه المندوب السامي بالنيابة — «الجبار» بالنيابة — فزاد في الطين بلة ٠ فغمز السعدون قناته في احدى المحادثات ٠ وقد ذكّره في جلسة اخرى بان عبدالمحسن السعدون هو الوحيد من وزراء العراق كلهم الذي وقف في احرج المواقف دفاعاً عن الانكليز ٠ وما كان « الجبار » بالنيابة ليرعوي ٠ فازداد سخط عبد المحسن ، وفي مجلس الملك فيصل ذات ليلة ، ضرب المائدة بيده وهو يقول للمندوب السامي بالنيابة : « لا اقبل هذا منك ٠ واني اذكرك بانك تخاطب رئيس الوزارة العراقية ٠»

الا انه استمر في سعيه لاقناع المتطرفين ، وإلانة جانبهم ، فكان يجادل ويجامل فيحسن الحجة ويحسن النصح ٠ وكان عند تشبثهم بالغير المعقول يعصف ويزمجر ويرتعد ٠ تنازعت في صدره الوطنية والحقيقة ، بل تنازعته حقيقة الوطنية نظراً وعملاً ٠ وكفى بالمرء هذا الاضطراب وهذا الشقاق الداخلي ، خصوصاً اذا كان حاد الطبع ، عصبي

المزاج . اضف الى ذلك ما جاءه من الخارج مما زاد في محنته . فقد حملت عليه صحافة بغداد حملات منكرة ، وتكاثفت حوله غيوم المفوضية ، وهي مثقلة بالغل والشنآن .

اجل ، كان السبيل سبيله يزداد كلما تقدم فيه غلظة وشدة وظلاما . فصار يسمع اصواتاً تناجيه ولا تؤاسيه . سمع همس الباطل ، وسمع همس القدر ، بل رأى نفسه بين حجري الرحى ، اسيء الواجب والشرف ، ولم يكن في امكانه ان يرجع ، ولا ان يتقدم . تقطعت في صدره اوصال العزم والايمان . اوقفه العجز واستولى عليه القنوط . فاذا كان لا يستطيع ان يسكت المنددين به من ابناء وطنه ، والمتحاملين عليه من الانكليز ، أفلا يستطيع ان يسكت قلبه ، ان ينزع منه لسان الحياة . لقد سأل نفسه غير مرة هذا السؤال . وفي ١٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ اجاب عليه جواباً فاصلاً نهائياً .

حدثني الاستاذ احمد حامد الصراف [1] الذي كان يومئذ مدير المطبوعات قال : « كنت اطالع الجرائد كل صباح والخص ما يتعلق بـه وبالحكومة من الاخبار والمقالات ، وكان يسألني عندما الفت نظره الى مقال فيه طعن او تحامل عليه ان اراجع القانون المختص بالذم والقذف ، فاطلعه عليه . ولكنه في الايام الثلاثة التي تقدمت الفاجعة ، على ما جاء في ما سمعني اقرأ من الطعن المقذع عليه ، كان يقول : « سامحهم يا ولدي . » ثم يعظني بالحلم والتؤدة وكرم الاخلاق ويقول : « انهم اما جهلاء ، يا ولدي ، واما فقراء . فهم اذن في حاجة الى التهذيب او الى المال . ـ فـ

(١) هو الاديب العراقي الطويل الباع في الثقافة الفارسية وقد الف كتاباً في عمر الخيام .

كلا الحالين هم جديرون بالرثاء . إرث لحالهم ، يا ولدي ، واستغفر الله لهم . » وفي اليوم السابق ليوم الفاجعة رحت انا اليه شاكياً . كنت قد سئمت العمل في دائرة المطبوعات ، واخذت اعلل النفس بوظيفة اخرى . قلت لعبد المحسن بك : « عيني سكرتيراً او كاتباً في دائرة من دوائر الحكومة ، او ارسلني الى احدى القنصليات العراقية في الخارج . » كان ساعتئذ مضطرب النفس ، كثير الهواجس . فقال لي وهو يبتسم بسمة رقيقة ناعمة : « وانا ، يا ولدي ، سئمت الوزارة . ارسلني الى الجنة ، ارسلني الى الجحيم . » وقد كتب عبد المحسن ، قبيل انتحاره ، كتاباً الى ابنه علي ، جاء فيه :

> «الامة تنتظر الخدمة . الانكليز لا يوافقون . ليس لي ظهير . العراقيون الذين يطلبون الاستقلال ضعفاء وعاجزون وبعيدون كثيراً عن الاستقلال . هم عاجزون عن تقدير امثالي من اصحاب الشرف . يظنوني خائناً للوطن وعبداً للانكليز . ما اعظم هذه المصيبة . انا الفدائي لوطني الاكثر اخلاصاً قد صبرت على انواع الاهانات ، وتحملت انواع المذلات . وما ذلك الا من اجل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها ابائي واجدادي » ثم نصحه « ان يخلص لوطنه وللملك فيصل وذريته اخلاصاً مطلقاً . »

كان السعدون ، مثل السر غلبرت كلايتون ، في العقد الخامس من عمره ، يوم حمّه القدر . وان في وفاة كليهما خسارة جسيمة للبلادين العراقية والبريطانية . لقد فقد العراق في عبدالمحسن كبيراً من السياسيين

الوطنيين ، وفقد الانكليز كبيراً من اصدقائهم المخلصين · وقد خسر العراق ، بل العرب في السر غلبرت كلايتون صديقاً كريماً ، وخسرت انكلترة سياسياً حكيماً نزيهاً ، مرناً في خطته وفي اقتداره · فلو أمد الله باجله لما كانت على ما اظن الفاجعة · ولو اتيح للاثنين العمل معاً لجرت السياسة في هذه السنة المشؤومة ، سنة ١٩٢٩ ، في المجاري السهلة الصافية جرياً حثيثاً الى المقر المنشود ، الى الحل المحمود ·

قد قُدِّر لها ان تجري في كل حال جرياً مضطرباً بطيئاً مفجعاً وتتجه ذلك الاتجاه · وكان الملك فيصل ، والقلب منه مفعم بالغم ، يدير من مركزه العالي التيار ويشرف عليه · ان لكل عاصفة سكينة تتقدمها واخرى تلحق بها · ولكان الملك انتدب ياسين الهاشمي ليخلف السعدون ، لو لم يرَ الحكمة الراجحة في تعيين السويدي الاكبر ناجي باشا ، خلال التطور الجديد · فجاءت الوزارة السويدية الثانية ، بعد العاصفة ، مثل شقيقتها قبلها — رمز السكينة والسلامة ·

رأى ناجي باشا ان يتجنب المشاكل الكبرى ويحصر اهتمامه في تمهيد السبيل للعراق المتشوف الى سنة ١٩٣٢ ، للعراق المستقل المعتق من الانتداب · فشرع يشذب شجرة الموظفين البريطانيين ، ليخفض ما استطاع عددهم في الوزارات وفي دوائر الحكومة الاخرى ببغداد وبالالوية ، وليفسح المجال للوطنيين فيحرزون الخبر والعلم في ادارة شؤون البلاد ·

اما المفوض السامي الجديد السر فرنسيس همفريس [1] ، الذي جاء يتمم عمل السر غلبرت كلايتون ، فقد باشر اهتمامه (ك ١ ١٩٢٩) بالمعاهدة التي ستتقدم دخول العراق الى عصبة الامم · ان للسر فرنسيس

(١) Sir Francis Humphrys

شخصيةً مشرقةً مقنعةً غلابة . فيمكنه ان يكون صريحاً دون اساءة ، قويماً دون تهجم ، منفذاً لامر حكومته دون شيء من التحكم . وهو يجمع بين الفكر الوثاب ، الذي كان لسلفه السر غلبرت كلايتون ، والعطف المتبصر الموصوف به سلفه الآخر السر برسي كوكس . فيرى ما دون الحقائق الواقعة ، ولا يذهل عنها ، ويتقدم واثباً اذا شاء ، دون ان يستسلم للاهواء السياسية . وبكلمة اخرى هو الجندي السياسي الطيار الذي يجمع في شخصه مزايا الثلاثة ، اي الشجاعة والمرونة والنظر العالي البعيد .

يعتقد المندوب السامي الجديد بلزوم سياسة بريطانية جديدة في الشرق الادنى . وهو مدرك في الوقت نفسه ان النهضات الوطنية في البلدان المختلفة تختلف في اساليبها كما تختلف في نظرها الى الحقيقة والاصلاح . انه لمن الحكمة اذن ان تكون السياسة البريطانية مرنة — مطاطة . وهي كذلك . اما الخطة اليابسة المطردة فهي نقيض الحقيقة التي ينبغي ان تكون ، في السياسة على الاقل ، مرآةً لوقائع الايام .

انها كذلك لمسألة نسبية . فقد فاز مثلا مصطفى كمال فوزاً مبيناً ، وانهزم في مثل جهاده امان الله . كان السر فرنسيس همفريس في قابل اثناء النهضة الامانية والثورة عليها . وقد قال لي في حديثه عنها : « كان الوزراء ورؤساء الدين يشجعون امان الله في عمله ، ويجيئونني طالبين ان انصح له بالاعتدال ، وانبهه الى الاخطار المحدقة به . » ان هذا التلون من اصحاب السعادة والفضيلة لا يُستغرب ، وهم المشفقون على مراكزهم ، المتوهمون الخسارة ، اذا هم نصحوا للملك وانذروه .

على ان السر فرنسيس لا يتسرع في الاستقراء والمقارنة . فقد تكون بغداد شقيقة لقابل ، وقد يكون الائمة والسياسيون اخواناً في كل مكان .

ولكن التقاليد والبيئة وسنة الوراثة تختلف كلها في الامم، ويختلف لذلك مفعولها في التطور الاجتماعي، وفي الانقلابات السياسية .

جاء السر فرنسيس بغداد ليكمل كما قلت عمل السر غلبرت كلايتون. ولكنه في بداية امره ارتطم بامهر عقلية قانونية في العراق . وما كان مسروراً . فهو لا يزدري الدقائق القانونية ولا يكبرها . ما هو في القانون من اقطابه ولا من اذنابه . انما هو رجل مفكر متعقل على طريقته التي هي طريقة الاداريين المؤسسين للاعمال والمشاريع . فهو يرى الامور في اشكالها الجامعة، دون ان تفوته الجزئيات المهمة فيها . وقد كان قوياً صريحاً بقدر ما تسمح المحادثات الاولى . اما ناجي فلم يكن على ما يظهر كذلك . فقد قال السر فرنسيس للملك فيصل مرة ان رئيس الوزارة يدور الدورات، وانه اي المندوب لا يفهم غالباً ما يرمي اليه .

وقد قال ناجي للمؤلف : « كنا نتحدث ذات يوم في المعاهدة، فسألت المفوض السامي اذا كان قد تم نصها، فاجاب : قد تقررت المواد المهمة كلها، ولكن ينبغي ان ترسل الى لندن ليحررها الثقاة والاخصائيون في الوزارة - فقلت : وهذا ما نخشاه، فقد نتفق واياكم في هذا البند او في تلك المادة، ولكن اوضاعها تُقلب علينا اذا اختلفنا بعدئذ في تفسيرها .. ويظهر ان عندهم دائرة مخصوصة لتحرير المعاهدات، سيما اذا شئت دائرة المط . اما نحن فليس عندنا غير عقولنا على فقرها . وقد طالما قلت لجلالة الملك ان المعاهدة، قبل ان يقرها المجلس، بل قبل أن توقّع، ينبغي ان يطلع عليها احد الاخصائيين المتضلعين خصوصاً بالشرائع الدولية . »

لم تكن المعاهدة الحاضرة قد بلغت تلك المرحلة التي تستوجب عناية الاخصائيين . بل كانت لا تزال في طور النشوء البطيء، فلزمها

التخرج منه مساعدة وزير قوي جريء حكيم — قوي يغالب الوطنيين ويتغلب عليهم ، وجريء يجابه الحقائق ويهتدي بها ، وحكيم يدرك ان المساعدة البريطانية لا تقدم للعراق مجاناً لوجه الله ·

كان الملك فيصل اكثر علماً بذلك من المندوب السامي · ولكنه مشى متمهلاً على عادته وان قيل انه متباطىء متردد · فكان يتحين الفرص لتغيير الوزارة ، فلا يفاجىء صديقاً له ، ولا ينتقص حقه · اذن في اواسط اذار من هذه السنة افسحت وزارة السويدي الكبير ، كما افسحت وزارة السويدي الصغير قبله ، للعمل الذي كان الملك يتجهز له — للوزارة التي علق عليها آماله الكبرى · والامل بالله اننا سنجتاز الازمة هذه المرة بخير وسلام · فان في وجه المندوب المشرق ، وفي خطواته الوطيدة ، كما في عافية رئيس الوزارة ونشاطه ، ما يضمن سلامة الاثنين ، فلا يتعثر الواحد بالقدر ، ولا يتأثر الموت الاخر إبان العمل ان شاء الله ·

ان لنوري السعيد من المزايا العقلية والنفسية ما يجيز المقارنة بينه وبين السر فرنسيس همفريس · فهو جندي سياسي طيار ، له شجاعة الاول ، ومرونة الثاني ، ونظر الثالث البعيد · يرى وهو على الارض مادون الافق الذي لا يتسع الا لمن كان في الفضاء عالياً ·· ولا يزال ممتعاً بحسنات الشباب ، بربيعانه واقدامه ونزاهته · اضف الى ذلك ما جناه من الخُبر والعلم كوزير في اكثر الوزارات السابقة ، فصار سريع الادراك للفرصة السانحة ، فينتهزها ويثب خلالها الى فصل الامور ·

تولى نوري رئاسة الوزارة في ١٩ اذار سنة ١٩٣٠ ، وفي الشهر التالي اقدم والسر فرنسيس همفريس على العمل الخطير — وثبا الوثبة الاخيرة الى المحجة العليا · ثم في الشهر الثالث من عهده السعيد تمت المفاوضات ،

ووقعت المعاهدة الجديدة ، معاهدة التحالف البريطاني العراقي ، التي يحق ان تدعي باكورة العهد الجديد في العراق[1]

كان الملك فيصل يومئذ في اوروبة ينشد العافية ، وهو متيقن نتيجة ما دبّر قبل سفره ، مطمئن اليها . وقد خطب خطبة هناك املاها القلب عليه ، شكر فيها الحكومة البريطانية على ما بذلته نهائياً في سبيل العراق ، وأعرب عن أمله ان تحظى بلاده بمساعدات اخرى منها ، بعد ان تُسوّى المسائل السياسية كلها . الى ان قال: « ان في العراق مجالاً متسعاً للمشاريع الانكليزية ، وعندما يجيئنا الانكليز مرشدين معاونين ، نافعين منتفعين ، نرحب بهم كل الترحيب ، ونتعاون واياهم فرحين شاكرين . »

بقي ان تجتاز المعاهدة المرحلة الاخيرة ، اي المجلس النيابي . ولا بد هاهنا من كلمة في الاسلوب السياسي الخاص الذي تتخذه في مثل هذه المواقف حكومة العراق . عندما يكون لدى رئيس الوزارة معاهدة للاقرار مثلاً ، فهو يزن مجلسه ، اذا صح التعبير ، او يسبر غوره اذا اثرنا هذا المجاز ، فان كان غير موافق يحله في الحال . ثم تجري بعد ذلك الانتخابات ، فيجيء المجلس — سقياً للاساليب الانتخابية ورعياً — وفق الطلب : كذلك عمل السعدون في سنة ١٩٢٨ و كذلك عمل نوري في صيف هذا العام .

اني ارجوك الا تصدق التقرير الرسمي في الموضوع . فقد وقع نائب الملك الامر بحل المجلس . وبعد ذلك ؟ جاء في التقرير : « وقد جرت بعد ذلك الانتخابات العامة لتتمكن الامة من الاعراب عن رأيها بالمعاهدة . » هو اللغو بعينه . ان مثل هذه السذاجة ، او مثل هذا التمويه ليندر في من

---

(١) في كتابي التالي بحث مستوف لهذه المعاهدة

يكتبون التقارير الرسمية . فاذا كان المحرر لا يستطيع ان يقول الحقيقة ، فلم لا يختار ، هداه الله ، نوع الشجاعة الاخر ، اي السكوت ؟

اجتمع البرلمان الجديد (الثالث) في اول تشرين الثاني . وقد فاق في وطنيته تصور نوري واماله ، اذ انه اقر المعاهدة بما يقرب من الاجماع [١]

وكان في ذلك للملك فيصل الفوز المبين . كيف لا ، وفي هذه المعاهدة الحكم المبرم على الانتداب . فقد ابرمت الحكم بعدئذ عصبة الامم [٢].

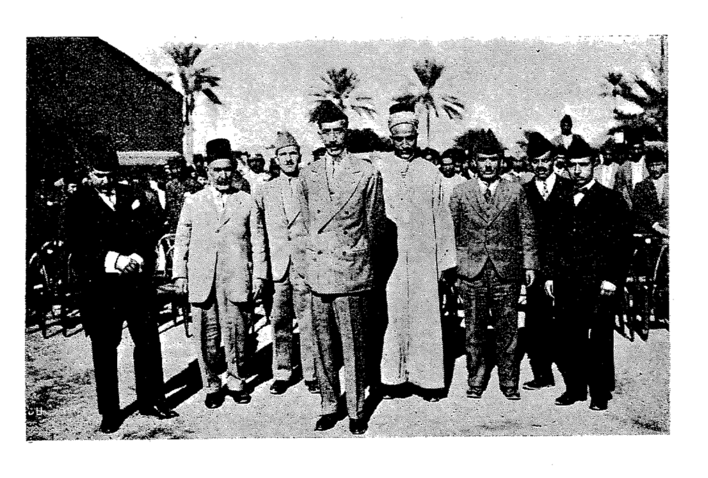
اما وقد مات الانتداب فيليق بنا ان نقول كلمة فيه . نعم انه لجدير مثل عظام الاموات بالرثاء ، وقد يكون اكثرهم اهلاً له . ليس الانتداب بذاته شراً صافياً . ولا هو في وضعه على شيء من الشر . قبل ان نذكر الغرض الاول منه ينبغي ان نقول ان مقاصد الاحلاف ، في ما يتعلق بالاراضي المنسلخة عن الدولة العثمانية والمستعمرات المسلوبة من المانية ، لم تكن على شيء كبير من الطهارة والنبل . بل كان قصد الاحلاف في مؤتمر فرساي ان يتمتعوا بتلك الاراضي والمستعمرات على الطريقة التاريخية ، بحسب التقاليد المرعية — الغنيمة للغالبين ، الارض للفاتحين .

بيد ان الرئيس ولسون والجنرال اسموطس ، المجندين بالمثل الدمقراطي الاعلى ، وان ازدراه اقطاب السياسة القديمة ، تغلبا على مطامع الدول الكبرى الاستعمارية في ما ابتدعاه واسمياه الانتداب . وفي هذه البدعة السياسية تمثلا خلاص الشعوب التي كانت رازحت تحت نير الاتراك ،

---

(١) تسعة وستون من الاثنين والثمانين نائباً واحد عشر عيناً من الاعيان الستة عشر اقروا المعاهدة .

(٢) قبل العراق عضواً في عصبة الامم في ٣ تشرين الاول ١٩٣٢



الملك فيصل

ورئيسا المعارضة الحاج جعفر ابو التمن الى يساره ، و ياسين باشا الهاشمي في الطرف الايمن

وتيقنا — يومئذ — فوز اولئك الشعوب عاجلاً او آجلاً بالحرية والاستقلال ·

ضحك اساطين السياسة القديمة في سرهم من هذه السذاجة الدمقراطية · وقد جهروا بما عراهم من الريب ، بالرغم عن المادة ٢٢ من معاهدة فرساي ، في ان العمل بالانتداب ممكن · اما المادة ٢٢ فهي ، والحق يقال ، مثال العدل والنبل في المعاهدات · هي منقطعة النظير في ما تنطوي عليه من الامال العالية بشرف الدول العظمى ، وبمقدرة الشعوب التائقة الى الحكم الذاتي المستقل · على انها لا تختلف عن القاعدة الذهبية ، وعن الايات المنزلة بشيء · نرددها مكبرين متورعين ، ونقف عند العمل بها عاجزين متذبذبين · اجل ، ان بين النظرية وبين القاعدة وهدة عميقة نراها اليوم ، وقد اشتد ظلامها ، في سورية وفلسطين وشرق الاردن ·

بيد ان ذلك لا يضير بالانتداب في قصده الاول ، اي في وضعه الاسامي · فهو محقق في نهاية الامر مهما طال ، هو محقق لان تطبيقه غير ممكن · وقد يستغرب ان يكون هذا المثل الدمقراطي الاعلى ، الذي استهوى الشعوب الطالبة الاستقلال ، صحيحاً بليغاً في عكسه كما هو في وضعه الاسامي · انما هو كذلك وسيدرك القصد منه في المشي الى الوراء ·

لست ادري اذا كان الرئيس ولسون ابصر او تصور شيئاً من هذا الانقلاب في امر تعليمه هذا · لست ادري اذا كان قد ادرك ما سيكون من عجزه المحمود ، ومن فوزه الاحمد · ها كه واقفاً على رأسه ، ومتمماً لقصد خالقه · ها كه ممثلاً اعجوبة السياسة الكبرى في هذا الزمان ·

وهل ازيدك بياناً ، ايها القارئ العزيز ؟ هي ذي الحلقات المنطقية :
١ً — الحكومة البريطانية مقيدة بالانتداب في العراق · ٢ً — يستحيل

العمل بالانتداب بحسب اوضاعه « كامانة للتمدن مقدسة . » ٣ — ليس بالامكان ان نبدله بالاستعمار . اذن ، ينبغي ان يلغى الانتداب . اما الشعب الذي انتدب له ، فبما انه قد خطا خطوات تذكر في سبيل حريته ، واحسن شيئاً من علم الاستقلال ، كلمةً ومعنى ، قولاً وعملاً ، فينبغي ان يظل سائراً سيره هذا . ولا بأس بمعاهدة بينه وبين الدولة التي كانت صاحبة الانتداب يلتئم مضمونها واسباب رقيِه المستمر .

هذا ما حدث في العراق . فقد ادركت الدولة المنتدبة وعصبة الامم ان من العبث المحاولة ، ولا سيما النفقات باهظة ، للتأليف بين النظرية والقاعدة في الانتداب . هذا اذا سلمنا ان قد كان هنالك قصدٌ للتأليف . اما ان النتيجة لم تظهر قبل مرور العشر السنوات ، فذلك امر يسير . وقد كان في ذا الابطاء ، على ما اظن ، شيء من الخير للفريقين . مما ينبغي ان يُذكر كذلك ان العراقيين ، منذ بداية الامر حتى النهاية ، لم يقبلوا بالانتداب قطعاً ، واستمروا جميعاً ، الوطنيون والمتطرفون ، في الجهاد للقضاء عليه .

ولكننا نخطأ اذا ظننا ان المرحلة التي بلغها العراق في تطوره السياسي ورقيه هي نتيجة جهاد العراقيين وحدهم . فالحقيقة كلها ، نسجلها دون ان نغمص حق الوطنيين او المتطرفين ، هي ان المفاوضات والحكومة البريطانية ما كانت توفّق هذا التوفيق ، وفي مدة يجوز ان نعدها قصيرة ، لو جرت بواسطتهم او بواسطة لجان من احزابهم . ان هناك اذن عاملاً آخر هو من الاهمية بمكان . بل هو من وجهة خاصة اهم العوامل كلها . كيف لا وسيد البلاد الاكبر ، خصوصاً في هذا الشرق ، لا يزال ، وهو ولي الامر ، قادراً ان يسيّر الامور ويصرّفها بما قد يكون فيها من الخير او

من الشر . وعندما تكون الدولة في طور التكوين ، مثل العراق ، تتضاعف الآمال ، وتتضاعف الاخطار . فالرجل الذي يدير شؤون البلاد يستطيع ان يكون عمّاراً ، ويستطيع ان يكون هدّاماً .

لقد اسلفت القول ان الملك فيصلاً لم يكن موفور الحظ في بداية عهده . فقد جاء العراق ، تقيده التعهدات ، وتبوّأ عرش العراق ، تحف به الصعوبات . ومع انه كان يعلم اي المناهج يجب عليه ان ينهجها ، فقد رأى بام عينه العقبات التي ينبغي ان تُذلل قبل ان يبلغ اول الطريق .

ما احب فيصل تاجاً يجيئه من يدٍ اجنبية (وقد هم مرة بالاستقالة) وما كان من شيمته ان يغمص النعمة ، فيدعو الامة لتنقذ التاج من قيوده . هي ذي المعضلة الكبري التي وجب عليه حلها . هو ذا الطريق الوعر الذي كان عليه ان يسلكه . فقد رآه واضحاً ، بكل مشقاته ، وتقدم فيه بخطوات ثابتة ، تارة بطيئة ، وتارة حثيثة ، وهو على الدوام الرجل الابي ، الجرىء ، الخبير ، الصبور .

قلت : المعضلة الكبرى ، وما فصلت . فقد كانت تنحصر ، عند ما جلس على العرش ، في امرين : المحافظة على صداقة الانكليز ، والفوز بثقة اهل العراق . وقد مشى الى غرضه بما اكسبته تجارب الزمان ، متمهلاً متحذراً ، واثباً عادياً ، مستعيناً تارة بصراحة الفكر ، وطوراً بالكياسة واللباقة ، تارة يبرز عقله ، وطوراً يفتح قلبه ، فيتغلب اما بالاقناع ، واما باللطف والمعروف . هذي هي الطريق التي سلكها فيصل ، وكان فيها العامل الاكبر — القوة المرنة النافذة المحترمة دائماً — في نجاح المفاوضات بين العراق وبريطانية العظمى . وان ادراكه لتلك المحجة في خلال عشر سنوات فقط ، نظراً لما اعترضها من العقبات الوطنية والدولية ، لما يدعو

للاعجاب والثناء .

اما المعارضة فما كانت لتؤخر في سير الملك فيصل، ولا كان هو يؤخر في سيرها . فبينا هي كانت تشحذ السلاح لتجاهد الانتداب واصحـابه ، كان هو يجتاز العقبات ، من معاهدة الى معاهدة ، وهدفه وهدف المعارضة واحد لا يتغير . فلو انه سلم التسليم التام للمتطرفين ، لاضاع الفرص الـتي انتهزها ليخدم اغراضهم . ولو انه بالغ في تقدير الجميل لاصحابه الانكليز ، لما تمكن قطعاً من التأليف بين مصالحهم ومصالح العراق . فقد رفع الميزان بيد الحكمة وباسمها ، وقلما اهتزت اليد في حفظ التعادل بين كفتيه ، وقلما شط البصر . هو ذا الفوز السياسي العظـيم ، وفيه فوز شخصي للملك فيصل ، وفوز وطني للعراق .

الفصل الثامن

شغل الملك

كان هارون الرشيد يخاطب السحابة التي تمر به قائلاً : « أمطري حيث شئت ، فان خراج الارض التي تمطرين فيها يجيء الي ٠» وكان الخراج يطيع السحب كما تطيع السحب هارون ، فيجيء اليه طامياً ، فيتصرف به كيفما شاء وشاءت مكارمه ٠ يبذل منه في تعزيز الجند والقضاء ، عملاً بالقاعدة التي لا تزال مرعية عند اكثر حكام العرب : العدل اساس الملك والجند سياجه ٠ ويبذل منه في بناء المساجد ومعاهد الاحسان ، عملا بالقاعدة الاخرى التي ترفع حتى الخليع الى منزلة اهل البر والتقوى ٠

وما سوى الجند والقضاء ، والجوامع والاوقاف ، لا يبقى في المملكة ما يستحق كبير الاهتمام غير الشعراء في البلاط ، والجواري في الحريم ، فيغدق عليهم وعليهن مما تبقى من الخراج — امطري حيث شئت ، ايتها السحب ، فان خراجك لهارون ، اسير القوافي والعيون ٠ وان السماء مع ذلك تخدم امير المؤمنين ، وتجعل السحب من رعاياه المخلصين ٠

اما الملك فيصل فلا اظن انه كان يخاطب السحب ، على قربها منه في طيرانه ، او يسأل السماء اسئلة في ما يتعلق بخراج الدولة ٠ ولو اتسع الوقت

لديه لمثل هذه المفاوضات المالية او المناجاة الشعرية الزراعية ، وشاء ان يتمثل بالخليفة العباسي الشهير ، لما كان له ان ينتظر من السحب الخير الكثير . كان له ان يقول للسحابة ما قاله الرشيد : « امطري حيث شئت » ويقف عندها . فان لم تمطر في مزرعة صغيرة قرب خانقين ، او في الحارثية خارج بغداد — كل ما كان يملكه من ارض العراق — فهي وريح السموم سواء في ما قد يكون له من خراجها . تبارك الدستور ، وتباركت آياته . فهو يجيز لاحقر الناس ، اذا صار وزير المالية في الدولة ، ان يقول للملك : هذا راتبك ، يا صاحب الجلالة .

ومن حسن حظ العراق ان عهد الخلافة قد ذهب ، وان ايام السلطان ابن السلاطين ، وامير المؤمنين ، لن تعود . اذن ، مهما امعنت سحابة هارون الرشيد في سمائها ، فأمطرت في ايران ، وفي افغانستان ، وفي ما دونها من البلدان ، فان بين خراجها اليوم ، اذا وصل الى بغداد ، وبين الملك حكومة دستورية ، ووزارة ، وبرلمان . وقد كان ، فوق ذلك ، بين الملك فيصل وراتبه ، خازن حريص على كل دينار منه .

ها هنا اقف . ولو فرضنا ان علمي بميزانية الملك الخاصة صحيح دقيق فلا اتعدى حد اللياقة في اذاعة اسرارها . كفى بي ان اقول ان بعض الذين كانوا يتهافتون على ديوان ابيه الملك حسين ، ويحومون حوله ، وبعض مشايخ القبائل العراقية كانوا يشاركون الملك فيصلا في قسمته من مالية الدولة .

وقد كان فيصل كريماً جواداً ، بل كان جوده ابان الحرب وفي سورية موضوع الامثال والقوافي . اما في العراق . . . قلت ان لا يليق التدخل في الميزانية الملكية . ولكني اظن ان فيصلا في مكارمه واحسانه ، وهو

بين راتب محدود ومطالب وواجبات غير محدودة ، كان يشكر الله في بعض الاحايين ان اليد القابضة على مفتاح الخزينة هي يد امين ضنين .

اشرت الى العرش والتاج غير مرة في ما اسلفت ، وما كان ذلك الا كناية ورمزاً . فاعلم رعاك الله ان ما كان لهذا الملك العربي عرش ولاتاج . ولكن في القيافة العربية ما يشبه التاج ، ماييز صاحبه عن غيره من العرب ، وهو العقال المزركش بالقصب . بيد ان ملك العراق ابدل تلك القيافة بالملابس الافرنجية ، وصار خاضعاً فيها للاحكام الدمقراطية الجائرة في ازياء هذا الزمن .

اما وقد كان مشيق القد رشيقه ، فأي ثوب لبسه لبق به . وكنت ترى في طلعته ومشيته واناقته تلك الصفة الممتازة الساحرة التي يصعب وصفها ، ويصعب على الدمقراطية ، مهما تعسفت في ازيائها السمجة ، واحكامها المطّردة ، ان تمحوها او تتغلب عليها .

بيد ان الاناقة في مجلسه ، وهو يحدث او يستمع ، كان يعتريها في بعض الاحيان شيء من الهجنة ، فيجلس جلسة القروي وقد ذهل عنها ، فتراه والظهر منه منحنٍ ، واليدان مرتخيتان فوق الركبتين ، وتود ان تقول الكلمة التي يستقيم بها حاله . ومما كان يزيد بدهشتي المألومة ان رأيي رجليه ، وهو جالس تلك الجلسة ، كادا يلصقان الواحد بالاخر . اي ان رجليه ضمّا في شكل ٨ لا في شكل ٧ كما ينبغي . وهذا الاتجاه في الرجلين[1] ، جلوساً او وقوفاً ، مستقبح عند الغربيين ، ومحذور بل ممنوع في الجندية .

---

(١) يدعى بالانكليزية pigeon-toe من اتجاه الرجلين في الطير وخصوصا في الحمام .

ولا اكتمك اني في تلك الساعة ، ساعة كان يجلس الملك فيصل جلسته المستهجنة ، كنت ارغب بالمنزلة التي تجيز لي التنبيه والتذكير . وليس لاحد خارج بيته ، غير البدوي المدرك لهذا الامر ، او الصديق المحتظي بالعطف الملكي الخاص ، ان يقول ، اذ يرى رجليه مضمومتين في شكل ٨ — سيدي فيصل ، رجليك .

على ان هذا الاتجاه في الرجلين يهون ، عند ذكرنا لاولئك العرب ، حتى الامراء منهم والملوك ، الذين يلعبون بأباهم رجليهم وهم جالسون على الارض ، او متربعون على الديوان .

فياليت النبي فطن الى هذا الامر ، النبي الذي لم يفته شيء من منكرات السلوك في شعبه ، فحدّث حتى عن القلَس ، ليته حدث كذلك عن هذه التسلية بإباهم الرجل وحظرها . لكنت اذ ذاك انقل اليك خبراً يدهش ويسر ، فاقول : كنت ذات يوم في مجلس السيد الادريسي ، او الامام يحيى ، او الملك ابن سعود ، فدخل اعرابي وسلم وجلس ، واذ رأى يد السيد مثلاً تعبث بالاباهم الشريفة صاح قائلاً : يا طويل العمر ، هذا مخالف للسنة . فقد جاء في الحديث ... ويروي الحديث الذي اود لو كان . ولكن النبي ، لسوء الحظ ، لم يفطن اليه . وستستمر تلك العادة ، تلك التسلية بأباهم الرجل ، الى ان يقتدي اصحاب الفضيلة والجلالة هناك بابن عمهم ملك العراق ، فيلبسون الجوارب والاحذية .

قلت ان ملك العراق لا يلبس التاج ، وهو في هذا مثل سائر ملوك العرب الاقدمين والحديثين . فقد كان فيصل يلبس السدارة حتى في الحفلات الرسمية ، الا انها سوداء اللون مثل جوخ ثوبه الانكليزي . وما رأيته مرة جالساً على عرش او شبه عرش . وما رأيت عرشاً في القصر او

تشبه عرش ، ولا فراش ملك مثل الذي يجلس عليـه الامام يحيى . قلت :
القصر ، والحقيقة انه مثل العرش ومثل التاج ، لا وجود له . انمـا الملك
حدثني عن المدينة الجديدة التي يريد بناءها ، وأطلعني على التصميم .
ستكون بغداد الجديدة ، التي ستبنى على الشاطىء الغربي قبالة الكرادة ،
مدورة مثل مدينة المنصور ، وفي وسطها ساحة كبيرة ، وفي الساحة محطة
للطيارات بين الشرق والغرب ، وحول الساحة ابنية الحكومة ، وحلية
العقد القصر الملكي . سيكون لملك العراق قصر اذن في المستقبل .

اما الآن فالبناية ذات الطبقة الواحدة ، القائمة في بستان ، على طريق
الاعظمية ، جنوباً من دار البرلمان ، هي المقر الملكي . فيها يشتغل الملك ،
وفيها يستقبل الناس . تدخلها فاذا انت في رواق صغير ، الى شماله مكتب
لرئيس التشريفات ، وهو يستقبل من الزائرين الحضر ذوي السدارات
والبرانيط والعمائم ، فيقدمهم للملك ، او يعين لهم وقتاً للمقابلة . والى جانب
مكتبه غرفة الحرس الملكي الذي قلما يبدو للعيان . والى الجهة الاخرى من
الرواق مكتب السكرتير الاول ، تحاذيه غرفة الانتظار لرجال العشائر
ومشايخ العرب ، اصحاب العباءة والعقال . وبين المكتبين باب كبير يفتحه
حاجب ، فاذا انت في ردهة مربعة ، هي مكتب الملك ومجلسه . ينير هذه
الردهة شباكان في الحائط المقابل للباب ، ولكن الاسترة تلطف النور ،
فلا يبهرك ، ولا يحول بين ناظريك ووجه الملك ، الواقف لاستقبالك .

اما فرش الردهة فالذوق فيه غالب على الفخامة ، وجامع بين الشرق
والغرب . السجاد عجمي ، والديوان عربي ، والمنضدة مع الكراسي المنجدة
بالجلد اوروبية . وهناك خزانة للكتب ، وعلى الحائط فوقها رسوم لبعض
امراء البيت الهاشمي . يجلس الملك على الديوان في الصدر ، والى جانبه

مائدة صغيرة على حرفها بضعة ازرار للاسلاك الكهربائيـة المتصلة بها وبدواوين البلاط ٠

عندما يدخل الزائر يقف الملك ، فيخطو بضع خطوات ، ويتقدم في بعض الاحايين الى وسط الردهة مرحباً ٠ كان الملك فيصل في استقباله وفي حديثه على جانب عظيم من الرقة والبشاشة ، واللطف والوداعة ٠ بل كان مثال النبل وكرم الاخلاق ٠ يقول لك ذلك كل من زاره ، وكل من عرفه ، اوروبياً كان او شرقياً ، وضيعاً كان او رفيعاً ، من البدو او من الحضر ٠ وكان استقباله شرقياً للجميع ٠ يأمر بالقهوة والسجاير ، ويقدم في بعض الاحايين للزائر سيكارة من علبته الخاصة ، فيشعر انه عند احد اصدقائه ، لا في حضرة مليك البلاد ، ويخرج مدهوشاً معجباً بهذه الروح العربية الدمقراطية الشريفة ٠ فان لم يكن شاهد شيئاً من ابهة الملك ، فقد قابل عربياً من اماجد العرب ، هو حقاً ملك القلوب ٠

في ذلك البستان بيت آخر ذو طبقة واحدة ، هو منزل الملك في النهار ، فيتناول فيه طعام المساء ، ويقيم فيه المآدب الرسمية والاستقبالات العامة ٠ها هنا في البيتين كان الملك فيصل يشتغل ويقضي معظم يومه ٠ وما كان في شغله ليرعى نظام العمال المحدد للعمل اليومي ، ثماني ساعات لا غير ، فيشتغل اثنتي عشرة ساعة وما يزيد في بعض الاحايين ٠

اما اشغاله فما كانت تنحصر في جلوسه الى منضدته وفي مجالسه ومحادثاته ٠ وما كانت كلها تظهر حتى لرجال البلاط والحكومة ٠ فمن اين لهم ان يروها في استقبالٍ عامٍ مثلاً ، او في مأدبة رسمية ؟ ألا ان هموم الدولة ، ساكنةً او ناطقة ، وشؤون الملك ، سافرةً او محجبة ، لتتمشى هناك بين الضيوف ، ولا يعرفها ويشعر بوطأتها غير الملك ٠

وبكلمة اخرى ان الملك يشتغل حتى في ساعة لهوه ، وان شغل هذا الملك العربي ليختلط حتى بطعامه . فقلما كان فيصل يأكل وحده ، وقد كان شغله مزدوجاً في ضيافاته على اختلاف الضيوف . فاذا كانوا من مشايخ البدو ، او من الاوروبيين ، او من الوطنيين ، من اصحاب الشكوى او الامتيازات او المشاريع الاصلاحية ، فعليه ان يستمع اليهم ، ويتبصر في ما يعرضون ، فلا يفوته شيء مما قد يكون فيه منفعة للحكومة او خير للامة .

قد تسأل بعد هذا : واين المنزل الملكي الخاص ؟ اين بيت فيصل بن الحسين بن علي ؟ في شارع صغير في قلب المدينة ، الى جانب الميدان ، بيت ذو طبقتين ، شبيه بالبيوت الاخرى الملتصقة بعضها ببعض ، يسكن الاستاذ ابراهيم دباس ، معلم الملك فيصل اللغتين الانكليزية والفرنسية ، بل المعلم اللبناني في الاسرة الهاشمية المالكة ، الذي قال فيه الملك حسين : « هذا معلم اولادنا واحفادنا . »

وفي ذلك الشارع ايضاً ، على نحو مائتي ذراع من البيت المذكور ، منزل الملك الخاص ، حيث تقيم الملكة حزيمة ، زوجته الوحيدة ، وابنه الوحيد الامير غازي[1] ، وكريماته الاميرات الثلاث . ها هنا كان الملك فيصل يقضي مع اهله بضع ساعات من يومه .

وما استنكف ان يكون منزله في صف من البيوت العادية قريباً من منزل معلمه المسيحي اللبناني ابراهيم دباس . اقول « المسيحي اللبناني » لالفت نظر العرب في كل مكان ، ونظر ابناء لبنان ، الى مزية خاصة في فيصل ، بل في البيت الهاشمي . فما كان الملك حسين ، رحمه الله ، يفرق

(١) ظل الامير غازي ، بعد تتويجه ملكاً حتى زواجه ، مقيماً مع امه وشقيقاته في هذا البيت بشارع الميدان.

بين العربي واللبناني ، والمسلم والمسيحي ، في الامور المدنية ، السياسية والاجتماعية . وان انجاله كلهم مثله في هذا الموقف العربي ، الشامل في عروبته جميع سكان البلاد العربية . انما الملك فيصل كان اقربهم الى اللبنانيين ، واكثرهم اعجاباً بهم ، واشدهم رغبة في استخدامهم ، والانتفاع بعلومهم ومواهبهم .

على ان النزعات السياسية ، والنعرات الحزبيـة ، في العراق ، كانت تحول دون تحقيق رغباته . من ذلك ما اراده مرة لمعلمه ابراهيم دباس . فقد كان في نيته ان يعينه كاتب سره ، لولا صوت الاحتجاج في البلاط ، وخارج البلاط . وما السبب في ذا الاحتجاج ؟ اني على يقين ، وانا اعرف بعض المحتجين ، ان لا اثر للتعصب الديني فيه . انما هي السياسة والمـآرب الشخصية ، التي تشين غالباً الاعمال الوطنية في كل البلدان ، وخصوصاً في هذا الشرق العربي .

وما كانت مشاكل المُلك الكبرى تمكن الملك فيصل من الاهتمام بغيرها من المشاكل الحزبية المحلية . بل ما كان يجيز لنفسه تكبير صغائر الامور ، وعنده من كبيرها ما يشغل قلبه وعقله ، ومعظم وقته وقواه .

وعنده فوق ذلك ، وهو الملك التلميذ ، مسائله الانكليزية والفرنسية يدرسها . ما كان فيصل بالتلميذ الكسول ، المتأخر في التحصيل ، كما كان في صباه بالاستانة . فقـد بلغ الشأو في الانكليزية ، على قصر وقته للتعلم . وعندما زار انكلترة زيارته الاخيرة خطب خطبة بهـذه اللغة ، وكان مسروراً بل فخوراً بحسن وقعها . فقد قال لمعلمه الدباس : « كنت اتمنى يا استاذ ان تكون معي في لندن لتسمع تلميذك يخطب باللغة الانكليزية كابنـاء الانكليز انفسهم . فانك ولا شك كنت تفتخر

بتلميذك ...»

ملك تلميذ . وقد كان بوده ان يكون كذلك معلماً . فقد خطب مرةً في دار المعلمين ، في واجبات المعلم الادبية والروحية ، وقال انه مستعد لان يعلم صفاً من الصفوف في مدرسة ثانوية ولو بضع ساعات في الاسبوع .

ملك يتعلم ويعلم ، ويعمل فوق ذلك في وضع أُسس الدولة وتوطيدها . فلا عجب اذا كان عمله اليومي يتجاوز في بعض الاحايين اثنتي عشرة ساعة . كان يجيء المقر كل يوم في الساعة السابعة صيفاً والثامنة شتاءً ، فيصل غالباً قبل رؤساء الدواوين ، ويشتغل من الخمس الى السبع ساعات ، ثم يذهب في الساعة الواحدة بعد الظهر الى الحارثية مزرعته ، وهي على نحو خمسة اميال من بغداد ، للغداء وللقيلولة . إلا انه كان يحرم الراحة غالباً حتى هناك ، لان اشغال الملك كانت تلحق به الى ذاك البيت الصغير ، حيث كان يدعو بعض ضيوفه وصحبه ، فتعقد الجلسات السياسية بعد ساعة الشاي او قبلها .

وليس في ما عددت كل اشغاله . فقد كان يقول عندما يجيء الحارثية : اني ها هنا فلاح . وقد قال لي مرة ان كل ما كان يتبقى من ماله ، بعد النفقات الخاصة والعامة ، دفنه في الارض ، اي في مزرعتيه بالحارثية وخانقين . فقد كان ، والحق يقال ، شغفاً بالارض ، يزرعها ، بامتحانها ، بتحليل عوامل خيرها ، بتجربة الآلات والبدع الزراعية فيها . ما كان يباشر هذه الاعمال كلها بنفسه ، ولكنه كان يشرف عليها ، ويهتم ما استطاع فيها . ومع ذلك فما افلحت مشاريعه الزراعية كلها ، واكثرها لا يزل في طور التجربة والنشوء .

نسمع الحكومات والمصلحين في اوروبة واميريكة ينادون الناس في هذه الايام ويحذرونهم قائلين : عودوا الى الحقول عودوا الى المزارع ٠ ولكن الشعب العراقي ليس مثل شعوب اوروبة واميريكة في التهافت على المدينة ، والتزاحم على التجارة والصناعة ، ليستوجب هذه الدعوة ٠ الا ان اهتمام الملك فيصل بالزراعة نبّه الكثيرين الى الاساليب العلمية الفنية فيها ، وعمم النهضة الزراعية في العراق ٠

ومن حسنات الدمقراطية فيه انه كان يكره الابهة في حله وترحاله ٠ فقلما كان يخرج في موكب ، او يظهر في حلقة برّاقة من ابهة الملك ٠ ما كان الناس ينتبهون لسيارة الملك او يعرفونها اذا ما مرت في شوارع بغداد ٠ فقد كان فيصل يكتفي بياور واحد يجلس الى جنب السائق ، ويسوق هو نفسه السيارة في بعض الاحايين ٠

قلت انه كان يؤم الحارثية للغداء ويقضي شطراً من يومه هناك ، ثم يعود عند الغروب ليتناول العشاء في المنزل المجاور للبلاط ٠ ومما استحبه والفه في اوروبة الثوب الرسمي في المساء ٠ اما اذا كان ضيوفه من الاهالي فيتناول العشاء ، اكراماً لهم ، في ثوبه العادي ٠ واذا كان بينهم اوروبيون فاما ان يرتدي الجوخ الاسود والقميص البيضاء ، واما ان يظهر في ثوبه العسكري بصفته القائد العام للجيش ٠ سأل احد السوريين رئيس التشريفات ، بعد ان عين له وقتاً لمقابلة الملك ، اي الاثواب يجب عليه ان يرتدي ، فاجابه قائلاً : « تعال في الثوب الذي انت لابس ٠ الملك لا يسأل ٠ »

واذا كان ضيوف الملك من حاشيته واهله ، او من صحبه في المفوضية والسفارات او في الحكومة ، فقد كان يجلس واياهم بعد العشاء جلسة بيتية ،

ويلعبون الـ « بريدج » الذي كان يؤثره على سواه من الالعاب . قيل لي انه كان في لعب « التنس » كذلك من المجيدين المبرزين . فان قارنا بينه من هذه الناحية وبين زملائه جنوباً من العراق ، اي بينه وبين ابن سعود مثلا او الامام يحيي ، بدا لنا عصرياً الى حد المبالغة . اما اذا كانت المقارنة بينه وبين جاريه الاخرين شرقاً وشمالاً من العراق ، اي بينه وبين طاغية طهران وداهية انقره ، فهو دونهما في الاعيب هذا العصر ، لانه ما كان يحسن لعب الـ « بوكر » ولا يرغب به . بيد انه كان متساهلاً في الامور الاجتماعية اكثر من اخويه علي وعبدالله . وقد كان يحترم على الاخص علياً ، ويحرص على كرامته .

اقول هذا لاخبرك بما جرى ذات ليلة في رمضان . كان الملك فيصل يتناول العشاء وبعض رجال الحكومة المقربين ، احتفالاً بحدث مفرح في سياسة العراق . وكان ضيوفه — اخوانه — وهم فرحون مرحون يشعرون بنقص في الضيافة ولا يفصحون . فقرأ الملك الخبر في وجوههم ، وامر لهم بالشمبانيا . وفي تلك الليلة جاء الملك علي يزور اخاه ، دون سابق اعلام منه بذلك . فدخل قاعة الطعام ساعة كانت سداد القناني تفرقع وتتطاير في الجو ...

اني اذكر قصة اخرى سمعتها في جده . كان الامير علي وبعض رجال حكومة ابيه الملك حسين مصطافين في الطائف ، ومعهم شيخ مدمن كان يجيئه ، الحين بعد الحين ، صندوق من الوسكي من تاجر مسيحي في جده . فارسل الصندوق ذات يوم خطأً الى بيت الامير علي ، ففتحه واخذ منه زجاجتين ، ثم ارسل الباقي الى صاحبه يقول : ان الصندوق فُتح في الجمرك وأُخذ الرسم عليه ... اما ما كان من امر

الزجاجتين فالارض تدري ·

كان الملك فيصل ، عملاً بمهنته وبتقاليد بيته في الاقل ، من المحافظين. بيد انه لم يتقيد بالقيود كلها ، وما استولى الماضي عليه استيلاء العقل والحكمة · فقد كان مدركاً ما للتطرف السياسي والديني والاجتماعي في زمانه من الشيوع والسطوة · وكان مدركاً كذلك ان العرب وان كانوا بطبيعة الحال محافظين ، ينزعون الى التمرد ، ويقبلون على النعّارين فيهم المشاغبين · فعلى من يتولى امرهم ، ويدير شؤونهم ، ان يقرن في مبادئه واساليب عمله شيئاً من المصلح شيئاً من الحاكم المستبد · لذلك كان الملك فيصل يتحرى الوسط في الامور ·

بل كان الوسط من طبعه على ما اظن ، فجعله على الاجمال رأس الحكمة مبدأً وعملاً · وقد سمعته يقول مراراً : كم من تقليد مفيد يفسده الغلو · احب ان يقتدي بملوك العرب وامرائهم في الجلوس للناس ، بل باشر الامر ، فكان يجيئه الناس من بدو وحضر في يومي الاربعاء والسبت من كل اسبوع ، مسلمين عارضين شكاويهم ، فيسمع لهم ويقضي ما استطاع بينهم · وقد كان يرتاح الى هذه الاجتماعات ويرى فيها ما يزيد بخبره ، ويصحح علمه بطبائع الناس ، فضلاً عن انها تقرب بينه وبين الرعية ·

ولكن الحكومة نظرت اليها بغير عينه ، وقد تكون عدتها من البدع · فهناك محاكم وقضاة ، وهناك دستور ، وهناك · · · فلا يجوز للملك التدخل في شؤون العباد الخاصة ، ولا يليق بالناس ان يحملوا الملك فوق طاقته · ظل الملك مع ذلك يقابل كل من جاء زائراً في ذينك اليومين · ولكن العادة المثمرة خيراً في صنعاء وفي الرياض امست عقيمة في بغداد ، وقد تبطل قطعاً ، فيذكرها الناس كما يذكر الحاج حجة لا



الملك فيصل في الصيد

الى يمينه السر كينهان كورناوالس مستشار وزارة الداخلية ، والى يساره تحسين بك قدري رئيس التشريفات

لا تعاد او كما يذكرون تقليداً مهملاً .

ولا اظن التقليد يفيد اذا امسى كعادة في البيت الابيض باميريكه، وهي ان يقف الملك يوماً في الاسبوع للناس يصافحونه ويمشون. فالعرب لا يهمهم ان يروا مليكهم او اميرهم لمجرد السلام . فاذا كان السلام، كان الكلام . وما الفائدة، في نظرهم، من مقابلة سيد البلاد، اذا كان لا يقضي بين الرعية، اذا كان لا يقيم حقاً ويزهق باطلا . فالعربي يفضل ان يشرب قهوة الملك من ان «يهز» يده ويقول : السلام عليكم . ولكن الدستور، يا اخا العرب، ما العمل بهذا الدستور، تاج الملك الدمقراطي؟

وهذه السدارة اختراع الملك فيصل، وهي اليوم تدعى باسمه، ان هي الا برهان آخر على ان حب الوسط كان من طبعه . اما الكلمة المأثورة : خير الامور الوسط، فلا تمثل الحكمة دائماً ولا حسن الذوق . وما السدارة او الفيصلية ؟ لا قبعة هي ولا قلبق ولا برنيطة . هي احتجاج على الطربوش، وما هي في الصيف اخف من الطربوش، ولا هي صحياً احسن منه . ان في خطوطها، في شكلها، شيئاً من الظرف، ولا تخلو طريقة لبسها من شيء يتحداك . ولكنها في المواقف الرسمية، على الاقل، رمز الخفة والدعابة — هي صبيانية . اراد الملك فيصل عمارة جديدة لاهل العراق، او للعصريين من اهله، وابى ان يقلد الامة التي نبذت الطربوش كما نبذه، فيختار مثل مصطفى كمال البرنيطة كاملة . لذلك اضطر ان يقف عند الحد الوسط، اكتفى بنصف برنيطة .

لا اظن ان السدارة تدوم طويلا . فالعمارة التي لا حفة ولا رف لها انما هي مبتورة ناقصة . قد تكون بليغة في ما نقوله وطنياً، ولكن الوطن اذا ما توطدت اركانه يستغني عن الرموز . والعمارة التي لا رف لها تفضح

الوجه اذا كان قبيحاً ، ولا ترمقه اذا كان مليحاً بشيء من الظل يزيد الملاحة فيه . لقد ادرك العرب ذلك ، وادركوا الواجب الصحي في العمارة ، فلبسوا فوق العرقية الكوفية ، وربطوها بعقال للزينة والفائدة معاً . فاذا نبذنا العقال والعمامة فيليق بنا أن نظهر ، في المواقف الرسمية على الاقل ، مكشوفي الرأس . وهذا محذور عند المسلمين المحافظين ومخالف للتقاليد المرعية .

على ان الملك فيصل تعدى التقليد في صورته الاخيرة ، المصدر بها هذا الكتاب ، وهو فيها مكشوف الرأس ، جهْم المحيا ، بعيد غور الفكر ، تعلو سيماءه مسحة من الكآبة . عد اليها ، وتخيل السدارة على الرأس ، يبدُ في الوجه شيء مستغرب مستهجن ، هو التناقض بين ملامحه وما تخيلته على رأسه . ما كان يخفى على الملك فيصل ان التناسب شكلاً ومعنى هو السر في الحسن والاناقة . فعندما يبدو اثر التفكر بليغاً في الوجه او عندما يكون الوجه متجهماً ، فالرأس المكشوف هو اكثر تناسباً من الرأس الذي تعلوه قبعة صغيرة محقرة .

خذ عمارة الملك فيصل في صيده ترَ فيها ما تفتقر اليه السدارة من اسباب الحسن والاناقة . فالسدارة تحقر الوجه التعب ، والوجه العابس ، وتسلبه محاسنه ، بين ان عمارة الصيد تظلل بعض الخطوط فيه وتزيده قوة وجلالاً . عد الى صورته في الصيد وتأملها ، فان هذه المحاسن لتبدو واضحة بليغة ، ويبدو حتى في ظل خطوط التعب شيء من النشاط المذخور .

كان الملك فيصل في الصيد مثله في كل شيء مثال البساطة والاتضاع ينبو عن الكلفة كما ينبو عن الابهة واباطيلها . فيخرج وبعض اصحابه يُرافقهم واحد او اثنان من الحرس الملكي . وكلهم في المطاردة اخوان ، لا

تفاضل بينهم بغير المهارة . واما الذين كان يؤثر اصطحابهم فمنهم رئيس التشريفات تحسين بك قدري ، ومستشار الداخلية السر كينيهان كورنوالس . والاثنان اذا حدثا عن الملك الصياد لا يغمصان حقه كما انهما لا يسترسلان في الغلو . فالسر كينيهان يعترف بمهارة الملك في الاصابة ، ولكنه يبسم اذا سُئل عن قوة الملك في المطاردة ، في المشي. فهل يستطيع العربي ان يماشي الانكليزي ، وخصوصاً هذا الانكليزي العمليق كورنوالس ؟

اما تحسين فهو يعترف انه لا يستطيع ان يماشي الملك . واما انه دونه في الصيد ، في الاصابة ، فمسألة فيها نظر . كذلك كانا يفاخران الملك ، فيسمع ويبتسم . ثم يمشي مجداً وراء غزلانه ، فيدهش في العدو رفيقه الانكليزي . واذا ما عرض له سرب من الحبارى ، يجيء بالبرهان على مهارته في الاصابة ، فيدهش الرفيق الاخر .

على ذكر الصيد اقول ان الملك فيصلاً خرج فيه عن تقاليد السلف ، وعن عادات العرب التي لا تزال متبعة حتى في العراق . فقلما كان يستخدم الصقر في صيده ، وقلما كان يصيد بالسهام الخنزير البري . ولو انه رغب بهذا النوع من الصيد ، لما اظنه كان يتشبه ببعض الخلفاء الذين كانوا يحملون سهاماً ، في الحرب وفي الصيد ، نصالها من ذهب . وقد قال الشاعر في احدهم :

ومن جوده يرمي العداة باسهم   من الذهب الابريز صيغ نصالها
لينفقها المجروح عند انقطاعه   ويشتري الاكفان منها قتيلها

اما جود الملك فيصل ، يوم العودة من صيده ، فقد كان يبعث البهجة والسرور في بيوت الكثيرين من اصدقائه ببغداد .

الفصل التاسع

المناقب

نحن نقص عليك احسن القصص — الاية .

ما جاء في المعقول والمنقول من العلوم ان الاخلاق النبوية تتجلى كلها في احد من سلالة النبي ، وان كان نسبه خلال ثلاثمائة والف من السنين سليماً صافياً . وقد يعد ذلك من الحسنات في هذا الزمان . ما كان فيصل مثلاً يطمح الى النبوة ، او يدعي شيئاً من الوحي . وما كان قسطه من الفيض الروحي ، او النور الالهي ، كافياً ليفتح له تلك الابواب التي تقفل دون سواه من الناس ، فتجعل الرؤيا لديه حقيقة راهنة ، والخيال امراً محققاً ملموساً .

ما ثراءى النبي محمد مرة لفيصل ، على ما اعلم ، كما تراءى لاخيه الملك علي ذات ليلة في المدينة ، وهو ذاهب الى الجامع للصلاة . كان علي يومئذ امير المدينة ، واسير محنة كادت تهد قواه ، وتذهب برجاه . فيمم الحجرة النبوية ، يستغيث بالنبي ويستنجده ، فلاقاه محمد في الشارع — رأيته والله كما اراك الان ، يا استاذ — وقال له : مكن ايمانك بالله يا علي ، ولا تقنط .

اما الملك فيصل فما رأى النبي مرة في حياته الكثيرة التجارب والمحن. وما كان، على ما اعلم، يستغيث بالنبي، وما سمعته مرة يحلف باسمه. وقد تنازل فيصل عن الشارة النبوية، اي ذؤابة العمامة، بل العمامة نفسها. وتنازل كذلك عن بعض حقوق المسلم وتقاليد الشريف. فقد اقتصر في زواجه على واحدة فقط، ونصر المرأة العصرية في بعض حقوقها. وكان يكرم الشعراء، فلا يقول انهم في كل وادٍ يهيمون. وما كان يستعجل ضيوفه في الرحيل، فيردد الآية: واذا اطعمتم فانتشروا. ولا كان يرغب بالحرب والقتال. فقد أصلى خصومه النار مرة، وكان بعد ذلك مسالماً، وعاملاً لتأييد السلم في العالم. بيد انه فتح بلاده للمرسلين الاجانب، مسيحيين وغير مسيحين، دون ان يخشى ما يتلبسون به، وما يكتمونه، في اعمالهم واقوالهم، مما يبعث النعرات الدينية ويعرض للخطر وحدة الدولة وسلامتها.

وقد كان فيصل شريفاً شريفاً، لا ينزع الى القوة في التملك، كبعض الاشراف، ولا يدعي ما ليس له. وما كان في اخلاقه وعاداته مثل غيره من السلالة النبوية، كبعض السادة مثلاً، بل كان نقياً نزيهاً متواضعاً، لا يشرب الخمر، ولا يقامر، ولا يجنح الى البدع في الملذات. ولو كان فيصل من الذين يغالون بتقديرهم النسب النبوي، فيبرز شعورهم به الى حد الاساءة اليه، لكان في احكامه مستبداً مثل ابيه، وفي تشبثاته شاذاً مثل الامام يحيى. ولو كان مواظباً على السنة مثل ابن سعود لكان امره في اكثر الاحايين مستغرباً مضحكاً.

كان فيصل مسلماً سنياً حنفياً صادقاً وكفى. بل كان لبلورة ايمانه سطوح متعددة، تنعكس فيها انوار المذاهب الاسلامية الاخرى انعكاساً

صافياً • وقد كنت اشعر في محادثته ان لعقيدته الدينية بطانة من التساهل الذي يتخلله الاحترام لسائر الاديان في العالم • هو رجل من رجال العالم الكبار • وهو مسلم يندر مثله بين حكام المسلمين • فقد كان في تعقله واعتداله مثال الحكمة العالية ، وفي رحابة صدره وتساهله مثال الحب والاخلاص •

قلت في الفصل الاول من هذا الكتاب ان فيصلاً تربى في المضارب تربية عربية بدوية ، عملاً بتقليد للبيت الهاشمي يراد منه ان ينشأ ابناؤه اصحاء اشداء ، ان يخشوشنوا مثل البدو ، ويتشربوا في البادية روح الحرية والاخاء • نعم التقليد • ولكن اقامة فيصل في الاستانة سبع عشرة سنة ، في بلهنية العيش ، وفي ما يجوز ان يدعى الامر ، افقدته ، على ما يظهر ، ما اكتسبه في البادية من القوة والنشاط • فما كان فيصل مستمتعاً على الدوام بتمام الصحة والعافية • وان تلك القوة التي كانت تمكنه من الاستمرار في جهاده السياسي انما هي قوة عصبية ومعنوية ، منشأها الارادة والعزم • فقد تحمل في الحرب ما يتحمله البدو من مشقات البادية ، وبدت قواه هذه في اشد واروع مظاهرها • ولكنه كان يؤثر الرأي على الشجاعة ويقول : النصر يبدأ في الادارة والتدبير •

يصح ان نقول انه ما كان من رجال الحرب الكبار • بل كان اولاً وآخراً رجلاً مفكراً • والفكر وليد السلم ووالده الاكبر • وقد كان الملك فيصل في حبه للسلم ، وفي جهاده من اجل السلم ، شجاعاً غير هياب ، وشهما لا يذكر الحساب ، شهما كريماً ، ينسى ولا يلوم • لولا ذلك لكان اضطرم الدم العربي القرشي مراراً في عروقه ، وخصوصاً يوم خانه السياسيون وانقلب عليه المعاهدون ، فحمله على عمل يُبرِّر ولا يُحمَد ، فيه البلاء لخصومه

العرب وللعرب انفسهم . عليّ وعلى اعدائي يا رب . ولكنه كان يأبى ان يكون مدمراً .

بيد ان التاريخ حافل بالنكبات التي منشأها عنجهية الملوك وحماقتهم . اما فيصل فقد كانت الحماقة بعيدة منه بُعد العنجهية . وكان حب الذات عنده رمزاً لحب اسمى ، رمزاً لحبٍ قومي ، رمزاً لحب امته العربية . في سبيل هذا الحب ، وفي سبيل السلم المؤيد له ، كان يتحمل فيصل ما لا يتحمله رجل آخر في منزلته . وكان يكظم الغيظ ، وينكر النفس ، توصلاً الى اغراضه .

انما هذا شأن الرجل الحكيم الخبير ، البارع في معالجة الامور المتوقدة ، وفي حل المشاكل المتعقدة . بل هذا شأن الرجل العظيم في السياسة . ومما لا ريب فيه ان فيصلاً كان من اعظم السياسيين في الشرق الادنى ، ومن اكبر العاملين من اجل السلم في العالم . يكفي ما قام به لتوطيد اركان الصلات السلمية بين العراق الجديد والبلدان المحيطة به . فقد تغلب بالحكمة والشهامة ، وبالاخلاص ليقينه ولوطنه ، على النزعات الحربية في جارات العراق الثلاث ، اي تركية وايران ونجد .

اجل ، ان في مصالحته لحكومات هذه البلدان ، وفي زياراته لانقرة وطهران وباريس ، وفي مساعيه الموفقة لتوثيق عرى الولاء بينه وبين خصومه بالامس ، بينه وبين ابن سعود ومصطفى كمال ورضا خان والفرنسيس انفسهم ، ان في هذه الاعمال الجليلة ما يستوجب الكثير من ترويض النفس ، ومغالبة الاهواء ، وما يلزم لذلك من الشهامة وكرم الاخلاق . ان فيها ما يوجب علينا ان نقرن اسمه باسماء ستراسمان وبريان ورمزي مكدونلد . بل ان فيها ما كان يؤهل ملك العراق لجائزة السلم

من جوائز نوبل ٠

حدثني فيصل عن اجتماعه بعبد العزيز ابن سعود قال : « لو كان الخلاف خلافاً شخصياً بيني وبين ابن سعود ، وتلاقينا واحتربنا ، وقُتل احدنا ، وانتهى الامر ، فلا بأس ٠ اما ان نجر العرب لقتل العرب من اجل انفسنا فهذا عيب والله ، بل اثم كبير ٠ نحن الملوك والاشراف امناء على مصالح هذه البلاد العربية ٠ واننا اليوم اكثر منا بالامس حراس على هذه المصالح العامة وعلى سعادة الامة ٠ فمن العيب ، بل من الاثم ان نسلك المسلك الذي لا تستقيم فيه غير مصالحنا الخاصة لاننا ملوك واشراف ٠ من العيب ان نستخدم قوة الامة لنعزز مقام ملكٍ او مقام شريفٍ فيها ٠ وعندما تتغلب مطامع الملك الشخصية على وطنيته يحق للامة اذ ذاك ان تحاسبه ، بل ذلك واجب عليها ٠ »

عندما اجتمع فيصل وعبد العزيز على المركب الحربي البريطاني في خليج العجم ، في شهر شباط سنة ١٩٣٠ ، سلما سلام الاخوان ٠ وقبل الواحد منهما الاخر على الطريقة العربية ٠ ثم قال فيصل لعبد العزيز :

« لست الان فيصل بن الحسين يحدث عبد العزيز ابن سعود ٠ انما انا ملك العراق وانت ملك الحجاز ونجد ٠ فاذا كنت تنظر الي في اجتماعنا هذا بصفتي الشريف فيصل بن الملك حسين ، الذي كان بينك وبينه ما كان ، فانك تحتقرني ٠ ولكن اجتماعك هو بفيصل ملك العراق ٠ وبصفتي هذه احب وآمل ان تكون بلاد نجد والحجاز سعيدة وان تكون على ولاء وبلاد العراق ٠ »

ومما قاله بخصوص المخافر التي بنيت قرب الحدود بين العراق ونجد :

« ما بنيناها عداوة لاهل نجد بل مساعدة لكم ، يا اخي ٠ بنيناها لردع

القبائل ، قبائلكم وقبائلنا ، عن الغزو والتجاوز . فاذا جاء الاخوان صائلين تردهم خائبين ، فيتعودون الطاعة للنظام ، فيهون عليكم اذ ذاك ضبطهم . وكذلك اقول في قبائل العراق . المخافر هي لمصلحة بلادكم والله وبلادي . »

الملك عبد العزيز : « اقسم بالله ان ليس في قلبي ذرة من البغض او من الاحتقار لفيصل . وما فيه لفيصل غير الحب والاكرام . والله وبالله ورب البيت ، جئت تابعاً قلبي الى هذا الاجتماع . واني اسأل الله ان يوفقنا جميعاً الى ما فيه خير العرب . »

وعندما كان الامير فيصل ابن الملك عبد العزيز في اوروبه ، وعاد منها الى طهران بطريق روسيه ، وجاء من طهران الى بغداد في صيف سنة ١٩٣٢ ، رحبت الحكومة به ترحيباً جميلاً ، وشاركها الشعب بمظاهرات الاكرام والولاء . حل الامير فيصل ضيفاً على الملك ، فادب له مأدبة رسمية ، وخطب فيها مطرئاً الملك عبد العزيز ، الزعيم العربي العظيم . وما كان الملك عبد العزيز اقل كرماً واخلاصاً . فقد ابرق الى الملك فيصل يقول ان عروة الاخاء الوثقى بين اهل نجد والحجاز واهل العراق هي من فضل فيصل . وانها ما كانت وثيقة لولا مساعيه ، وما كانت موجودة لو لم يكن هو فيصل البادىء في عقدها . اني على يقين ان هذه العواطف المتبادلة بين العاهلين هي فوق السياسة ، هي من القلب .

فقد قال لي الملك عبد العزيز ، عندما زرته اخيراً في جده ، ان الملك فيصلاً صديق مخلص ، وعربي شريف كريم الاخلاق ، وزعيم مقتدر حكيم . وقال لي مرة وهو يجنح الى الدعابة : « فيصل يقول انه يحب ان نزور امريكه انا واياه . وكيف نسافر الى امريكه ، وحدنا ؟ والحريم — كلا والله . النساء هناك سافرات ، ونحن متبعون في الحجاب سنة النبي صلى

الله عليه وسلم . نسافر ونترك الحريم ، هذا ما يصير . نأخذ الحريم معنا ونحجبهن — هذا صعب والله ... ولسنا من الذين يقولون بهذا الذي يسمونه روح العصر ، فنكتفي بواحدة لا غير . اننا متبعون السنة النبوية ، نأخذ ما يجيزه النبي ، ونمتنع عما يحظره . فقد اجاز لنا التمتع بما نشاء من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ، وما ملكت ايديكم . لغيرنا من حكام المسلمين ما يشاءون . فقد لا يلزم بعضهم اكثر من واحدة ... اما نحن فاننا نتمسك بالحقوق التي يتنازلون عنها . »

قد تنازل الملك فيصل عن وانكحوا ما طاب لكم... ولكن الملكة زوجته الواحدة والاميرات بناتها لا يزلن محجبات . وما كان يستصوب الدعايات الدينية ، والسياسة المبنية على الدين ، اي انه كان مخالفاً للنزعة النجدية الوهابية . ولكنه اذن للمرسلين الاجانب بالدخول الى العراق . وقد استحسن نبذ الطربوش في تركية فنبذه في العراق ، ولكنه احجم عن البرنيطة واستعاض عنها بالسدارة . لقد وقف فيصل اذن بين ابن سعود ومصطفى كمال في بعض الامور الاجتماعية والدينية والسياسية . وما كان ذلك حرصاً على كرامة يخشى ان تُذل بالاقتداء ، بل عملاً بما رآه حقاً في مثل بيئته واحواله . فقد شاهدناه مُقدماً في بعض المواقف الخطيرة ، عندما يتوضح السبيل ويتيقن الحكمة فيه ، كالعمل للسلم ولتوطيد اركان الولاء بينه وبين جيرانه . فما كان هيّاباً في هذا الامر ولا اكترث لما قد يكون في اقدامه من المفاداة بكرامته .

اما في الاحوال المريبة والمواقف التي لا يترجح له فيها اليقين ، فقد كان يحجم ويتردد ، ويسمع فوق ذلك لكل من جاءه ناصحاً مشيرا . ولكنه في الاحوال المتأكدة ، وان تزاحمت فيها الاغراض والنزعات ،

كان يستقل بعمله ، ويمضي لغرضه جازماً حازما ، فتظهر روح الزعامة فيه طليقة قوية . وقد كانت السكينة من سجاياه الكبرى في كل احواله ، بل كانت الركن الاول لقواه المعنوية والسياسية كلها . السكينة ومافيها من الغذاء للنفس ، ومن اسباب السيطرة عليها ، هي ذي ناحية من نواحي العظمة في فيصل . فقلما كان يُرى في حالة الغضب او الاضطراب . كانه الصنوبر من الاشجار ، لا تهزه الرياح العاصفة . قال لي احد وزرائه : « أحب والله ان اراه مرة غضباً او مضطربا . وان غضب مرة فلا يلبث ان يسكن ويروق . لا يمشي مع الغضب الى النهاية ، الى ما لا تحمد عقباه »

ومن مزاياه ، مع ذلك ، شدة الاحساس والتأثر . فاذا كان في مجلسه مَن لا يحب ، او من لا يثق به ، كنت تراه منكمشاً ، متوارياً بنفسه ، ومقفلا عليها باب السكوت . يفعل ذلك وهو يشعل السيكارة تلو السيكارة ، او يلعب بسبحته . رأيته مرة يلعب بزر من ازرار صدرته كالولد الصغير . كانه في كل ما ذكرت يغالب النفس المأسورة ، المضغوط عليها ، فلا تشتعل غيظاً ، وهو المليك صاحبها الشفيق على غيره منها . وبكلمة اخرى كان يسوس جواد النفس فيه ، الجواد العربي الاصيل ، سياسة ماهرٍ مجربٍ حكيم . بيد انه كان يخشى في ايام الانتداب الاولى ان يجمح به فيبعده من تلك الحياة الملكية المكربة .

وما كان الايمان بالله وبرسوله ملجأ فيصل الوحيد ، كما قد يتبادر لذهن الناس . بل كان له ملجأ آخر ، وقد يكون في بعض احواله الملجأ الاكبر ، وهو الاسترسال في التفكير والتساؤل العقلي . كان يجلس ونفسه فيطارحها الحديث بسكينته المعهودة ، فيقول لها : وما هذا الذي نحن فيه ؟ تعالي اريحك منه . تعالي نبحث هذا الموضوع ونتبحره .

كان فيصل تواقاً الى النور في شتى المواضيع ، وكان يجنح كثيراً الى الشك والتسآل . لله ما اكثر سؤالات سيدنا . قالها ذات ليلة احد الضيوف . فقلت : وما اوسع نطاقها . فمنها سؤالات الطالب العلم ، ومنها سؤالات الراغب بطريقة للتنفيذ في شؤون الملك ، ومنها سؤالات للتسلية ، وهو لا يجهلها . ان من حق الملوك الجزية . وعلى كل من يتشرف بمجلس الملك ان يدفعها ، وله بعد ذلك ان يفاخر ماشاء . سألنا مرةً سؤالاً عن الحروف العربية وهل يمكن اصلاحها مع المحافظة على جمالهـا . ففتح باباً عسر بعد ذلك اقفاله . كان الشاعر الزهاوي من المدعوين الى العشاء ، فتناول الحديث وشرع يشرح مشروعه او بالحري اختراعه الذي فهمت منه ، وما اظن انالضيوف الاخرين والملك فهموا اكثر مني ، ان ستكون الاحرف ستة عشر حرفاً لاغير ، وبشكل يمكن من كتابة اللغة العربية او طبعها طرداً وعكساً ، من اليمين الى الشمال ، ومن الشمال الى اليمـين . وكان الضحك مسك الختام .

قلما كان الملك فيصل يبدي رأياً واحداً في مسألة من المسائل ، دينية كانت او ادبية او اجتماعية . بل كان يقلّب بها ليتسع مجال التسآل من نواحيها كلها ، فيعطيك هو نفسه رأيين او ثلاثة آراء فيها . مما جعلني اظن ان العقلية الفلسفية السقراطية هي من طبعه . ولو لم يكن سياسياً ، لو ظل في مكة بعيداً عن الدوائر السياسية ، لكان عالماً من علماء الاسلام ، له منزلة الغزالي في علم الكلام . فقد كنت اشعر وهو ينتقل بنا من موضوع الى اخر ان له رغبة خاصة شديدة ، هي رغبة العـالم الفيلسوف ، بمجرد الاطلاع على حقائق الامور والتبحر فيها .

اما المسائل التي تتعلق بشؤون البلاد ، اجتماعيـة كانت او سياسية او

اقتصادية، فقد كان ينظر اليها من وجهة واحدة هي وجهتها العملية · كيف يمكننا ان نعمل بهذا المبدأ ؟ كيف تطبق هذه النظرية عندنا ، وهل ذلك بالامكان ؟ وبكلمة اخص ، كما كان يقول ، كيف نقاوم ما لا يوافقنا من المدنية الغربية ونتغلب عليه ؟ كيف التخلص مما هو مضر منها بثقافتنا العربية ؟ وما هي الاشياء النافعة لنا ، وما هي المضرة ، في ثقافة الغربيين ومدنيتهم ؟

تقولون : انها مدنية مادية · وهل نحن بغنى عن الماديات ؟ فاذا سلمنا انها لازمة لنا — ولا اظنكم تنكرون ذلك — فهل ينبغي ان نتكالب في سبيلها مثلهم · كيف يمكننا ان نحسن احوالنا الاقتصادية والمالية ونظل شرقيين ؟ هل نتوفق الى ذلك في اختيارنا النافع ، ونبذنا المضر في هذه المدنية ؟ ومن يدلنا على النافع ، ومن يعلمنا لنتقي المضر ؟ هوذا فيصل في حكمته وفي حيرته ·

على انه لم يكن كذلك في كل الامور · وقد كان له من الاراء الوضعية الفاصلة ، ومن مواقف الحزم واليقين ، ما يسترعي الانظار · — لا ينبغي ان نتناول الامة دفعة واحدة اكثر مما يمكنها ان تتصرف به — ينبغي ان تكون تشوقاتها الوطنية متناسبة ومقدرتها العملية · الامر الراهن هو غالباً مكروه ، والشرقي لا يعترف به · الشرقي يدير ظهره للحقيقة ولا يواجهها · ترانا نلجأ الى الدين نغذي به الامال ، او الى الشعر فنتلذذ بالخيال · يجب علينا ان نروض انفسنا في مجابهة الحقائق ، وان نتعلم ان نعالج الامور كما هي في ارضاعها الراهنة · يجب علينا ان ننظر الى الحياة مجردة من الزخرف والخيال · هوذا فيصل الفاصل الجازم ، فيصل المعلم ، فيصل الزعيم ·

اني لاذكره خصوصاً في مجلسه ، وقد صفت له ساعة من الزمان ، فيمدد رجليه ويدعونا انا والقسطنطين ، لمشاركته في التدخين ، فيعلم اني لا احب السيكارة ، فيأذن بالغليون ، او يخرج صندوقاً من الخشب ويفتحه قائلاً : دونك والسيكار .

عندما جئنا ذات ليلة للعشاء ، وجدناه جالساً يطالع بعض الاوراق ، وهو مكشوف الرأس ، والسدارة ، وهي من لون ثوبه الرمادي ، على الطاولة الصغيرة امامه . وبعد ان انتهى من قراءة ما بيده وضمها الى غيرها من الاوراق على الطاولة قلت : « لا نهاية على ما يظهر لشغل جلالتكم . » فقال : « يجيئنا كل يوم شغل يومين . »

— « أيعني ذلك انه يجب عليكم ان تشتغلوا ليل نهار ؟ »

— « اذا اقتضى الامر . ولكن المعدل عشر ساعات واحياناً اثنتا عشرة ساعة . »

— « هذا مخالف لنظام العمال . »

— « سجلها اذن لهذا العامل الذي لا يرعى نظام العمال ... وما رأيك ، يا امين ، في الحكومة البلشفية ؟ »

عددت هذا السؤال منه مفاجأةً جائرة . وقد سأله عرضاً ، وهو يلبس سدارته ، كأن الجواب عليه ممكناً ونحن ماشون الى غرفة الطعام . فقصصت عليه ، اذ جلسنا الى المائدة ، قصة كارل ماركس يوم كان مقيماً بلندن . فقد فكر مرة بالسفر الى اميريكه ، ثم عدل عنه قائلاً : لو انني سافرت لصرت هناك غنياً ، ولما تسنى لي ان اكتب كتابي وأودي رسالتي . ثم قلت لجلالته ان البلشفية او حكومة السوفيت هي اعظم تجربة اقتصادية سياسية في تاريخ العالم ، منذ ايام اور وآشور الى يومنا هذا ،

وانها كتجربة جديرة بالاعتبار . فقد يكون فيها الخير الاكبر المنشود ،
وهي في كل حال لاتخلو من الخير . ثم اتخذت خطة الهجوم ، ولست ادري
الآن باي اسلوب ، وبأية حيلة ، فانتقلت الى فن التصوير ، وسألته عن
رسميه الزيتيين اللذين رسمها اثنان من الفنانين المشهورين في انكلترة —
لزلوس المحافظ ، وأغسطوس جان المجدد . واظن اني اسميت الاول فناناً
ملكياً ، والثاني بلشفياً .

فاجاب الملك وهو يبتسم ابتسامة من تذكر شيئاً يسر ويحزن معاً :
« لا يزال الرسمان بلندن [1] . يظهر ان الفنان يريد ان يغتني دون ان
يسافر الى اميركه ... لا ، ليس في طاقتي ان ادفع ثمن الرسم الواحد
الف ليرة انكليزية . »

وما ادهشني ذوقه عند ما سألته أي الرسمين يفضل على الآخر .
فقلت كلمة ، رغب بها ، في الطريقة القديمة والطريقة الجديدة في التصوير ،
فقال : « اذا لم يكن المرء ملماً بعلم التصوير اذن ، لا يدرك محاسن
المجددين ولا تروقه طريقتهم . العين وحدها لاتكفي كما تقول ، والعاطفة
مع العين لا تعين . بل تضلل كما هو الامر في تفضيلي رسم لزلوس على
رسم جان . »

— « أوَ ليس السرور الناشيء عن النظر والعاطفة والمعرفة معاً اكبر
واثبت من السرور الناشيء عن العاطفة وحدها ، او عن العاطفة
والنظر معاً ؟ »

— « هذا صحيح ، يا امين . وبودي لو كنت عالماً بشيء من الفن

---

(١) اما رسم اغسطوس جان الذي اثبتنا صورته الفوتوغرافية في هذا الكتاب
فهو الان في متحف برمنهام في انكلترة .

لاني احب الرسوم الزيتية الجميلة · ولكنك رأيت كيف الاشغال تتراكم علي · فاين الوقت لدرس الفنون لنتمكن من فهمها فيزداد سرورنا بها ؟ ما رأيك في الدعاية (بروباغندا) ؟ »

— « كانت شراً لازماً من شرور الحرب العظمى ، وقد امست ضربة من ضربات المدنية · »

— يسرني والله ان اسمع هذا منك · يقولون لي : يلزمك بروباغندا · وانا اقول انها ، وان كانت مبنية على الحقيقة ، من الاباطيل ، تذهب كالهباء المنثور · وقبيح بالمرء ان يعلن نفسه · »

— « ان لها غير الهباء المنثور نتائج مدهشة · وخصوصاً اذا كان القائمون بها من رجال الفكر والفن · المعلن نفسه ينفع نفسه في اكثر الاحايين ويزعج الناس دائماً ·»

— « اني افضل الضرر بدون دعاية على النفع بها · »

قال هذا بلهجة فاصلة صادقة وهو يضع المنشفة على المائدة ويضربها بيده · ثم قال ونحن عائدون الى المجلس : « فضلاً عن ذلك ، ليس في ماضي حياتي شيء مهم · ليس فيه ما تسميه مادة صالحة للدعاية · الحقيقة يا اخي ، الحقيقة وحدها تكفي · هي تنطق بخير صاحبها او بشره · »

— « ولكن الناس لا يدركون الحقيقة اذا لم ينبهوا اليها · »

— « ومن ينبههم اليها — الكتاب ؟ اكثرهم يقفون بين الحقيقة والناس · الكاتب ! الكاتب ! هو الذي يعرف الحقيقة ويقدمها للناس بامانة واخلاص · وعندي ان لا يجوز ان يقدم منها للناس غير ما فيه الفائدة وشيء اذا شئت من الفكاهة · هذا شغل الكاتب ··»

— « الكاتب الذي يتشرف الآن بمحادثتكم ·· »



الملك فيصل

رسم فوتوغرافي عن الصورة الزيتية تصوير الفنان الانكليزي الشهير
اوغسطوس جان — وقد اشتراها متحف برمنغهام بانكلترة

— « اسؤ ل منك هذا ام اقراراً ؟ »

— « وهل تأذنون بالاثنين ؟

— « يعني انك تريد التعاون · »

— « أوَ لستم الزعيم الاكبر للقائلين بالتعاون ؟ »

رفع يديه وقال ضاحكاً : « احسنت التورية · » ثم جلس متبصراً ·

« وماذا تبغي مني ، يا امين ؟ »

— « ما جئتكم مستوزراً ولا طالب امتياز نفط · »

ضحك ثانية وهو يشعل السيكارة ويشير الى علبة السيكار ·

— « واني استأذنكم في اختيار المناسب من المواد التي تتعلق بحياتكم الشخصية · وسأتقيد من وجهتي الخاصة بقاعدتكم — الحقيقية قبل كل شيء ، والمفيد الطريف منها لا غير · »

— « وهل يحسن الكاتب الاختيار دائماً ؟ »

— « لا والله · »

— « وهل يستطيع ان يملك عواطفه وامياله دائماً ؟ »

— « ذلك ممكن · المسألة تتوقف على مزاج الكاتب وتهذيبه ، وهو في كل حال ، لسوء الحظ ، او لحسن الحظ ، قاضي التمييز · »

— « اعوذ بالله من بعض القضاة وتمييزهم · »

— « وان حسبتموني من ذلك « البعض » فاني مصر على التمييز ، وطامع برحابة صدركم · »

— « الذي يصلح للنشر ، يا امين ، والذي لا يصلح ·· »

وقف عندها متردداً ، فقلت : « هوذا شغلي · »

كانت السبحة بين انامله يتلهى بها ، فتوقف فجأة ، وهو يضحك -

— « واني اسألكم فوق ذلك ان تمتخنوني بصفتي قاضي التمييز . قصوا علي قصة فاقول لكم بصراحة اذا كانت تصلح للنشر . انا الان المحرر ... »

كان صافي المزاج تلك الليلة ، متألق الروح . فرفع السدارة عن رأسه ووضعها على الطاولة ، وقال :

— « سأقص قصة مضحكة ولكن لا لامتحانك ، لا والله . كنا بعد الجلوس الاول ، انا والمندوب السامي السر برسي كوكس ، مشتغلين في تأليف الوزارة الاولى ، فعينا كل الوزراء الا واحداً حرنا في امره . بقي عندنا بضعة اشخاص من المنتخَبين او المستوزرين وليس فيهم من يمتاز عن الاخر بشيء . محمد ، محمود ، احمد ، حمدي — كلهم واحد — من منهم نعين يا حضرة المندوب ؟ — من منهم نعين يا جلالة الملك ؟ حرنا ، والله ، في امرنا . ثم خطر لي خاطر ، فقلت للمندوب : عندي اقتراح ، وقد يضحكك كن مسلماً لدقيقتين ، وتوكل على الله . تعال نعمل يانصيب على الوزارة الاخيرة . وهذا ما كان . كتبنا الاسماء على وريقات ، وضعناها في علبة ، وجلت بها يدي قائلاً للمندوب : قل معي : توكلنا على الله . ثم سحبنا الورقة الاولى وفتحناها ، وكان صاحبها الوزير — وزير اليانصيب ! »

***

اجتمعت ذات يوم في الخارجية بالنحات الطلياني المشهور بياترو كانونيكا ، فساءلت نفسي هل وجوده هناك من نعمة « اليانصيب » كذلك ؟ ولم لم يخص « اليانصيب » بنعمته نحاتاً انكليزياً ؟ اما إبستين فهو من المجددين ، وقد يكون مثل اغسطوس جان شغفاً بالمال . ولكن هناك بلندن كثيرين غيره يجيدون عملهم ولا يطمعون . وهناك النحاتون

الفرنسيس والالمان ، بل هناك النحات اللبناني الحويك . فما الذي حمل الملك على تفضيل الطلياني يا ترى ؟

تزا بي القلب الى البحث والعلم . وسأذيع الان سراً من اسرار الدولة الطليانية . ان دعاية السنيور موسوليني لبلاده وشعبه تتجاوز التجارة والسياسة فتشمل كذلك الفنون الجميلة . وهب ان الاستاذ كانونيكا هو صديق حميم للسنيور غراندي وزير الخارجية السابق فهل يدعوه لمأدبة رسمية تقام لملك من الملوك او لوزير من الوزراء الاجانب ، دون ان يستأذن السنيور موسوليني ؟ وان اذن السيد الاكبر فلغرض ما ، وطني او سياسي . ولا حاجة اذ ذاك الى حركة الالتفاف في الحديث ، لنصل الى الفنون الجميلة ، فنرفع اسم ايطالية عالياً في الخارج ، ونزيد بثروة احد ابنائها النوابغ وبالتالي بثروتها .

وها كم النحات الشهير جالساً قرب السنيور غراندي ، في المأدبة التي اقامها السنيور موسوليني للملك فيصل وحاشيته عند ما زاروا رومة المرة الاخيرة . وهل يسيء الادب اذا ما فاه بكلمة تتعلق بمهنته الشريفة ؟ وهل يضر سياسة الدولة اذا ما اعرب عن رغبته في تزيين بغداد بأثر من آثاره ، يكون موضوعه جلالة الملك ، ملك العراق ؟ لا بأس بذلك — انما يا استاذ كن دقيق الاشارة ، لطيفها . لا تجارة ، في مادبة الوزارة .

بمثل هذا يمهد رئيس الحكومة الطليانية السبل لفناني ايطالية . فيجيء السنيور كانونيكا الى انقرة ليخلد ، في المرمر والنحاس ، مصطفى كمال . وبعد ذلك يجيء الى بغداد ليزين ساحتها الكبرى بتمثال الملك فيصل . اجل لقد كانت المأدبة واسطة التعارف ، وكان سلام ، وكان كلام ، وكان بعدئذ العمل في تماثيل فيصل والسعدون عبد المحسن .

استقبلنا الملك في اصيل ذاك النهار باسم الفن ، وهو مثـال الاناقة والذوق ، يرتدي ثوباً رمادياً ، خاطه خياط انكليزي ، وقميصاً ناعماً ، وربطة رقبة وجوارب وسدارة كلها من لون ثوبه — هو التناسب مجسماً. وكان ساعة وصلنا واقفاً امام الاستاذ ، على بضع خطوات منه ، والاستاذ واقف ، وظهره للنور ، امام رأس من الطين يكوّن ملامح الوجه فيـه . ووقفت انا امـام الملك انتظر السؤالات ، فنظر الى الاستـاذ ، ثم الي وقال : « انا الآن بين فنانين . اعوذ بالله »

— « أوليس ذلك خيراً من ان تكون بين سياسيَين ؟ »

— « والله صحيح . والله صحيح . »

وكان صفوت باشا الخازن الامين الرصين ، واقفاً في زاوية القـاعة ، مكتوف اليدين ، وعلى وجهه مسحة من القلق . « سيتعب الملك من الوقوف . » قال هذا وبادر الى كرسي قدمه له . ولكن صاحب الامر في تلك الساعة انما هو الاستاذ الطلياني . فهز رأسه عنـد ما جلس الملك وقال : « واطي ، لا يوافق . يجب ان يكون النور على الوجه بخطٍ مستقيم وليس بخطٍ منحدر . » وقد اطنب في الشرح اكراماً للملك . فأبعد الكرسي ، وجاء صفوت ، الحريص على راحة سيده ، بطاولة صغـيرة ، فكان يجلس عليها ، من حين الى حين ، جلسة غير كاملة ، فيريح رجلاً واحدة من الوقوف .

ما كان فيصل ليعجب الفنـانين ، لانه كان يتعب في جلوسه او في وقوفه ساعة ، فتبدو على وجهه سيماء الزعَج . وقد كنت في ذاك اليوم خادماً للاستاذ كانونيكا ، معاوناً له ، في شغلي الملك عما كان يزعجه . ولو فهم الحديث لزاد ارتياحه الى العمل . مع ذلك كان يتقدم في تكوين

الوجه ، بين نحن ننتقل في لمواضيع من بلاد الى بلاد . وقد ذكرني بابيات لعمر الخيام في المكون الاكبر ، مبدع الكائنات ، رب اللاعبين بالطين . وها هو ذا الطيان الاصغر يلطف بابهمه خطاً في الجبين ، ويرفع من الخد نتوأً بالسكين ، وينقل شيئاً من هذه الناحية فيضعه في الناحية الاخرى ، ويحفر ويدوّر ، ويبني ويجوّر حتى كاد الوجه يشبه صاحبه . ولكن هناك في نفس فيصل ، ساعة اكتئابه ، وساعة ابتهاجه ، ما لا اظنه يبرز من بين انامل النحات الطلياني وسكينه . عند ما كان يعدل الخطوط والظلال في الجبين مثلا ، ما ادرك شيئاً مما كان يشغل الملك . كنا نتحدث في المدنية الغربية المادية ، وكان فيصل حائراً قلقاً على عادته ، لا يدري ما سيكون حظ العراق ، بل حظ البلاد العربية منها . هل نستطيع ان نغربل هذه المدنية ، فنأخذ قمحها ، وننبذ زؤانها ؟ وكيف السبيل الى ذلك ؟

اخرج من جيبه علبة السيكارات ، فاذا هي فارغة ، فمد بيده الى صفوت ووجهه المنقبض يقول : الي بسيكارة . انقذني . فاسرع صفوت يملأ له العلبة .

— «وهل يمكننا ان نحافظ على ثقافتنا ، يا امين ، ونحن غائصون الى الركاب في الثقافة الاوروبية ؟ وهل يصح ان ننبذ ثقافتنا القومية ، ونقبل ثقافة الغرب كلها — بحذافيرها ؟ »

كان يجب على الملك في تلك الساعة ، من اجل الاستاذ كانونيكا على الاقل ، ان يجيب على سؤالاته ، فيستمر في الحديث . فحذوت حذوه في الاقتضاب ، وتعمدت إذكاء قريحته فقلت : « الجواب على احد هذين السؤالين هو مصطفى كمال ، والجواب على الآخر هم العلماء . فاختاروا ما تشاؤون . »

— « لا العلماء ، من وجهة نظري ، ولا مصطفى كمال . مدارسنا

الدينية قديمة عقيمة . هي مدارس العمائم وللعمائم ، تلف وتلف مثل العمامة حول موضوع واحد . ولكننا لا نزال في حاجة اليها . فاذا ابطلناها اليوم وعلمنا اولادنا العلوم الكونية لاغير يصيرون كلهم ملحدين دهريين . الولد المسيحي او الاسرائيلي تعلمه امه شيئاً من الدين ، فتغرس في صدره الاعتقاد بالله . ولكن الاولاد المسلمين لا يتعلمون شيئاً في بيوتهم . امهاتهم جاهلات ، واباؤهم في اشغالهم ، واكثرهم كذلك جاهلون . فيجيء الاولاد الى مدرسة المسجد وعقولهم فارغة فيملأها الامام بقشور الدين ... انا من رأيك ان ليس من الحكمة ولا من الواجب ان تعلم الحكومة الدين في مدارسها فاذا علمنا دين الاسلام وجب علينا ان نعلم الباقين من الطلاب اديانهم ، حتى اليزيديين منهم والصابئة . وهذا غير ممكن . لان العلوم الدينية كلها تستغرق معظم وقت التدريس . انا من رأيك ، يا امين . ولكنني اعدك باننا سنصلح مدارسنا الدينية وسيصير عندنا ائمة عصريون ان شاء الله . سيتعلم بعض طلاب مدرسة التجهيز العلوم الدينية ويتشربون في الوقت نفسه الروح العلمية العصرية ، فيصير عندنا علماء عصريون مجددون . وعند ما يتم ذلك ، عندما نصلح المدارس الدينية ، نبطل تعليم الدين في مدارس الحكومة . »

سأل الاستاذ كانونيكا الملك ان يدير وجهه الى النور . فحدق بناظريه كانه يتحقق لونهما العسلي . وغرضه الشكل لا اللون . ثم طلب اليه ان يغير وقفته فغيرها وهو يسأل النحات : « ألا تتعب ؟ »

ثم امر بالشاي ، واشعل سيكارة ، واعاد سؤاله باللغة الفرنسية : « ألا تتعب ؟ » فاجاب الاستاذ وهو يشتغل في اللحية بالباهم والسكين معاً : « اني مسرور جداً » وكان الجو يبرد ويقتم ، فاحس الفنان واحسست انا ان لا بد من شيء يعيد اليه اللمعة والحرارة . فرويت نادرة من نوادر

الفنان الشهير وستار فسر الملك بها ، فعاد النور يتألق في وجهه وناظريه ، فهتف كانونيكا بالفرنسية قائلا : C'est ça, c'est ça ومرت يده مسرعة من اللحية الى الاذن ومنها الى مؤخر الرأس ٠

وانتقلنا كذلك في الحديث ، مسرعين من لندن الى الاستانة ، فحدثنا الملك عن نفسه يوم كان صفوت العوا المعلم الخاص لاولاد الشريف حسين هناك ٠ ثم قال : « انا اعرف طعمة القضيب واكثر من الطعمة ٠ ما كنت مجتهداً مثل اخي عبد الله ٠ بل كنت متأخراً دائماً في العلم وكان معلمنا » (هز صفوت رأسه مبتسماً) « يعلمني انا هكذا » — ضم الملك اصابع يده بعضها الى بعض وطفق يضربها بكف اليد الاخرى ٠ « وهذا صفوت اسأله ٠ » والشيخ الجليل المكال شعره الابيض بسدارة سوداء ، الضام يديه الى صدره ، الواقف في الزاوية كتمثال للحشمة والوقار ، احنى رأسه ثانية وابتسم ٠

وبينا نحن نتناول الشاي انتقلنا من الاستانة الى باريس ٠ يظهر ان الفرنسيس ، خصوم فيصل بالامس ، هم اليوم جانحون الى الولاء ٠ فقد ادركوا انهم اخطأوا في صيف عام ١٩٢٠ ، لانهم ما فاوضوا فيصلاً بدل ان يحاولوا القضاء عليه وعلى اماله ٠ فلو فعلوا لكان امرهم في سورية اليوم على ما يرام ، ولما كانت الثورة التي جرّت على فرنسة الخسائر الباهظة من مال ورجال ٠ وخير برهان على تغير موقفها المأدبة التي اقيمت للملك فيصل بباريس في صيف سنة ١٩٣١ ، والنخب الذي شرب به مدير الوزارة الخارجية يومئذ المسيو برثيلو ، نخب الملك فيصل ، ملك العراق وسورية ٠ ان هذا الحدث لا يزال حديث الصحافة وموضوع اهتمام السياسيين العرب والفرنسيس حتى اليوم ٠

في حديث الملك عن الموسيو برثيلو تذكر سلفه في الوزارة الخارجية الموسيو بيشون . وشد ما كان الفرق بين الاثنين . الموسيو بيشون ، خصم العرب في مؤتمر فرساي ، اساء معاملة فيصل واثار غضبه . فعندما سافر من بيروت وحاشيته في الباخرة الحربية الانكليزية الى مرسيلية ، استقبلتهم السلطة هناك بامر يمنعهم من السفر في فرنسة . فأرسلت برقيات الاحتجاج الى لندن ، فجاء الجواب مشيراً على الوفد العربي بالسفر حول الحدود الفرنسية الى البلجيك ، ريثما تتم المفاوضات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية . فداروا تلك الدورة وسُمح لهم بالدخول الى فرنسة من حدود البلجيك .

وقد اعترضتهم في باريس عقبات اخرى اقامها الموسيو بيشون ، الذي انكر على العرب حق التمثيل في المؤتمر ، وبذل ما في طاقته ليقفل الابواب كلها دون فيصل . كان الكرنل لورنس يومئذ مع الامير ، فاستشاط غيظاً لسلوك الحكومة الفرنسية ، وراح يحتج الى الوفد البريطاني . فاهتم لويد جورج للامر في الحال ، وفي اصيل ذاك اليوم قرع جرس الهاتف في منزل الامير . — وزير الخارجية الموسيو بيشون يريد ان يكلم الامير فيصل . — تفضلوا ، فيصل يخاطبكم . — قد منحنا العرب حق التمثيل في المؤتمر . كان الخبر قد بلغ الامير — جاءه به لورنس — واحسن ما فيه ان العرب نالوا الحق بممثلين بدل الممثل الواحد . فقال فيصل لنا ، وهو يروي الحادث في الحارثية : «اغتنمت الفرصة لادراك ثأري من الموسيو بيشون ، فقلت له : « جاءنا العلم بذلك . وقد علمنا ايضاً ان المؤتمر منح العرب الحق بممثلين اثنين . فما اجاب بكلمة .»»

ثم ادرك ثأره مرة ثانية في موقف اخر بباريس ، فرمى الوزير الفرنسي

بسهم نافذ من سهام التهكم . ذلك عندما وقف في المؤتمر يبسط قضية العرب ، فذكر المساعدة التي جاءتهم من الحكومة البريطانية ، فقال الموسيو بيشون متغيظاً : « والحكومة الفرنسية ، أليس عند الامير مايقوله عن مساعدتها للعرب ؟ » فوقف فيصل هنيهة ، وفيه نزوة الى الصراحة ، فاومأ اليه الرئيس ولسون مشجعاً ، فقال : « نعم ، قد ساعدتنا الحكومة الفرنسية ببضعة مدافع من زمان نابوليون . » وكانت الضحكة التي زادت بتغيظ الموسيو بيشون .

وما نجا حتى كليمنصو من سهام فيصل . إلا ان النصل في السهم هذه المرة لم يكن عربياً . « عندما سألني ذات يوم المستر لويد جورج رأيي في المؤتمر قصصت عليه قصة القافلة وقلت ان دليلها يركب دائماً حماراً . فقال على الفور ضاحكاً : « ومن هو حماري انا . . . ؟ »

***

كان فيصل يروي الاخبار ، ان كان عن نفسه او عن سواه ، بسذاجة جميلة وصراحة صادقة ، لا يعتريهما شيء من التحفظ والاستدراك ، فيجيء كلامه عفو القريحة دون تعمل ودون تنميق - حدثنا مرة عن ايامه الحجازية عندما كان يخرج واخاه عبد الله لتأديب البدو . — « نحن نعرف البادية ، يا محروث ، ونعرف مشقاتها ومسراتها . » كان الشيخ محروث الهذال امير العمارات من المدعوين تلك الليلة للعشاء ، وهو الوحيد بيننا في القيافة العربية ، وما كان فيصل يهمل احداً من ضيوفه ، فيختار من المواضيع ما يهتم له الواحد منهم ويرتاح اليه .

— « اذكر اني كنت اشرف مرة على تموين الحملة . فجهزناها بما يلزم من

البن والسكر والشاي والدقيق والسمن والارز • ثم طلبت شيئاً من العدس • وكان الوالد رحمه الله يفحص كل شيء قبل الرحيل • وكان قاسياً في احكامه ، قاسياً والله • لا يريدنا الا مثل البدو ، في عيشنا • فلا يكون لنا ما ليس لهم • فعند ما جاء يفحص المونة وقف عند كيس العدس وسألني : ما هذا ؟ قلت : عدس • فقال : وهل يأكل البدو العدس • قلت : لا • فقال : وهل انت احسن من البدو ؟ وامر بان يعاد الكيس الى بيت المال • ما أَذَنَ لنا بالعدس • ولكن المرء لا يسأل وهو في الغزو • وهذا محروث يشهد على ما اقول • كنا نأكل الخبز معجوناً بالتراب ، والله ، ومخبوزاً بالرماد ، ولا نبالي • بل كنا نلتذ به كأنه الكعك بعينه • »

ثم انتقل في الحديث الى التعليم ، وقابل بين تربية اولاد المدن والتربية البدوية ، وهو يأسف ان الحضر اجمالاً لا يدركون معنى شظف العيش وفوائده • « فاذا قدمنا لهم الكعك قالوا هذا خبز يابس • والانكى من ذلك ان الطلاب في المدارس لا يقبلون بغير الكعك المسمسم • تراني اتكلم بالالغاز ، وما هو من شأني • من افات التعليم اليوم عندنا في العراق ان يكون هدف الطلبة كلهم هدفاً واحداً • كلهم يتعلمون ليصيروا موظفين في الحكومة • والاولاد يؤمون المدارس الاولية والهدف الواحد — الحكومة — نصب اعينهم • هـذا هو المرض في التعليم عندنا • وقد طالما فكرت في مداواته واظنني اهتديت الى العلاج • »

وما العلاج ؟ مدرسة تؤسس في العاصمة لتجهيز الطلاب للخدمة المدنية ، فتختار الحكومة الموظفين من الحاملين شهادتها • وسيكون طلاب هـذه المدرسة من خريجي المدارس الثانوية في البلاد ، الفائزين

بالفحص الخاص لهـذا الغرض ٠ من كل لواء عدد محـدود كل سنة او سنتين ، دون تمييز بين المسلم والغير المسلم الا بالكفاءة والتبريز ٠ هذا هو المشروع بجمله ٠ فحبذا اهتمام الحكومة له ، وحبذا تحقيقه ٠

بعد العشاء استأذن الشيخ محروث الهذال والضيوف الآخرون ٠ وكنت ارى ان الملك تعب وعلى شيء من الاضطراب ، بالرغم من احاديثه الطريفة ومؤانسته ، فنهضت استأذن كذلك ، فاومأ بيده ان اجلس فامتثلت ٠

بعد ان ودع الضيوف انتقلنا في الحـديث من التعليم الى السياسة ، فعدنا الى باريس ولندن ، الى عام ١٩٢٧ ، الى الخريف من ذاك العـام ، والى المعاهدة المشؤومة التي ماتت في المهد ٠ وبينما كان الملك يروي آخر اخبارها ، دخل الحاجب يعلمه بقدوم رئيس الوزارة نوري باشا السعيد ، فاستقبله في غرفة اخرى ؛ وعاد بعد قليل وقد تغير وجهه ٠ عاد فرحاً يتألق النور في عينه وفي محيـاه ٠ وما الخبر ؟ لولا ذاك الخبر ، الذي جاء بـه نوري ، لا خبا نوره ، لما نام فيصل تلك الليلة ٠ وكيف ينـام والجيش العراقي في خطر ؟ ويكفي ، وان كان الخطر مبالغاً فيه ، ان تتسلح به المعارضة ، وتنشط في اسقاط الحكومة ٠

جلس الملك ونزع السدارة عن رأسه ، وهو يحمـد الله ٠ ثم اشعل سيكارة وهو يحمد الله ٠ « ما نمت ساعة في الليلة البارحة ، يا امين ، ولا في الليلة السابقة ٠ » قال هذا ، واخرج من جيبه ورقة بسطها على الطاولة ، فاذا هي خارطة مرسومة بقلم الرصاص لناحية كردستان القائمة فيها الثورة ٠

— ها هنا قرية برزان تحيط بها الجبال ٠ ليس من خطتنا ان نهجم هجوماً مباشراً على الشيخ ورجاله ، بل هي خطة التفاف ٠ اننا نطوقهم تدريجاً

ونحن خلال هذا العمل نفتح الطرق ونعبدها . وقد اسسنا مخافر عسكرية في تلك الجبال الوعرة ، ومراكز حكومة في القرى التي نحتلها . ان هذا العمل ، يا اخي ، هو الاول من نوعه في بلاد الاكراد وفي تاريخهم . »

رسم بقلمه على الخارطة خطاً وهمياً يمثل نصف دائرة هي الطرق المعبدة ، وفيها نقط هي مخافر الجيش ومراكز الحكومة . ثم رسم خطاً آخر يبدأ في جبال عقره ويتجه شرقاً ، وقال : « علينا ان نتم حركة الالتفاف من هذه الناحية ، فندفع بالشيخ احمد البرزاني الى الشمال ، فيضطر اذ ذاك ان يقبل شروطنا او يلجأ عند الحدود الى الاتراك[1]

كنت اشعر ، وفي القلب انكماش ، اننا عدنا الى الحرب العظمى ندرس الخرائط ، ونتتبع حركات الجيوش . بعد ان رسم الملك الخطة على خارطته قال : « ولك ان تسأل عن الخبر الذي اقلقني وحرمني النوم . منذ يومين ، في الساعة السابعة مساء ، جاءتنا برقية تقول ان جنودنا ، نحو الفين ، تقدموا في مضيق زازوك — ها هو — واحتلوا القرية . ولكن البرقية التي وصلتنا في صباح اليوم التالي تقول ان العصاة استولوا على الحملة ، وان المكارين خلصوا بغالهم ، بعد ان تركوا احمالها للعصاة ، وفروا هاربين . ثم جاء في البرقية الثالثة الخبر الاسوأ . عاد رجالنا ليخلصوا الحملة فوجدوا رجال الشيخ في الاماكن التي كانوا قد اخلوها . اي ان العصاة استولوا على قمم الجبال ، وبات جيشنا في الوادي بخطر ، كانه في شرك . ومنذ ذاك الحين ، ما جاءنا خبر . تصور حالتي ، يا امين . هل محق الجيش ، وما بقي

(١) بعد ثلاثة اشهر ، في حزيران ١٩٣٢ أخمدت الثورة ، فدخل الشيخ احمد واهله وبعض رجاله حدود الاتراك ، فقبلوهم بعد ان جردوهم من سلاحهم . ثم عاد الشيخ الى العراق وهو اليوم من انصار الحكومة .

واحد منه يبعث الينا بالخبر ؟ ما نمت والله الليلة البارحة · وفي هذا النهار كله ، في هذه الساعات السوداء ، تراني احاول الابتسام ، واستقبل الضيوف واستمر في العمل ، كأن الامور في احسن حال · هذا شغل الملك ، يا امين · ومن يغبطني عليه ؟ وانما الله ، سبحانه وتعالى ، يمدنا بالصبر والقوة ، لنظل واقفين على الاقل موقف الدفاع في هذه الحياة · ويفتح لنا من حين الى حين باب الفرج · كما فعل الان سبحانه وتعالى · فقد انتصر جيشنا على العصاة ، واسترد القسم الاكبر من الحملة · »

لقد حاولت في هذا الفصل ان اصور للقارىء في ما رويته من الاخبار وقصصته من القصص ، صوراً قلمية تجمع بين الظاهر وبعض ما تراءى لي من الباطن ، فيحيط بمناقب الملك فيصل ، اذا ما تأملها ، ويدرك شيئاً من السر في عظمته · لا يمكنني ان اقول ان هذه العظمة كانت كامنة فيه حتى في تلك الايام التي انتهت بنكبة دمشق ، ولا اقول انها ثمرة التجارب والمحن · فان رأس السر في العظمة البشرية لا يزال غامضاً ، وليس لمن لا يدعي غير اليسير اليسير من العلم الا ان يقف امامه متضعاً خاشعاً ·

بيد ان في قصصه واخباره منافذ للنظر لا تنكر قيمتها ، ولا يخفى جمالها · وسأختم هذا الفصل بما احسبه اجمل هذه القصص · فهي تريك نفس فيصل في سذاجتها وجمالها واتضاعها ، في صدقها وسلامة طبعها ، في حالتي الكدر والسرور · سألت الملك ذات ليلة ان يخبرني بما يحسبه اشأم ايامه واسعدها في عهده العراقي · اما اشأم الايام ، يوم العملية الجراحية ومجيء السر برسي كوكس بذلك الامر ليمضيه — الامر بنفي الزعماء الوطنيين — فقد اسلفت ذكره في الفصل الرابع · وهاك قصة اسعد الايام :

— « كنا في الاستانة نذهب مع الوالد لنسلم على السلطان ، فندخل

ردهة العرش في طولمه بغجه ، مكتفين مختوي الرؤوس ، فنجثو امام البادیشاه وتقبل يده • ثم نرجع بضع خطوات مواجهين العرش ، ونقف ساكتين وبعد ذلك نخرج كما دخلنا ، والقلوب تنبض بالخوف والله والخشوع • ولت الايام • وولى السلطان • حاربنا الاتراك • وانتصرنا عليهم • ثم رجعت الى الاستانة وانا ملك العراق • وعندما وصلنا الى حيدر باشا ، قادمين من انقره ، كان في انتظارنا عند المرسى مركب بخاري ، هو اليخت الذي كان للباديشاه ، فاقلنا الى غلطة •

وعندما نزلنا في الشاطىء الاوربي ، رحنا نزور القصر ، قصر طولمه بغجه ، القصر الذي كنا ندخله خائفين مرتعبين ، بين صفوف من الجند ، لنقف مثل العبيد امام الباديشاه ، فدخلناه هذه المرة بسلام • وكانت الاروقة والقاعات كلها خالية خاوية • اما ردهة العرش ، فقدهالني فراغها عندما وقفت في الباب • ولكن العرش ، العرش الفارغ المهجور ، لا يزال فيها • فمشيت اليه هذه المرة بخطوات ثابتة ، وصعدت درجاته سامد الرأس ، وجلست في الكرسي ! وكان سروري والله عظيما • فحمدت الله رب العروش ، مشيدها وهادمها ، وقلت لنفسي : لقد ادركت ثأرك اليوم • »

الفصل العاشر

نحن وهارون الرشيد

... وكان الناس محتشدين حول الساعة العظيمة — الاعظمية — التي صنعها احد ابناء البلدة المشرّفة باسم الامام الاعظم وبجحرته — لتعرض في معرض الزراعة والصناعة ببغداد . وكانت الساعة قائمة في باحة المعرض الكبرى ، فوق قاعدة عالية من الحديد ، وهي تردد نبأ الزمان — ايامه وساعاته ودقائقه — وتبشر العراق بعهد جديد .

والناس متلعون ، والعيون منهم محدقة ، بهذا الاثر الصناعي العربي البغدادي الاعظمي ، والكل معجبون به — هذه الساعة مفخرة المعرض والله بل مفخرة العراق — ومن ذا الذي يقول ان العقل العربي عقيم ، لا يحسن الاختراع — انها ، والنبي ، بيت القصيد في هذا المعرض . وقد قال احد الشعراء : ان صانعها عبقري متحدر من اجداد عبقريين . وقال الاخر : وما ادراك ، قد يكون من سلالة ذلك العربي الذي صنع الساعة التي اهداها الخليفة هارون الرشيد الى عاهل الفرنجة الامبراطور شارلمان .

انه لشاعر بعيد الخيال ، ولكنه ما علم ان الخليفة هارون الرشيد كان في تلك الساعة واقفاً مثله ، وقريباً منه ، بين المتفرجين . وقد كان

مع الخليفة هارون الشاعر ابو النواس ، والملك فيصل ، و كاتب هذه السطور ،

اربعة متنكرون في زي التجار أموا المعرض في تلك الليلة متفرجين متنزهين ، وكل واحد منهم طلق المحيا ، طليق عنان النفس ، يروم من الزمن ساعة ولا كالساعات ، تعود فيها الحياة الى صفائها الاول ، وطهرها القديم . وكان فيصل طروباً في اجتماعه بهارون ، وهارون مبتهجاً بلقاء فيصل .

وقفنا عند الساعة الاعظمية ، و نحن مثل غيرنا هنــاك معجبون بدقة صنعها ، وضخم هيكلها . ولكن الخليفة هارون هز برأسه وقال : « كأن رقبة الصانع من الخيزران . او يظن ان رقاب الناس تمط لتصير كرقاب الجمال . وهل افك رقبتي ، بارك الله فيك ، لا درك مصير الزمان ؟ اين التناسب ، يا فيصل ، بين الساعة وقاعدتها ؟ هذا نقص في الصناعة وخلل في الفن . ما كان اهل الصناعات والفنون في ايامنا يقترفون مثل هذه الذنوب . بل كانوا يرعون قاعدة التناسب والانسجام . وكنا ، الله يبارك فيك ، اذا اخلّ احد بها ننبهه ، ونهديه ، واذا استمر في فعلته نقصيه . كنا ننشد الكمال في ما نصنع ونخترع ، وان كان قليلا . ولا عجب ان بدت اعمالنا حقيرة في هذا الزمان . الا اننا ، على قلة بضاعتنا ، كنا ننشد الكمال — ما تسمونه اليوم المثل الاعلى — في كل شيء منهـا . اي والله المثل الاعلى في كل شيء وحتى في التهتك . لو لا ذلك ، الله يبارك فيك ، لما قربت مني هذا الخبيث ، الذي يتدحرج في اموره من تحت الى فوق .

فانتفض ابو النواس وقال : « ولو لا ذلك لشنق مولاي هارون نفسه . أفلا تذكر ، يا طويل العمر ، ما قلته لي يوم عدت بعد غيبة شهر في الحانة ؟

— شهر في الحانة ، يا خبيث — اني اذكرك بما قلت — مع بنت الساقي ، وغيرها من البنات ، خير من سنة في القصر مع المعتقات من الحريم . »

— « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ومن تهتكك ، ايها الاثيم . »

— « وما تهتكنا ، ياطويل العمر ، اذا قسناه بتهتك اهل هذا الزمن؟ قد لا تجد في هذا المعرض اثر منه . في هذه الجادات المتألقة ، وبين هذه الزينات الباهرة ، والآثار الصناعية الساحرة ، يُخسف الحسن حتى في ولدان الجنة . اما اذا خرجت من ها هنا ، وجلت في المدينة ، فانك لترى العجب . هناك في الحانات والقهاوي والمرابع ترى المئات والالوف من تلاميذ الداعي لكم بطول العمر حسن بن هاني المكنى بابي النواس . »

— « أو لم تر في بغدادنا غير هذا يا ابا نواس . » ؟

— « عفوك ، سيدي فيصل . اني في ما قلت مفاخر ، لا مهاتر . وقد شاهدت غير ذلك مما يدعو للفخر والابتهاج . ان في هذه البغداد ، يا مولانا ، من العلوم والفنون ما يحمل كبار علمائنا وفقهائنا على الانزواء والاختباء . وكنا نحن مع ذلك حاملين مصباح العلم والفلسفة . ما شاء الله . ما نورنا اذا قابلناه بنور اليوم غير نور الحباحب . يظهر لي ان كل شيء في هذا الزمان كبير ضخم عظيم ، مثل هذه الساعة . العلم والفنون والدعارة ، كلها جبارة . اني والله اخشى ان اعيش في هذا الزمان . فان قلت الشعر قاله مثلي مئات ، وان جلت في الحانة ضعت بين المستخمرين والمستخمرات وان قلت يا غلام ، قالوا كلهم هات هات . حسن بن هاني تدحرج مرة من تحت الى فوق ، في بيت من الشعر . والناس في هذا الزمان يتدحرجون على الدوام ، ولا يصحون ، على ما يظهر لي ، ليدركوا حالهم ، ليعرفوا في الاقل هل هم فوق ام تحت . . . والمزلقات والزلاقات كلها من عند اولئك

الفرنجة ، الذين كانوا في زمانك ، يا مولاي ، مطمورين بالجهل . كانوا البرابرة ، وكنا المتمدنين — اما اليوم . الله ، الله . هم الاساتيذ في العلمين ، والمسيطرين في الخافقين . »

كنا نمشي الهوينا ، والانظار منا تسوح بين المتفرجين ، ونقف هنا وهناك عند الآثار المعروضة ، بينما كان ابو النواس يحدث ولا يبالي ، كأنه يخطب في الحانة لكي لا يسمع اصوات الناس . وما ادهش الخليفة في ما قال ، ولا ادهش الملك . بل سمعت الاثنين ، عند ما وقف عند « العلمين » و « الخافقين » ، يتحدثان في موضوع آخر . وفي تلك الفينة ، مرّ بنا شاب انكليزي ، امرد ، مشرق الوجه ، ازرق العين ، فطوقه الشاعر بنظرة من نظراته ، وردد بيتاً من الشعر . وقف ليردده ، وتلفت وهو يردده . هذا كل مانبهت له من امره . فقد كانت الاذن مرهفة للملكين ، فسمعت هارون يقول لفيصل : « لو كان للفرنجة في ايامي جزء صغير مما لابنائهم اليوم من العلوم ، لفتحت لهم بلادي ، وقصري ، وقلبي . »

فقال فيصل : « فتحت قصورك ، وفتحت قلبك للبرامكة ، ورأيت ما كان منهم . »

بهت هارون ، ونظر الى فيصل ملوماً فقال : « سامحك الله ، سامحك الله . اما وقد ذكرتَ البرامكة ، فساصارحك في امرهم . كان البرامكة في الملك انوار العدل والحكمة ، وكانوا في قصورهم من ابناء الغرور والحماقة . نقلوا الحكومة الى قصورهم ، وطمعوا ببلوغ ذرى البذخ والكرم والسيادة . ظنوا ، الله يبارك فيك ، انهم يبارون هارون ويفوقونه . وكنت في بادىء الامر اقول : دعهم ينفقون في بلادنا ماجاءهم من خراجنا . ولكني ، وقد استفحل امرهم ، ادركت خطأي .

هذا ، الله يبارك فيك ، ما كنت اقوله وانا الخليفة هارون .

« اما الآن ، وانا هارون بن محمد بن المهدي اقول : انكرت يومذاك حكمتي . وما كنت يا اخي فيصل ، الا بشراً . فنزا بي القلب ، الله يبارك فيك ، الى ما نظنه واجباً لاعزاز الكرامة البشرية التي تسترقنا . وترددت والله وتحيرت ، وقلت غير مرة لنفسي : كن رشيداً . الصبر اجدر بك ، والنصيحة اولى . فحاورتني النفس قائلة : انهم من اساطين الحكمة والعدل في الملك . فهم في غنى عن النصيحة . يجب عليهم ان يكونوا في بيوتهم حكماء ، فلا يجعلونها مقر الحكم والسيادة . وما كانوا كذلك .

« البرامكة ، الله يبارك فيك ، نصبوا المشنقة لانفسهم ، وانا الخليفة هارون الرشيد شددت الحبل . ومع ذلك اقول لك ، يا فيصل ، اني نادم على ما كان . ولو كان لي ان اجلس مرة اخرى على عرش بغداد ، لكنت ارحب بكل اجنبي ذكي نشيط ، على شرط الا يتدخل في السياسة ، وان يحترم شرائع البلاد ، وان يروّض حريمه على الصبر والعفة ، او يدخلهن حلالاً في دين المسلمين ... ان في الرجل المتعلم ، العامل المجتهد بركتين ، الله يبارك فيك ، بركةً لنفسه وبركةً للملك . وان في الرجل الجاهل الخامل ، الكسول القنوع لعنتين ، لعنةً تلزمه ، ولعنةً تلحق بالمُلك وبالامة . »

— « في كلامك ، يا اخي هارون ، كنوز من الحكمة . واني منتفع بها ، ونافع لاهل العراق ان شاء الله . ولكن الاجنبي في هذه الايام يحترم الشرائع اكثر من الوطني . اتدري السبب؟ اني اصارحك ، يا اخي ، كما صارحتني . الاجنبي يحترم الشرائع لانه هو الذي يسنها . فهل كان البرامكة يسنون الشرائع في ايامكم ؟ »

— « لا والله ٠٠ الا بعض القوانين ، وبمشورة الخليفة وارادته ؟ » ٠

— « وهل حاولوا ان يقتلوا الثقافة العربية بنشرهم الثقافة الفارسية في البلاد ؟ »

— « بل عكس ذلك ٠ الثقافة العربية ، الله يبارك فيك ، كانت في ايامنا الثقافة العليا — الثقافة المنشودة في كل الامم ، والمفاخر بها في كل الامم ٠ »

— « ولو حاول البرامكة ان يسنوا شرائع البلاد ، ويستقلوا بالعمل ، ولو حاولوا ان يقتلوا الثقافة العربية بنشرهم الثقافة الفارسية في العراق ، ولو كانوا يجيئونك اليوم بعد اليوم قائلين : امض يا هارون هذا الامر ، وانشر يا هارون هذا البلاغ ، ثم يدعونك الى قصورهم ، ويأدبون لك المآدب — فماذا كنت تفعل يا اخي ؟ »

— « واحدا من امرين ٠ اما ان انتقل الى الحانة فاقضي فيها بقية ايامي انا وابا النواس ، واما ان انصب المشنقة للبرامكة بيدي ، قبل ان يصيروا اصحاب الامر والنهي في البلاد ٠ ولا تنسى ، الله يبارك فيك ، اني ما غمدت السيف مرة — سيف الحق ، — سيف النبي ، عليه السلام ، لقد كان دائماً مسلولاً ٠ »

— « وما قيمة السيف ، يا اخي ، في زمن الدبابة والطيارة ؟ »

— « فقهت ، الله يبارك فيك ، فقهت معناك ٠ لكل اجل كتاب ٠ وكتاب هذا الزمان العلم ، بل العلوم الطبيعية والفنية ٠ انك على حق ٠ يا فيصل ، انك على حق ٠ وان ثروة العقل لاكبر الثروات واضمنها ٠ ولكن اجدادنا ، الله يبارك فيك ، علمونا ان نحترم العلم ، ونكرم النبوغ ، ان كان عربياً او عجمياً ٠٠ وقد عملنا نحن بما علم الاجداد ، اليس الامر كذلك

يا ابا نواس ؟ »

قال هذا ملتفتاً ، ثم وقفنا كلنا مدهوشين . اين ابو النواس ؟ لقد اضعناه . فقال الخليفة : « من عاداته ان يختفي ثم يظهر . انا اعلم الناس بامره . هو قافية شاردة ، وقاه الله شر القوافي ... اعود الى ما قلت ، فهل كنت اصبر على هذا الخبيث ، ابي النواس ، واتحمل شواذاته،لو لم يكن شاعراً مجيداً ، وعبقرياً فريداً ؟ »

وقفنا امام كشك يباع فيه التبغ ، صاحبه شاب في ثوب افرنجي وسدارة . وبينما كان فيصل ، وقد فتح علبته فوجدها فارغة ، يشتري حاجته من السكاير ، سأل الخليفة الشاب رأيه في ملك العراق .

فقال وهو يبتسم : « هو احسن ملوكنا . »

فقال هارون لفيصل : « ومن كان قبلك ؟ إما ان هذا الفتى ابله ، واما انه ذكي ظريف . »

ثم وجه اليه سؤالاً اخر : « هل الملك فيصل مسلم تقي سليم العقيدة ؟ »

— « وهل انا امام لاعرف هل عقيدته سليمة ام فاسدة . اما انه تقي ، فعندنا من هم اتقى منه ، وعندنا من هم دونه . الكفار يملأون البلاد لعنة الله عليهم . ولكن جلالة الملك يصلي الجمعة في الجامع ، ويصوم رمضان او بعضه ، ويحسن الى الفقراء ، والى من يحتاجون المال لتعليم اولادهم . وبعد ذلك ... الا يكفي ؟ .

فقال فيصل : « وماذا بعد ذلك . قل لنا بالله عليك . »

— « لا والله لا علم لي بشيء محقق . وان من الظن لاثماً . » وقف عندها ليعني بحاجة رجل اخر ثم استأنف كلامه : « اظنكم غرباء . لهجة الشيخ بدوية ، ولكنها غير عراقية . هي اقرب الى لهجة اهل الحجاز . »

فقال هارون : « انما انا حجازي · والرفيقان من بلاد الشام · قل لنا الان ماذا يقول اهل العراق في ملكهم فيصل ؟ »

— « يقولون انه كان في اول عهده ، منذ عشر سنين ، مسلماً تقياً زاهداً يحفظ الشرع ، ويرعى التقاليد · لا خمر في القصر ، ولا مطامع دنيوية ، ولا مكاتيب سرية ، ولا قيل وقال · »

رمق هارون فيصلاً بلحظة فيها غمزة ، وسأل بياع التبغ سؤالا اخر فقال متبرماً : « اعفوني بالله عليكم · انا لست من حزب المعارضة · »

استأنفنا السير ، واستأنف الخليفة الحديث ، فقال : « ان الفتى لنجيب ، وانه لاديب · وقد ذكرتني كلمة قالها بمسألة مهمة ، يا فيصل ، استرعي لها نظرك · هي مهمة وهي مزعجة · ولكنك سيد البلاد ، بارك الله فيك ، وقطب من اقطاب الحكمة في زمانك · فوجبت عليك القدوة ، ووجب على الرعية الاقتداء · يتغير كل شيء في الحياة ، يا فيصل ، الا اولية في الرجل والمرأة · فالرجل يظل رجلا ، والمرأة تظل امرأة ، الى اخر الدهر · والصلة الجنسية تظل هي هي ، مهما تبدلت الشرائع ، وتلطفت النزعات والنزوات · وليس بين الحكماء والانبياء ، بارك الله فيك ، من ادرك هذا السر ادراك نبينا عليه السلام · لا حاجة اذن الى ان اذكرك بالآية : وانكحوا ما طاب لكم ···

« قد يكون لبعض المسلمين ، بارك الله فيك ، اسباب شخصية او اقتصادية او صحية في احتذائهم حذو النصارى واليهود · او هي « الموضه » في هذا الزمان ، زمانك يا فيصل ، ان يكتفي المسلم بواحدة شرعية ، ويسلك مسلك اليهود والنصارى في سد الفراغ · قبيح بنا نحن المسلمين ، ان نأتي الامور من غير ابوابها الشرعية ، وخصوصاً ان في شرعنا ما ترتاح

اليه الحكمة البشرية ، وتتبجبج فيه الاماني الطبيعيــة . لذلك اقول : خير للمسلم ان يستمتع بحقه كما هو في الآية ، وينزه نفسه ، بارك الله فيك ، عما دق ورق من اساليب الزنى عند النصارى واليهود . هذي هي نصيحتي لكل مسلم ، وخصوصاً لملوك المسلمين . هي نصيحة خبير مجرب ، بارك الله فيك ، بل نصيحة من يستمد حكمته من شمس الاسلام ، من حكمة سيد البشر عليــه السلام . ولا تنسوا حتى وما ملكت ايديكم ... ان بي شهوة للقهوة . »

دخلنا القهوة فاذا هي حافلة بالناس في شتى القيافات ، تكللهـا العمائم والعُقُل والطرابيش والسدارات وبعض البرانيط . فجلسنا الى طاولة صغيرة نحن الثلاثة ، فصفق الخليفة كفاً على كف صفقة خفيفة ، اولا وثانيـاً وثالثاً ، فقـال له فيصل : نسيت انك في قهوة ، وضرب الطاولة بعصاه ، فجاء الخادم مسرعاً . فقال هارون : « ونسيت ان تقول : اننا في زمان لا يفهم اهله بغير العصا . »

كان جالساً الى جنبنا شيخ جليل بهي الطلعة ، كبير العمة ، ابيض اللحية ، ومعه غلام امرد مكحول العين ، يرتدي بزة من الدمقس ، ورأسه مكلل بعقال ضخم عراقي . فالقى الخليفة عليهما السلام ، وتبادلوا بعد التحية بضع كلمات عن المعرض — « زين والله زين — اطال الله بعمر جـلالة الملك . »

فقال الخليفة : « مجدد عهد الرشيد — رشيد زمانه . »

فقال الشيخ : « ليت للمسلمين خليفة مثل هارون . »

الخليفة : « وهل كان يهتم هارون بالزراعة اهتمام الملك فيصل ؟ وهذا المعرض ، لو كان لهارون ان يشاهده لفضله على ابهة الملك ، ومجد الخلافة . »

الشيخ : « زمانه غير زماننا · »

الملك : « لو كان هارون المالك سعيداً في بغداد اليوم لكان اعظم ملوك زمانه · »

الشيخ : « صدقت والله صدقت · »

الخليفة : « اوليس فيصل ملكاً عظيماً ؟ »

الشيخ : « ان الله سبحانه وتعالى يوزع نعماءه على الامم بقدر استحقاقها · فلو استحق العراق لكان مليكه خليفة المسلمين، واميرالمؤمنين مثل الرشيد والمأمون · اهل العراق ، وما ادراك ما اهل العراق ، يلزمهم ملك قوي مقتدر بطاش ، قطاع رؤوس · والله ، يا اخي ، لو قطع الملك فيصل بضعة رؤوس في بغداد ، لقال الناس : هذا وربك ملك · ولخافوه واحترموه واكبروه · اما انه دمقراطي فذلك لا يفيد · واين نحن من الدمقراطية ؟ يمر الملك ، اطال الله بعمره ، في اسواق بغداد ، فلايدري احد به · واذا عرفوا سيارته لا ينهض له احد · فلو انه يخرج في موكب ملكي ، تتقدمه وتتبعه ثلة من الجنود ، على خيول مطهمة ، لكان الناس يقفون مسلمين اكراماً واجلالاً · ولكانوا يدركون ما عليهم من الواجب ويشعرون بشيء من سطوة الملك · »

امسك الشاب بجبة الشيخ وهو يتكلم ، كأن يقول له : اكثرت الكلام ، قم بنا · فنهض اذ ذاك معتذراً وقال : « اننا مضطرون ان نحرم انفسنا انسكم · قد حان وقت الصلاة · »

ومشى الشاب سبهللاً كما يقول اصحاب المقامات ، وراح الشيخ يتدعدع وراءه ·

ثم جاء الخادم يرفع الفناجين وهو يبتسم ابتسامة تهكم وازدراء ·

فسأله الخليفة ان يفصح عما في باطنه ، فقال : «انا اعرف هذا الشيخ التقي النقي . هو مترفض والله . نقطة القهوة تنقض وضوءه . وهو يصلي الصلوات الخمس كل يوم ، ويصوم رمضان ، ويزكي ماله ، ويحسن الى الناس . والله العظيم . ولكنه ، وقد رأيتم ، من آلبو غلام .»

فقهقه الخليفة ، وقال للملك ونحن خارجون : « يظهر ان بغدادك ، يا فيصل ، مثل بغدادي . ولكنها نقية نقية — بلغة هذا الصعلوك — اذا قابلناها بغيرها من المدن في الشرق وفي الغرب . وخصوصاً بتلك المدينة التي جاء ذكرها في كتاب النصارى .. وهذا ابو النواس . قلت لكم انه يختفي ، ولا يلبث ان يظهر .»

التقينا به في الباب ، وهو يمسح جبينه بردنه . « عرقت من الطواف ، وانا انشدكم » ثم اخبرنا ان ظمأ به خفف خطاه ، وجنح هواه . — « ما لقيت في المعرض كله غير هذا الذي يسمونه صَوْدا . وهو يحرق اللهاة ، ويفسد النيات . هو شراب البُلْه ، لا شراب الشعراء .»

— « واين وجدت ضالتك ، يا خبيث . ومن هداك اليها ؟ »

— « ملك في صورة انسان ، وهو من الفرنجة ، ورب الكعبة . سلمت عليه ، وقلت : انت من الكرام . فقال باللغة العربية : والحمد لله . فضحكت وقلت : وانا من البصرة ، وبي ظمأ لا يرويه ما في هذا المعرض من شراب ، فهل انت من الهادين والمشاركين . فقهني ، والله ، وقال : وانا من بلاد دون البصرة — والمثل عندكم يقول : الغريب للغريب نسيب . فقلت : هيا بنا اذن ، فاخذ بيدي ، وهو يردد كلمتي . ما رأيت والله الطف منه واظرف . مشينا الى حانة في زقاق الى جانب الشارع الكبير ، نوره ضئيل ، وممره ظليل . ودخلنا الحانة فرحب بنا شاب امرد مثل رفيقي

الفرنجي ، قيل لي انه اسرائيلي . ولكنني عففت ، والله يامولاي ، عففت . علمني الفرنجي العفة . شربت واياه الاول والثاني والثالث من الشرابين الذهبي والفضي . وكان ابليس والاسرائيلي ينصبان الشرك لابي النواس ، ولكني لزمت صاحبي ، وخرجنا من الحانة ، وتهنا في ذاك الزقاق . »

وكان الخليفة اول من انتبه الى ازرقاق وورم حول احدى عينيه . فسأله مستخبراً فقال وهو يمسح عينه بردنه : « تعثرت في ذاك الزقاق فارتطم وجهي بالحائط . »

— « ولم لاتقول زلقت ، يا خبيث . الحمد لله انها في العين الواحدة ، لافي الاثنتين . وما كان حالك يا ترى لو كان يحمل ذاك الانكليزي خنجراً ؟ ولكن الانكليز ، على ما أُخبرت ، لا يحملون السلاح في سهراتهم وسكراتهم . فهم يستعملون بدلها الايدي ، مضمومة هكذا . »

ضم الخليفة يده ، ودنا بها من وجه شاعره ، وأغرق ثانية في الضحك .

فقال الملك فيصل لي : « هذا ملك يعرف كيف يعامل الشعراء . »

ابو النواس بلهجة المنكسر المتهكم : « لا استطيع ان اخفي شيئاً عن مولاي هارون . »

— « بل هناك شيء ، يا خبيث ، يجب عليك ان تخفيه ، او ان تطرحه للكلاب . »

— « اطرحه للكلاب ؟ سانصبه والله على قفا الدنيا . »

— « واين العمود للعلم ؟ أتتبجح حتى في حضرتي ؟ .. »

ثم اشاح بوجهه الى الملك وقال : « هل عندك شاعر في البلاط ، يافيصل ؟ يلزمك شاعر اكراماً لاصدقائك الانكليز على الاقل . »

كنا قد وصلنا الى بوابة المعرض ، فوقف الملك فيصل يشعل سيكارة ،

ثم قال : « عندنا من الشعراء عدد كبير . ولكنهم كلهم خارج البلاط ، والحمد لله . وقد كنت مرة حبيبهم جميعاً . كنت ، يا اخي هارون ، سيدهم ومليكهم المفدى . ذلك عندما شاع ان في نية الملك ان يعين واحداً منهم للبلاط . شاعر يتولى مديحي ! شيءٌ سخيف ، يا اخي ، ولكنها عادة ملكية ، اظنها سرت من الشرق الى الغرب ، وهي تعود اليوم الينا . لاليكون لنا فيها شيء مما لك من السلوى في ابي النواس ، بل لتزيد في همومنا . كدت والله اقع في الشرك . فعند ما انتشر الخبر ان التعيين مرجح لواحد من اثنين ، تنازع هؤلاء الاثنان وتخاصما ، وساءني ان اكون السبب في ذلك . فقلت : لا هذا ولا ذاك . فانقلب الاثنان علي ، وعمدا الى القوافي يرميان بها من كان بالامس سيدها ومليكها المفدى . فعينا واحداً منهما في مجلس الاعيان ، والاخر في مجلس النواب فسكتا ، واطمأنا ، وشرعا ينظمان القصائد في مديح — الربيع ! »

ابو النواس : « احشُ فميهما ورقاً ، فتدفع الاذى عن نفسك وعن الربيع . »

الملك : « ولكن الشعراء احسن من سواهم ، يا اخي هارون ، فهم في القليل يشعرون بجمال الربيع ويمدحونه . فان في هذا البلد من لا يعجبهم حتى الربيع . »

الخليفة : « لقد سررت ، يا فيصل ، بهذه العودة الى البلد الذي اشعلت يوماً فيه مصابيح المجد والاحسان ، وبذرت فيه الشيء الكثير من بذور الحماقة . وقد سررت كل السرور بنزهتنا هذه ، الله يبارك فيك . ولكني لا اغبطك في حالك ، ولا أسر لو اراد الله ان يعيدني الى سابق عرشي ، ويعيد الي الغابر من مجدي . لا ، والله ، لا أسر . فالناس ناس

في كل زمان . اكرمهم ، الله يبارك فيك ، يمدحوك . احرمهم يذموك .
اما اولئك الذين لا يرون الجمال حتى في انبلاج الفجر ، ولا يعجبهم حتى الربيع ، فلا خير فيهم للملك ، ولا خير فيهم لانفسهم .

« ولكني قبل الوداع اقول هذه الكلمة : سيمدحونك كلهم غداً ، وسيتغنون بذكرك ، وسيرفعون اسمك عالياً ، الله يبارك فيك ، ليكون نور هدى لاهل العراق ، وللعرب جميعاً . اما الان فهم كلهم اولادك يا فيصل العقوق منهم والبار . وقد يكون في العقوق ما يساعدك لتصل الى الذروة العليا ، فيعم احسانك ويشمل الجميع ، الا نفسك — الا نفسك . سنة الله في اصفيائه ، المصلحين لعباده .

« وكلمتي الاخيرة ، الله يبارك فيك ، هي هذه : تمسك بحبل الانكليز ، ولا تفلت حبل المعارضة . استودعك الله . »

رسالة الى فيصل

اخي فيصل

كنت في هذه الفانية المثل الكريم للاخاء الانساني • ومن اجمل الكلمات التي كنت تفوه بها ، في محادثتك الناس ، تلك الكلمة العذبة الصادقة — « يا اخي »

وكنت انا احجم عن التشبه بك ، وبينك وبيني تقاليد الملك والنسب ، فلا ادعوك بالكلمة التي تفصح عن اصدق العواطف في قلبي •

اما وقد اصبحت روحاً صافياً عاوياً ، وانا في عزلتي روح طليق على الاقل ، فليس ما يحظر علي ما كانت تحول دونه التقاليد •

لذلك اصدر رسالتي بالكلمة التي تحلو للقلب ، وتصفو للروح فادعوك اخي ، واكتب اليك ، كما يكتب الاخ الى اخيه ، لاطلعك على بعض ما جرى بعد فراقك ، مما يزيد بيمنك وحبورك •

وقبل ذلك احب ان اكشف عن لوعة في قلبي • من الاماني التي كنت اتمنيها امنيتان وضعها القدر في حقيبتك عند ما دعاك الرحيل • الاولى هي ان اراك ها هنا في الفريكه ، لا لما في الزيارة الملكية من الشرف والمجد — وانا لا ازال في القيد الذي يحببهما الى الناس — بل ليكون في الزيارة

ما يستبشر به لبنان ، جبلنا التعس المحبوب ، فيلطف الله بحاله ، وينعش بعض اماله .

والامنية الثانية هي ان ارى هذا الكتاب الذي كتبته فيك ، بين يديك ، تقرأه لتعيد على الاقل ذكرى جلساتنا واحاديثنا ، فتبسم تارة ، وتجهم اخرى ، وانت تقول : ما شاء الله ، او سامحك الله . ثم تشعل السيكارة وتمد رجليك وتعود الى صفحاته تقلبها ، فتضحك مستهجناً او مستحسناً ، وتاخذ القلم لتكتب على الهامش كلمة فيها اصلاح خطأ او فيها شيء من الحب والتوبيخ .

امنيتان من الاماني التي يسفيها الزمان كما تسفي الرياح رمال النفود ، وينثرها كما ينثر الاعصار اوراق الخريف .

هذا القليل اقف عنده — والقليل من حديث المرء عن نفسه كثير . فان هناك امة باجمعها تود لو كان لها ان تخاطبك لتبثك لوعتها ، وتشكو اليك حزنها . بل ان اصوات الحزن ، وانّات الاسى ، لا تزال تتصاعد من القلوب ، في كل قطر من الاقطار العربية .

ولكني ، وانا الآن واقف بينك وبين هذه الامة ، ساحجب عنك سحب الاحزان ، ووابل الدموع ، وابعث اليك بطائفة من الاخبار المفرحة .

واولها ، يا اخي فيصل ، هو انك في انتقالك الى رحمة الله ، فتحت فتحاً مبيناً . فقد كنت ملك العراق ، فصرت ملك الامة العربية . كنت سياسياً عاملاً في العراق ، فصرت قوةً للعمل في قلوب الناطقين بالضاد في كل مكان . كنت تجاهد في سبيل العرب ، فصرت علماً للجهاد في كل قطر ، في كل بلد ، في كل ربع عربي .

فما اجمل الموت الذي اتى بروحك حتى على القلوب الغريبة القصية ،

فاحيا فيها حب العرب ، والاعجاب بالعرب . ما اجمل الموت الذي حمل بين جناحيه تعاويذ اسمك الى ما وراء الافاق ، الى كل قطر عربي صالت عليه الاجانب . ما اجمل الموت الذي طاف بنور وجهك في الخافقين ، وهو يشعل مصابيح اليقظة العربية .

وما اجمل الموت الذي اشعل نور الحقيقة ، في قلوب العراقيين جميعاً ، فاجتمعوا حول جثمانك يذرفون الدموع السخية ، ونثروا ازاهر الحب والاجلال في طريقه الى المقر الاخير .

وهناك في فسيح العراء ، قرب القصر الذي كان مهد الجهاد وعرشه ، اجتمعت الوفود من الاقطار العربية كلها ، واحتشد الالوف من العراقيين ليبكوا فيصل العرب ، وليمجدوا فيصل العرب ، وقالوا جميعاً ـ قالوا اخيراً ـ انه مات في حومة الجهاد ، وانه سيد الشهداء .

وليس في العراق اليوم من ينكر انك كنت فيه الكل في الكل ، وكنت تذكي نار الجهاد ، وتنير مصباح الهدى في احزاب الامة كلها ، وفي دوائر الحكومة جمعاء . فكنت الملك ، وكنت الزعيم الاكبر ، كنت الوزير والنائب والمعلم . كنت الهادي ، وكنت الفيصل في جميع الامور .

وما كان خارج العراق بعد فراقك ؟ ينبغي ان نعود سبعمائة سنة لنجد في التاريخ ملكاً آخر توحدت في حبه واجلاله قلوب العرب في كل الاقطار ، وقلوب المسلمين في كل مكان . فمنذ ايام صلاح الدين الى اليوم مارفع العرب ، ما رفع الاسلام ، علماً واحداً فوق الاعلام ، وما مجدوا ملكاً كما مجدوك .

ذكرت صلاح الدين ، وما بالغت . فقد فقته في ما احرزته من حب واجلال ، وفي ما غرسته من الآمال . ذكرت اوربة صلاح الدين وتنفست

الصعداء عندما بلغها خبر موته · وذكر الشرق صلاح الدين ، وظل في الشرق من الامراء والملوك من قالوا عند موته ، في سرهم او في جهرهم : والحمد لله ·

لست ادري ، يا اخي فيصل ، لماذا يخاف الناس الموت· فالذي يموت في جهله وخموله يرتاح من ذلة الخمول والجهل· والذي يموت في مجده وجهاده يزيده الموت مجداً ، ويشعل مصباح جهاده في قلوب الناس ·

وهذه حفلات الاربعين التي اقيمت لذكرك الخالد في كل قطر عربي ، وفي كل مدينة عربية كبيرة · بل اقيمت في الشرق وفي الغرب ، في القارات الاربع ، الاوروبية والاميركية والافريقية والاسيوية · في نيويورك ، في البرازيل ، في بونس آيرس ، في لندن ، في جنيف ، في باريس ، في برلين ، حتى في السنكال ، صلى الناس على فيصل ، وترحم الناس عليه ·

قلت الناس ، وما قلت العرب وما قلت المسلمون · الناس ، وفيهم المسيحي والاسرائيلي والوثني ، وفيهم العربي والاميركي والاوربي ، اجتمعوا في اربعة اقطار العالم ليترحموا على فيصل ، ويمجدوا ذكر فيصل ، ويرفعوا اسم العرب ، وعلم القضية العربية · وهذا ما يسرك ، ولا ريب ، كما يسرني كما يسر كل عربي ، كما يسر كل امرئ ينشد الحرية والاستقلال ، والوحدة والسلام ، لامته ولسواها من الامم ·

وهناك خبر من ابهج الاخبار ، خبر يبهجك كثيراً ، وقد لا يدهشك بقدر ما اظن · ذكرت جنيف ، والذكر ذو شجون · فاننا لنذكرك فيها مجاهداً ، ونذكرك في سويسرة مستشفياً ، ونذكرك في يومك الاخير ، وقد نضوت عنك ثوب هذه الحياة الفانية · وكنا نتوق دائماً الى اخبارك ،

وانت هناك ، في شتى أحوالك ، ولا تأمنها ومصدرها صحافة اوروبية تلونت اغراضها والتوت . فلولا الامير شكيب هناك في منفاه ، لفاتنا الكثير من اخبارك المهمة التي فيها للعرب العبرة والذكرى . لولا الامير شكيب صوت العرب الاعلى ، وعقل العرب الافهم ، في هذا الزمان ، لما علم العالم العربي بما كان من جهادك واستشهادك في اخر ايامك[1] وفي هذا ما يدعو للسرور ، ويوجب علينا الشكر للامير شكيب . واني ارجو ان يكون له فيه في منفاه بعض التعزية .

اما الخبر المبهج الذي اشرت اليه ، فهو يتعلق بفتنة الاشوريين ، تلك الفتنة التي قطعت عليك الاستشفاء ، وعجلت باجلك . فقد انتصر العراق في جنيف ، انتصر في القضيــة التي اثارت عليك وعلى العراق ثائرة الصحف الاورويــة الاستعمارية . وتلك الصحف نفسها ، التي حملت عليــك بامم

---

(١) « ولما حدثت حادثة الاشوريين كنت عند المرحوم في « برن » فأطلعني على الخبر وقال لي : انني ذاهب الى بغداد ولا يسعني غير ذلك لاني اخشى ان يهيج الشعب العراقي على الاشوريين نظراً لما بدا منهم من انكار الجميل ، ومن الغدر بالعسكر العراقي . . .

قلت له : وما يدعوك ان تذهب بالطيارة ? فما لك الا ان تذهب الى « برنديزي » ثم تركب الباخرة الى مصر . . . فان الرحلة هكذا تكون اخف تعباً عليك .

قال لي : لا بل ساذهب بالطيارة من « برنديزي » ، وسأكون يوم الرابع في بغداد . فقلت له : انت تعمل اذن عمل قائد عسكري ، لا عمل ملك . فقال لي : نعم . انا لست بملك . وانما انا جندي في خدمة امتي . فعند ذلك ودعته ، ورجوته ان يتذكر صحته ، بعد ان يسكن هذه الثائرة ، ويعود للاستشفاء في اوروبه . وكان هذا الحديث بينه وبيني بحضور جلالة اخيه الملك علي . »

الامير شكيب ارسلان في مقال له تناقلته صحف الاخبار

الانسانية والدين ، ولها في الدين والانسانية اغراض لا تخفي على النـاس ، ذكرتك بالخير بعد وفاتك ، بل اعترفت بفضلك وعبقريتك[1]

واما نصرك المبين في جنيف ، فهو في دفاع العراق لدى عصبة الامم في مسألة الاشوريين . فقد برهنت حكومة العراق على حصافة ومقدرة في سياستها ، وعلى عدل وصدق في ادارتها ، في الكتاب الازرق الذي صدّرته ، وفي دفاع وفدها لدى العصبة هناك . ان ذلك الدفـاع ليبهجك حقاً ، وليزيد بجبك لثلاث من رجال العراق الكبار ، لياسين ونوري ورستم ، فتبارك بهم من عليائك . وقد اثبتوا للملإ ما كنت مستعداً ان تثبته[2] فعينت العصبة لجنة للاهتمام باسكان الاشوريين هؤلاء خارج العراق .

---

(١) « انعقد الاجماع على نبوغ هـذا الرجل في السياسة والكياسة وكرم الاخلاق . حتى لم يخالف في ذلك اعداوه واعداء امته . ولقد راينا الذين لم يكدر صفوهم موته يعترفون له في جرائدهم بانه كان اعظم شخصية في الشرق »

الامير شكيب ارسلان في مقال له تناقلته صحف الاخبار العربية

(٢) « وقال جلالته في صدد الحملة على العراق : اني اعجب لقوم يستحلون دماء الابرياء ، فيخربون المدن والقرى على رؤوس اصحابهـا ، باسم الارشاد والتمدين ، ورعاية للمصالح الدولية ، بينا يقيمون النكير ، ويشنون الغارات المنكرة ، على شعب يدافع عن كرامته واستقلاله ، ويتظاهرون بالغيرة على من كان جزاوهم القتل ، لانهم كانوا يحرقون الجنود العراقيين احياء . واحمد الله انني مستعد ان اثبت للملاء اننا لم نقتل بريئاً ، وانا لقوم تأبى كرامتنـا ان نستحل دماء الابرياء .

وتحدث لنا كثيراً عن اهتمامه لقضية الجزء الثاني من بلاده (سوريه) وانـه شارع في وضع اسس المفاوضات مع حكومة باريس . وقضى اخر ليلة من ليـالي حياته يسامر جلسائه ، ويمازحهم بدون كلفة . وكان يداعبني بقوله : انك هرم ، وانك تكبرني كثيراً . »

الامير شكيب ارسلان في مقال له تناقلته صحف الاخبار العربية

بقي الخبر الذي يبهجك، ولا غرو، اشد الابهاج، اجعله مسك الختام. هو يتعلق بمن كان بالامس قرّة عينك، وهو اليوم قرّة عين العراق. ان الآمال بالغازي كبيرة. وقد برهن حتى الان في موقفين على ما فيه من نجابة وشجاعة واقدام. فاثنى عليه الوفود الذين حضروا حفلة الاربعين ببغداد، واعجبوا به كل الاعجاب. وعندما وقف على المنبر، مكان سعيد الذكر والده، ليفتح البرلمان كبرت قلوب الناس به، واهتزت لخطابه. وعندما وصل فيه الى الكلمة: سنظل سائرين الى الامام، وقالها بصوت الزعيم المقدام، وهو يضرب المنصّة بيده، هتف النواب: ليحيي الغازي، وصفق له استحساناً جميع الحاضرين، وفيهم النساء الاوروبيات وسفراء الدول وقناصلها.

وقد قال الغازي الى كل من حدثه انه سيحذو حذو الوالد العظيم، ويهتدي بنور هداه. وفقه الله.

امين

حاشية: ان امنيتي الكبرى، عندما تجيء نوبتي، هي ان تكون انت، يا اخي فيصل، اول من اجتمع بهم هناك، فنجلس جلسة الاحباب ونعيد ذكرى مجالسنا واحاديثنا في هذا العالم.

النسر العربي[1]

حلق النسر في الفضاء بعيداً ،

رجع النسر في الفضاء شهيداً ، —

شهيداً بكفنه السحاب ،

شهيداً تشيعه النجوم ،

شهيداً نعته شمس الضحى ،

شهيداً حملته اكف السماء ،

فكان علياً ، وكان وحيدا

***

نسر العروبة مَدرجَهُ البطحاء ، ومشحذ جناحه جبال الرسول .

نسر العروبة حبيبُ الحرَم ، وربيب البوادي .

---

(١) تليت في حفلتيِ الاربعين في دمشق والقدس

كان البادية مرضعته ، والخيام مأواه ،

والرمال فراشه ، وملعب صباه .

نسر العروبة في حمى الحرية —

طليق جريء ، وديع ابي ، انيس وفي .

نسر العروبة في ظلال قدسية —

شفيق كريم ، طهير حليم ، قوي نقي .

تبارك الحمى ، وتباركت المرابع والرمال .

تبارك الارث ، وتباركت السجايا .

فمن جبل النور نوره ، ومن المضارب شعوره .

ومن قمم الهَدى[1] شممه ، ومن ربيع الطائف زهوره

***

وقد كتبت له الهجرة ليتم الله خلقه فيه .

فكان من العُرْب ، وكان من السراة .

بل كان في الصروح الفخمة مثله في بيوت الوبر ،

وكان في المجالس المهيبة مثله في فسيح العراء .

فمن بساتين يلدز سوسن مبسمه ،

(١) جبل الهَدى قرب الطائف

ومن مياه آسية[1] حلو شمائله ،

ومن بلوج الفجر على ضفاف البوسفور بهاء طلعته ،

ومن ذهب الشفق على حواشي مرمرة ذهب نطقه ،

ومن ظلال السرو في جوار ايوب تلك الوداعة فيه وتلك السكينة

***

نسر العروبة ربيب العاصمتين ، عاصمة الرسول وعاصمة الخلافة ،

عاصمة الحق والهدى ، وعاصمة السياسة والدهاء .

فمزجت يد الاقدار شرابه ، وفتحت للنبوغ ابوابه ،

ثم همست في اذن النسر تقول :

ان وراءك ثلاثمئة والف سنة من النُبل ، وامامك ابدية من الآمال .

وان وراءك امة الكهف ، وقد هجعت ستمئة سنة ،

وامامك اعلام اليقظة والجهاد .

سمع النسر ووعى ، وراح يذكي الاماني ، ويستنهض الهمم .

ثم عاد الى وطنه ، ليجاهد في سبيل قومه ،

(١) اشارة الى الينابيع التي تدعى مياه آسية الحلوة في بحر مرمرة

فامتشق الحسام باسم الله ، وباسم العرب .
ونادى المنادي : الثورةُ ، الثورة !
فهبت في البوادي رياح السموم ،
وفزع الى فيصل البدو والحضر ،
وهللت للحسين أبيه المدن والواحات ،
وكان الجهاد ، وكان النصر ، وكان الفتح الجديد .

***

امة الكهف – ها كها بعد ستمئة سنة ، تدهش المستيقظين ،
وهاك فيصلها ، وقد كتب لاعلامه الفوز المبين .
ها كه بجيشه الظافر في العاصمة الاموية ،
بل في قلبها وقلب ابنائها ، عزيزاً كريماً .
هو العيد .
واجمل ما فيه دمشق تغرد الاغاريد .
هوذا المُلك العربي الجديد .
وهي ذي ربة التاريخ تنبيء بالبعث والخلود .
ولكن هناك ، على ضفاف التميس ، شهوداً يذبذبون ،
وهناك ، على ضفاف السين ، الخصوم .

راح فيصل يستأنف الجهاد في بلاد المهيمنين على مقدرات الامم ·

فوقف في باريس، في مجلس المستهزئين، ونطق بالحق المبين ·

فكان كالحمل بين النمر والاسد [1]

بل كان ، والحق حليفه ، كالاسد المصفد بين الثعالب والذئاب ·

فعاد وحليفه الوحيد يقول : الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ·

فنشطت الامة ، واخذت حقها ·

فكان الاستقلال ، وكان التاج ، وكانت ميسلون ·

حلق النسر في الفضاء بعيداً ،

رجع النسر في الفضاء شهيداً

***

ليس في حقائق الوجود كلها انصع من حقيقة البعث والخلود ·

ليس في مظاهر الكون جمعاء اروع من مظهر الاستمرار والتجدد ·

---

(١) أي كليمنصو ولويد جورج

تهمس الطبيعة في قلب السنين فتحيي في فصولها الراحلة املاً ابدياً ٠

يضع الله في حقيبة الربيع المودّع حفنةً من بذوره الخالدة ٠

يكفن الله الشتاء الراحل بكفن من الثلج المبطن بالزهور النائمة حول القبور ٠

يمر سرب القطا راحلاً راجعاً بين فصلَي القنوط والرجاء ٠

تغرد القبرةً على غصنها الطري وتذهب، ثم تعود الى التغريد ٠

رحلة يتبعها اوبة ، واوبة يتلوها رحيل ٠

ومثل الربيع، ومثل القبرة ، ومثل عواصف الشتاء ، ما لبث النسر أن عاد ، الى الجهاد ٠

***

عاد فيصل ينشد في العراق الامل الاعلى — امل الامة المنكوبة بالانتدابات والجهل[1] — املاً ضاع وما اضمحل ٠

عاد يشيد على ضفاف الرافدين ملكا عربياً جديداً ٠

عاد يجدد في عاصمة الرشيد والمأمون عصر العلم والهدى ، عصر المدنية والفلاح ، عصر الثقافة والنور ٠

---

(٢) اشارة الى نصف البلاد العربية الشمالي ونصفها الجنوبي

ولقد شيد الملك ، وجاهد اثنتي عشرة سنة ليوطد اركانه ٠
وما جاهد ها هنا بسيفه ، بل بما هو امضى واعز واغلى ٠
جاهد بعقله ، جاهد بقلبه — وجاد بعد ذلك بروحه ٠
جاهد بكل ما استطاع ان يحشد وينظم من جيش السلم والولاء ٠٠
من العلم والحكمة ، من الحلم والكياسة ، من ثبات يمده
اليقين ، من دهاء يبرره الحق المغلوب ، ومن حزم
تتناوبه الصلابة واللين ٠
وكانت محجته واحدة في كل حال من احواله — واحدة
ناصعة بارزة ، لا تغيرها الاحداث ، ولا تحول دونها
قوى المسيطرين ٠
وحدة العراق ، وحرية العراق واستقلاله ، تلك هي المحجة العليا ٠
وكانت الطريق اليها كدرب الصليب الى الجلجلة ٠
لله انت يا فيصل العرب ويا رب الوئام ، يا سليل بيت
الرسول ، ويا صفي المسيح ٠
فقد حملت صليب العراق والانكليز اثنتي عشرة سنة كاملة ٠
وقد اجتزت المراحل المضنية المخزية كلها ، وانت تبسم
وتكظم وتمشي —

تمشي سامد الرأس ، عالي الجبين ، شديد اليقين ، وطيد الامل .
قلت : تمشي ، وما قلت : تطير .
فكم مرة طرت لاغراضك العالية وامعنت .
كم مرة تحديت ، على نحول جسمك ، العواصف والانواء .
لقد كنت حقاً نسر العروبة بين العاصمتين ، عاصمة الرشيد
وعاصمة ابناء العمل الصامت ، أولي الوجوه المشرقة ،
والقلوب المغلقة .
وقلت انه حمل الصليب اثنتي عشرة سنة وهو يبسم ويكظم،
على الدوام .
عفوكِ ، ايتها الروح الزكية ، اذا انا قلت الحقيقة كلها .
فقد بكى فيصل ، ايها الناس . نعم ، بكى .
وما رأت الامة عين قلبه الدامعة ، وما سمعت جهش قلبه الاليم .
حلق النسر في الفضاء بعيداً ،
رجع النسر في الفضاء شهيدا .

***

سيدي فيصل ، قد زرعت بستاناً في العراق ، ورحلت قبل
ان تراه مثمراً .

قد زرعت بذوراً في البلاد العربية ، ورحلت قبل ان تراها في ازدهار .

زارع يزرع ، وحاصد يحصد ، وقدر يسخر ولا يستقيم .

ولكنك اليوم وغدا رمز هذه الامة وشعارها ، وقلبها وعقلها ومنارها .

وان في نور هداك ليسلك السالكون والمجاهدون .

وان فرخ النسر لفي مقدمة المجاهدين ،

فهو الغازي ، وهو للعهد ضمين .

ولما كنت عليه الخلف الكريم .

لقد كنت في الحرب فيصلاً فاصلاً ، وفي السلم الوديع الجريء الصفي .

كنت في السياسة عينها الباصرة ، وميزانها السوي .

كنت في الكياسة طلعتها الساحرة ونطقها الذهبي .

كنت في الحذق عنوانه ، وفي الحزم برهانه ، وفي الشدة واللين المثل العلي .

كنت في الدهاء معاوية ، وفي الصبر والاباء الشريف الرضي .

كنت في الحلم صنو الرسول ، و كنت في الوداعة اخا الناصري

ولقد انرت قلوب المهيمنين ، هناك على ضفاف التميس والسين .

فصاروا يرون ما تراه حقاً ، ويكبرون جهادك في سبيله .

ولكنهم اعداء انفسهم ، فلا يرعوون ولا يعدلون .

بل هم عبيد للبعل ، وبمشيئته هم مسيرون .

اننا محبون لاخواننا هناك ، فنريد لهم الخلاص من البعل .

نريد لقوّتهم شيئاً من الحق ،ولا يريدون لحقنا شيئاً من القوة .

وهم مع ذلك يبسمون ويجاملون .

اولو الوجوه المشرقة ، والقلوب المغلقة ، انهم المبلبلون .

أو هي الاقدار الباسمة الساخرة .

تفرش لفيصل الزمال الذهبية في مدينة الضباب [1]

وتغدر بامة فيصل يوم تكريمه واجلاله —

تطعنها يوم عيده في الصميم .

عاد فيصل طائراً مؤاسياً .

---

(١) عندما وصل الملك فيصل الى لندن ، في زيارته الاخيرة ، فرشت له الطريق من المحطة الى القصر بالرمل الاحمر ، رمزاً للبلاد العربية ، واكراماً للملك العربي العظيم .

ضمد فيصل جروح الامة ، وانعش قلبها ٠

ثم عاد المؤاسي ينشد في جبال الالب بلسماً لقلبه ، ومرهماً لجروحه ٠

طار مجاهداً — طار مستشفياً — طار مستشهداً — جاد بروحه ٠

***

حلق النسر في الفضاء بعيداً ،

رجع النسر في الفضاء شهيداً ، —

شهيداً يكفنه السحاب ،

شهيداً تشيعه النجوم ،

شهيداً نعته شمس الضحى ،

شهيداً حملته اكف السماء ،

فكان علياً ، وكان وحيداً ٠

تاريخ الحوادث البارزة

في حياة الملك فيصل

١٨٨٣ م ١٣٠١ هـ	ولد في الطائف
١٨٩١	سافر مع ابيه الى الاستانة
١٩٠٥	تزوج بابنة عمه حزيمة ابنة الشريف ناصر
١٩٠٩	تعين ابوه الحسين شريف مكة فعاد معه الى الحجاز
١٩١١	رافق اخاه الامير عبدالله في حملة على عرب عسير الثائرين على الدولة
١٩١٣	قاد الحملة الثانية على الادريسي ، وبعد رجوعه من ابها انتخب مبعوثاً عن جدة في المجلس النيابي العثماني
١٩١٥ — ١٦	كان في سورية رسول ابيه لدى جمال باشا وعاملاً في سبيل العرب ، فاشتبه به جمال وكان ينوي اعتقاله ، فخرج من دمشق بحيلة وعاد الى الحجاز
في ٢ حزيران ١٩١٦ م و ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ	نادى الشريف حسين بالثورة على الاتراك ، وعين فيصلاً لقيادة جيش الشمال
في ٦ تموز ١٩١٧	استولى على العقبة وصار بعد ذلك القائد العام للجيش العربي المؤازر لجيوش الجنرال آلنبي بفلسطين
في ١ ت ١ ١٩١٨ م و ٢٥ ذي الحجة ١٣٣٦ هـ	دخل الشام ظافراً

في ٢٢ ت٢ ١٩١٨	سافر الى باريس ليمثل العرب في مؤتمر فرساي
في ١٢ ايلول ١٩١٩	سافر الى لندن للمفاوضة والانكليز ثم جاء باريس فتفاوض والوزير الاول كليمنصو
في ٨ اذار ١٩٢٠ م و١٩ جمادى الثانية ١٣٣٨ هـ	نادى به المؤتمر السوري العام ملكاً دستورياً
في ٢٥ تموز ١٩٢٠	واقعة ميسلون وسقوط الحكومة العربية
في ٢٦ تموز ١٩٢٠	خرج من الشام وعاد بعد ذلك الى اوربة. فقضى فصل الصيف في ايطاليـة وفصل الشتاء في انكلترة
في اذار ١٩٢١	جاء القاهرة وقـد عُقداً فيها مؤتمر برئاسة المستر تشرشل، وزير المستعمرات يومئذ، للنظر في الشؤون البريطانية في الشرق الادنى ومنها مسألة عرش العراق
في حزيران ١٩٢١	سافر الى العراق فوصل البصرة في ٢٤ من هذا الشهر
في ١١ تموز ١٩٢١	قرر مجلس الوزراء ببغداد ان يكون الامير ملكاً دستورياً
في ٢٣ اب ١٩٢١ و ١٩ ذي الحجة ١٣٣٩	اقيمت ببغداد حفلة التتويج
في شباط ١٩٣٠	اجتمع بابن سعود الملك عبد العزيز في خليج العجم

في تموز ١٩٣١	زار الغازي مصطفى كمال في انقره ليوطد العلاقات الولائية بين تركية والعراق
في نيسان ١٩٣٢	زار الشاه رضا خان في طهران للغاية نفسها وكان في هذه المهمات السلمية موفقاً
في ٣ ت ١ ١٩٣٢ م ورجب ١٣٥٢ هـ	دخل العراق في عصبة الامم وألغي الانتداب
في حزيران ١٩٣٣ م وربيع اول ١٣٥٢ هـ	زار انكلترة زيارة رسمية بدعوة من مليكها جورج الخامس
في تموز من هذه السنة	جاء سويسرة للاستشفاء
في اوائل آب	عاد الى بغداد بالطيارة لاخماد فتنة الاشوريين
في ١ ايلول	عاد الى سويسرة ليكمل دور الاستشفاء
في ٨ ايلول ١٩٣٣ م و ٢٨ جمادى الاول ١٣٥٢ هـ	توفي فجأة بسكتة قلبية في مدينة برن، فنقل الجثمان الى برنديزي ومنها على طرادانكليزي دسبتش الى حيفا وكان يرافقه شقيقه الملك علي ونوري باشا السعيد وجعفر باشا العسكري ورستم بك حيدر وتحسين بك قدري
في ١٤ ايلول و ٢٤ جمادى الاولى	نقل الجثمان في طيارة الى بغداد وكان الدفن في اليوم التالي يوم الجمعة في ١٥ ايلول ١٩٣٣ م و ٢٥ جمادى الاولى ١٣٥٢ هـ

فهرس الاعلام

تنبيه : ان علامة ـ الواردة بين رقمين تدل على ان الاسم المذكور يتخلل الصفحات الواردة بين هذين الرقمين.

لم نذكر اسم فيصل والعراق في هذا الفهرس لان هاتين الكلمتين يتخللان اكثر صفحات هذا الكتاب

— حرف الالف —

— حرف الباء —

— حرفي التاء والثاء —

— حرف الجيم —

— حرف الحاء —

— حرف الخاء —

— حرف الدال —

— حرف الشين —

— حروف الصاد والطاء والظاء —

— حرف العين —

— حرف الغين —

— حرف الفاء —

— حرفي القاف والكاف —

— حرف اللام —

— حرف الميم —

— حرف النون —

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

مؤلفات الريحاني العربيه والانكليزية المذكورة تحت اسمه في كتاب « Who's Who » اي دليل مشاهير اميركا

التآليف العربية وتواريخ صدورها

موجز تاريخ الثورة الفرنسية سنة ٩٠٣
المحالفة الثلاثية سنة ٩٠٣
المكاري والكاهن (قصة) سنة ٩٠٤
الريحانيات جزءان سنة ٩١٠ و ٩١١
زنبقة الغور سنة ٩١٥
خارج الحريم سنة ٩١٧
الريحانيات جزان سنة ٩٢٣ و ٩٢٤
ملوك العرب جزءان سنة ٩٢٤
تاريخ نجد الحديث سنة ٩٢٧
النكبات سنة ٩٢٨
التطرف والاصلاح سنة ٩٣٠
انتم الشعراء سنة ٩٣٣

التآليف الانكليزية وتواريخ صدورها

رباعيات أبي العلاء سنة ٩٠٣
كتاب خالد سنة ٩١١
اللازوميات سنة ٩١٩
تحدر البلشفية سنة ٩١٩
جادّة الرؤيا سنة ٩٢١
انشودة الصوفيين (شعر) سنة ٩٢١
ابن سعود ونجد سنة ٩٢٨
حول الشواطيء العربية سنة ٩٢٩
بلاد اليمن سنة ٩٣٠

